المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلا



مجلة العلوم العربية

مجلة علمية فصلية محكمة

العدد الثاني والعشرون
محرم ١٤٣٢ هـ

عمادة البحث العلمي
Deanship of Academic Research

www.imamu.edu.sa
e-mail: journal@imamu.edu.sa

مجلة العلوم العربية

مجلة علمية فصلية محكمة

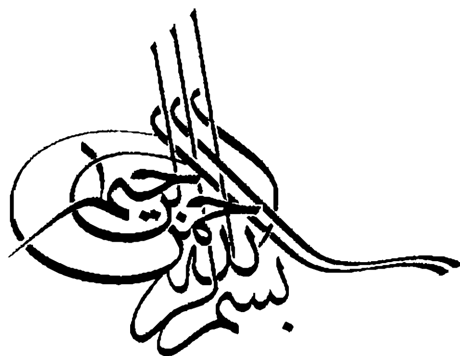
العدد الثاني والعشرون

محرم ١٤٣٢هـ

www.imamu.edu.sa
e-mail: journal@imamu.edu.sa

عمادة البحث العلمي
Deanship of Academic Research

رقم الإيداع: ٣٥٦٣ / ١٤٢٩ بتاريخ ١٩ / ٠٦ / ١٤٢٩هـ
الرقم الدولي المعياري (ردمد) ٨ ٤١٩ ـ ١٦٥٨



أعضاء هيئة التحرير

قواعد النشر

مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (العلوم العربية) دورية علمية محكمة، تصدر عن عمادة البحث العلمي بالجامعة. وتُعنى بنشر البحوث العلمية وفق الضوابط الآتية :

أولاً : يشترط في البحث ليقبل للنشر في المجلة :

١- أن يتسم بالأصالة والابتكار، والجدة العلمية والمنهجية، وسلامة الاتجاه .

٢- أن يلتزم بالمناهج والأدوات والوسائل العلمية المعتبرة في مجاله .

٣- أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج .

٤- أن يتسم بالسلامة اللغوية .

٥- ألا يكون قد سبق نشره .

٦- ألا يكون مستلاً من بحث أو رسالة أو كتاب، سواء أكان ذلك للباحث نفسه، أم لغيره .

ثانياً : يشترط عند تقديم البحث :

١- أن يقدم الباحث طلباً بنشره، مشفوعاً بسيرته الذاتية (مختصرة) وإقراراً يتضمن امتلاك الباحث لحقوق الملكية الفكرية للبحث كاملاً، والتزاماً بعدم نشر البحث إلا بعد موافقة خطية من هيئة التحرير .

٢- أن يكون البحث في حدود (٥٠) صفحة مقاس (A ٤) .

٣- أن يكون حجم المتن (١٧) Traditional Arabic، والهوامش حجم (١٤) وأن يكون تباعد المسافات بين الأسطر (مفرد) .

٤- يقدم الباحث نسخة مطبوعة من البحث، ونسخة حاسوبية مع ملخص باللغتين العربية والإنجليزية، لا تزيد كلماته عن مائتي كلمة أو صفحة واحدة .

ثالثاً: التوثيق :

١- توضع هوامش كل صفحة أسفلها على حدة .

٢- تثبت المصادر والمراجع في فهرس يلحق بآخر البحث .

٣ - توضع نماذج من صور الكتاب المخطوط المحقق في مكانها المناسب .

٤ - ترفق جميع الصور والرسومات المتعلقة بالبحث. على أن تكون واضحة جلية .

رابعاً : عند ورود أسماء الأعلام في متن البحث أو الدراسة تذكر سنة الوفاة بالتاريخ الهجري إذا كان العَلَم متوفى .

خامساً : عند ورود الأعلام الأجنبية في متن البحث أو الدراسة فإنها تكتب بحروف عربية وتوضع بين قوسين بحروف لاتينية. مع الاكتفاء بذكر الاسم كاملاً عند وروده لأول مرة .

سادساً : تُحكَّم البحوث المقدمة للنشر في المجلة من قبل اثنين من المحكمين على الأقل.

سابعاً : تُعاد البحوث معدلة، على أسطوانة مدمجة CD أو ترسل على البريد الإلكتروني للمجلة .

ثامناً : لا تعاد البحوث إلى أصحابها، عند عدم قبولها للنشر .

تاسعاً : يُعطى الباحث عشر نسخ من المجلة، وثلاثون مستلات من بحثه .

عنوان المجلة :

جميع المراسلات باسم رئيس تحرير مجلة العلوم العربية

الرياض ١١٤٣٢- ص ب ٥٧٠١

هاتف : ٢٥٨٢٠٥١ - ناسوخ (فاكس) ٢٥٩٠٢٦١

www. imamu.edu.sa

E.mail: journal@imamu.edu.sa

المحتويات

أصل تسمية الحركات وألقاب الإعراب في اللغة العربية
تحليل نحوي صوتي

د. عبد الله بن محمد بن مهدي الأنصاري
قسم النحو والصرف وفقه اللغة – كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

أصل تسمية الحركات وألقاب الإعراب في اللغة العربية:
تحليل نحوي صوتي

د. عبد الله بن محمد بن مهدي الأنصاري
قسم النحو والصرف وفقه اللغة – كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

الحركات شطر اللغة، لأن اللغة تتكون من الحروف الصوامت، ومن الحركات، ولا يمكن تكوين كلمة بدون هذه الحركات، فهي مع قلة عددها تعادل جميع الحروف الهجائية من جهة أهميتها في اللغة، ولهذه الأهمية دارت دراسات كثيرة حول الحركات، وتسمية الحركات العربية: فتحة وضمة وكسرة، ونصبة ورفعةً وجرةً، وتسمية السكون سكونا وجزما ووقفا، كل ذلك جاء بعد الابتداء في تدوين العلوم العربية وغيرها، وقد جاءت هذه الدراسة للنظر في معرفة الأصل المعتمد في تسمية كل حركة بما سُميت به، ومناسبة تلك التسمية للنطق المسموع، ومعرفة السبب في تسمية كل حركة باسمين: اسمٍ أُطلقَ على ما جاءت فيه لازمة من المبنيات، واسمٍ مُطلقٍ على ما جاءت فيه طارئةً، وعلاقة ذلك بالحقيقة الصوتية المسموعة، والدلالة المعجمية لكل لفظة، واستجلاء موقف الدراسات الحديثة من ذلك، والنتائج التي يجنيها الدرس النحوي من كل ذلك في المجال التركيبي، ومجالات الصوتيات الوظيفية، والمجال التعليمي.



مقدمة:

تتكون كل لغة من لغات العالم الإنساني من أنظمة صوتية، ولكل صوت حيزه الذي يحدده من الجهاز النطقي، وملامحه وصفاته التي تميزه وتكيفه، وحدوده وامتداداته التي يقع في إطارها. ويكون بيان الإنسان بحسب تميز لفظه بصوته، وتتكون لغته من نظامه الذي تخضع له تلك الأصوات، حين تتكون منها المقاطع، ثم تتكون الكلمات من المقاطع الصوتية، وتأتي كل كلمة على بناء خاص، له صيغة ووزن صوتي يحدده، على وفق الدلالة المعجمية، ثم تتركب الجمل من الكلمات، على حسب المعاني الذهنية المرادة للمتكلم، ومن الجمل تتكون العبارات والفقرات التي يعد كل منها قطعة كلامية مستقلة.

إن هذا الترتيب المنطقي لمراحل تكّوُن الكلام البشري يدل دلالة واضحة على أن اللبنة الأولى منه هي الأصوات المجردة، ومن هنا جاءت أهمية تتبع المكونات الصوتية لمفردات اللغة، لمعرفة مكوناتها وطبائعها ومنطلقاتها، فيسهل تقنينها وضبطها، وتنظيمها وتشكيلها على وفق خصائصها المستمدة من طبيعتها المجردة، تلك الطبيعة الخالصة التي يظهرها الجهاز الصوتي لدى الناطقين بها، من غير أيّ تكلف ولا تعثر.

من هنا جاء الإحساس بالحاجة إلى معرفة كل شيء ممكن عن كل صنف من صنوف الصوت اللغوي، لاستجلاء حقائقه، وتوظيفه وَفق طبيعته الصوتية، ومن فروع هذه المعرفة استكشاف ما يتعلق بالأصوات الحركية في اللغة، من زاوية نشأتها وتسميتها، وعلاقة ذلك باستعمالها في الجانب التطبيقي، وكانت الفكرة الداعية إلى الوقوف على الأصول الصوتية التي اعتمدها واضعو النحو العربي في تلقيب علامات الضبط الحركية، وألقاب الإعراب، لأجل محاولة الوصول إلى مفهوم هذه العلامات والمصطلحات لدى أهلها الأوائل، ولمعرفة الصلة بين أسمائها ودلالاتها، وتبيانِ موقف الدراسات الحديثة وما توصلتْ إليه في هذا الشأن؛ لصلة ذلك بقِيَم هذه الحركات الدلالية في اللغة العربية، وتعليل ما لها من أحكام كثيرة دارت عليها رحى الدراسات النحوية منذ نشأته، كأحكام الإعلال والإبدال، والاستثقال والاستخفاف، والحذف، والإتباع، والتناسب، والإطلاق، والاستغناء، والإدغام والقلب، والكثرة، والقلة، والشذوذ، وأنواع

الأعاريب.....إلخ. فمن يتأمل هذه الأحكام يجد أن أكثرها راجع إلى طبيعة التصويت بالحركات، وما تتكلفه أعضاء النطق من معالجة بيانها وإخراجها وفصل بعضها عن بعضٍ، فهل لذلك صلة بتسميتها: فتحة وضمة وكسرة؟

ولن أستطرد في دراسة هذا الموضوع دراسة شاملة لمتعلّقاته السابقة وغيرها من مباحث النحو العربي، بمفهومه الشامل للأصوات والصرف والتركيب والدلالة، بل سأكتفي بالتنقيب عن الأسس التأصيلية لتسمية هذه الحركات بما سُميَتْ به، والتفسيرات المُقَدَّمة من علماء النحو العربي لمناسبة تلك الأسماء لمسَمَّياتها، ثم تحليلها في إطار هذا المفهوم؛ للإجابة عن أسئلة لا تزال تراود دارسي اللغة العربية على العموم، والمهتمين بالدراسات النحوية (التركيبية) على الخصوص، وهذه الأسئلة أهمها ما يلي:

١. لماذا سميت الضمة ضمةً؟ والفتحة فتحةً؟ والكسرة كسرةً؟ والسكون سكونًا؟ ....إلخ.
٢. إذا كانت هذه الأسماء أوصافا صوتية، أو أوصافا لأوضاع أعضاء النطق، فما الموصوف بها على الحقيقة؟ أهو اللسان؟ أم الشفتان؟ أم الصوت المسموع؟ أو غير ذلك؟ وكيف يكون ذلك؟ وفي أي مرحلة من مراحل التصويت يتصف العضو بصوت من هذه الأصوات؟ وهل يمكن قياس ذلك أو رسم حدوده ؟
٣. هل جاءت تسمية هذه الحركات بهذه الألقاب وَفقًا لمعان معجمية مَرعيّة؟
٤. وما علاقة ألفاظ هذه الألقاب الإعرابية بالحركات الأصول من جهة المعنى المعجمي؟
٥. هل لهذه الألقاب الصوتية علاقة بالوظائف النحوية لهذه الحركات في التركيب؟
٦. هل ثمة رَفعٌ حسيٌ في الصوت أو في العضو عند النطق بالضم؟ وهل ثمة شيءٌ ينتصب حقيقة عند الفتح؟ وشيء ينجر أو ينخفض عند الكسر؟
٧. كيف يصح وصف الصوت بأنه مرفوع أو منصوب أو مجرور أو مجزوم؟ أهي أوصاف لنوع الصوت حجمًا وحِدَّةً أم لاتجاهه بحسب وضع العضو وإشارته؟

٨. وما السبب في التفريق بين إطلاقها على المبينات وإطلاقها على المعربات؟ وما حقيقة الفرق بين حركة المعرب وحركة المبني؟ ولا سيما إذا كانتا من جنس واحد.

٩. قد وردت إجابات موجزة عن علماء العربية عن بعض هذه الأسئلة، فما موقف الدراسات اللسانية الحديثة من تلك الإجابات، من جهة الموافقة وعدمها؟

هذه من أهم الأسئلة التي سيحاول هذا البحث الإجابة عنها، وتَفَحُّصَ ما لها من نصيب في الواقع اللغوي، وما جاء فيها عند رُوّاد النحو العربي عبر قرونه السالفة، مقتصرا على ما يؤصِّل للمسألة ويكشف عن ملابساتها بإيجاز، مستعينا بالمنهجين التاريخي والوصفي في الشرح والتحليل، وبما توصلت إليه الدراسات اللسانية الحديثة في الموضوع، ولا سيما حقل الصوتيات منها؛ لما لهذه المسألة من صلة وثيقة به.

ويؤمَّل أن ينتج عن دراسة هذا الموضوع على وجه الدقة في مجال الوصف الصوتي، والدلالة اللغوية، والنظر إلى الواقع الاستعمالي، نتائج عدة في مجال الدراسات اللغوية والصوتية، يُتوقَّع أن يكون أهمها ما يلي:

١. تحديد الأثر الدلالي لهذه الأصوات على وجه الدقة بما يزيد على ما وقف عليه الأوائل.

٢. الإسهام في طُرق تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.

٣. التأصيل اللفظي لتعليم الهجاء والضبط والتشكيل للمبتدئين[1].

٤. بيان أسباب ما شاع في النحو العربي من إطلاق هذه الألقاب في كثير من الأحيان على الأحكام الإعرابية لا على الأصوات الموصوفة بها، كقولنا في نحو: " القاضِي أخِي" و"الفتى ساعٍ": كل كلمة من هذه الكلمات مرفوعة! مع أنه لا رفعَ في

---

١) ومن التجارب التي مرت عليّ في هذا الصدد أني طلبت من عدد من طلاب الجامعة أن يلحقوا ضمائر الرفع مع نون التوكيد بمجموعة من الأفعال ثم ينطقوها ويكتبوها مع ضبط كل كلمة بالحركات، فوجدت أن أكثر الطلبة يحسنون نطق هذه الكلمات بعد إلحاق الضمائر ونون التوكيد بها، ولكنهم لا يعرفون من الضبط بالحركات شيئا، وبعضهم يغلط في النطق والضبط معا، وقليل منهم من يحسن الضبط بالحركات، بنسبة لا تتجاوز خمسة في المائة! فتبين أنهم يكتبون خلاف ما ينطقون، وينطقون خلاف ما يكتبون، ويكتبون ما لا يمكن أن ينسب إلى اللغة، وكل ذلك بسبب عدم الاهتمام بالحركات.

الحقيقة اللفظية في أي كلمة من هاتين الجملتين. فما سبب عدم مطابقة الوصف للفظ؟

٥. تقديم وصف واقعي سهلٍ بأسلوب عصري يدعم الدراسات القديمة بما يوافق ما توصلتْ إليه من نتائج صحيحة في التحليل الصوتي واللغوي.

* * *

الوصف العام للحركات اللغوية وإنتاجها

الحركات اللغوية وحدات صوتية منطوقة تصحب الحروف الصوامت، وتُدرَك بحاسة السمع، كسائر الأصوات، وتتخذ أعضاء النطق وضعا خاصا مع كل حركة، وتحدث عن طريق مرور الهواء المنبعث من الرئتين بالوترين الصوتيين فتحصل نغمة حنجرية، وللسان أوضاع مختلفة في أثناء النطق بها، وتتشكل معه منطقة التجويف الفموي بطُرق تتميز بها كل حركة عن غيرها، من غير أن يعترض على الهواء المنبعث من الرئتين شيء آخر[1].

وعرَّفها الإمام الرازي (٦٠٤هـ) تعريفا عاما فقال: "الحركة صوت مخصوص، يوجد عقيب اللفظ بالحرف"[2]. ويكاد وصف المحدثين للحركة يطبق على أنها" صوت مجهور يحدث في أثناء النطق به أن يمر الهواء حرا طليقا خلال الحلق والفم، دون أن يقف في طريقه أي عائق أو حائل، ودون أن يضيق مجرى الهواء ضيقاً من شأنه أن يحدث احتكاكا مسموعا "[3]، وأنها صوت مفرد غير مركب، ينتج بحد أقصى من الاستمرار والإسماع، وبحد أدنى من التوتر والاحتكاك الذي يحصل في الحروف.[4]

ولما كانت حروف الهجاء سواكن في الأصل، لكونهن أصواتاً مجردةً قابلة للتكييف والتحريك، جيء بهذه الحركات ليتمكن من النطق بالحروف وبناء الكلم منهن [5]، لأن الحرف الساكن لا يجري فيه الصوت، فإذا حُرِّك انبعث الصوت في الحركة، ثم انتهى إلى الحرف[6].

---

١) انظر : دراسة السمع والكلام، لسعد مصلوح ١٩٣-٢٠٤.

٢) التفسير الكبير ٤٧/١.

٣) علم الأصوات لكمال بشر ١٥١، الأصوات العربية المتحولة وعلاقتها بالمعنى ١٤٣، المدخل إلى علم اللغة لرمضان عبد التواب ٩١، دراسات في علم اللغة لصلاح الدين صالح ١١٤-١١٥، مقدمة لدراسة اللغة لحلمي صالح ٢٢١، علم اللغة للسعران ١٤٨.

٤) انظر : أسس علم اللغة لماريوباي ٧٨-٨١ وما سبق في(٣).

٥) انظر : سيبويه ٢٤١/٤-٢٤٢، واللغة العربية معناها ومبناها ٧٠، ٧١.

٦) الخصائص ١٣٠/٣، وسر الصناعة ٦/١-٧، ١٧-٢٧.

ومن يتأمل أوصافها في أثناء إنتاجها يدركُ بسهولة سبب تسميتها بـ(الحركة) لانطلاق أعضاء النطق بها متحركة بيسر وسهولة، مع استحالة النطق بأي حرف ساكن دون أن يكون مدفوعا بصوت الحركة قبله أو بعده. فعند حدوثها يحصل للخلاء الفموي تجويف وانفتاح عام، بحيث لا يعترضه مؤثر يحده بقوة بالقياس إلى ما يحصل عند حدوث السكون، مع وجود شيء من الانقباض، ولا يعني ذلك عدم تحدد نوع الحركة بسبب الوضع المعين للشفتين واللسان، فقد يرتفع اللسان من مقدمه أو وسطه أو جزئه الخلفي بحسب جنس الحركة. وكذلك تكون الشفتان مضمومتين قليلاً أو كثيراً بشكل مستطيل أو مستدير، فيجري التصويت بها مستجيبا لجريان الصوت في مروره بهذه الأعضاء على هذه الكيفيات[1].

هذا من جهة إنتاجها، وصفات أعضاء النطق معها. أما من جهة وجودها فهي تأتي تابعة للحروف الصوامت، لأن هذه الحروف موصوفة بالسكون، وعدم إمكان النطق بها خالية من التحريك، ومن ثَمَّ روى سيبويه عن الخليل أنه قال: "الفتحة والكسرة و الضمة زوائد، وهن يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلم به، والبناء هو الساكن الذي لا زيادة فيه، فالفتحة من الألف والكسرة من الياء و الضمة من الواو، فكل واحدة شيء مما ذكرت لك "[2].

يريد أن هذه الحركات تزاد على الحروف الصوامت التي منها بُني الكلام، فإن الحرف المجرد من الحركة هو البناء الساكن(الصامت) فإذا حُرّك كانت تلك الحركة زيادة عليه، أعني زائدةً على المبنى المنطوق الأول، وهو الحرف الصامت، ولم تجعل الحركة أصلا ـ كشأن الساكن ـ لأنها لا تستقل عنه في الوجود. أما الساكن فيمكن وجوده بدون حركة، ومن ثم اعتبرت زائدة عليه، يُجاء بها عند إرادة التركيب، ثم ذكر أن هذه الحركات مشتقات من الحروف المجانسة لهن في المخرج، مستدلا بذلك على زيادتهن، مع أصالة أصولهن التي هي حروف المدّ[3]. واستدل أبو علي الفارسيّ لما ذكره

---

1) انظر: أسس علم اللغة لماريوباي ٧٩، والتشكيل الصوتي للعاني ٣٨-٤٦

2) سيبويه ٤/ ٢٤١ـ ٢٤٢.

3) انظر كلام السيرافي في هامش سيبويه ٤/ ٢٤٢.

الخليل وسيبويه، من زيادة الحركات على الحروف المحركة بها، بسقوطها من حروف المصدر عند الانتقال من البنية العميقة إلى البُنى السطحية المتفرعة عنها. فقال: " الدليل على أن هذه الحركات ليست من أصول أنفس الكلم أنك تشتق من المصدر أبنية مختلفة، فتسقط الحركات التي كانت في المصدر، ولا تسقط الحروف التي هي غير الحركات ....فلو كانت الحركات أصولا لم تسقط كما لم تسقط أنفس الحروف ولم تتغير"[1].

ولقد أطال ابن جني في الاستدلال لكون الحركة بعد الحرف، وذكر ما يفيد أن لها نوع استقلال عنه، وإن كانت مع ذلك لا توجد إلا معه، ولا تتصور بدونه.[2] وجاءت الدراسات الحديثة مؤكدة لهذا[3]بعد ملاحظة حركات أعضاء النطق عن طريق الأجهزة الآلية الحديثة[4]. وتكاد تجمع على أن الحركات وحدات صوتية صاعدة تتلو الحروف ولا تسبقها، وأن هذا هو سر وجودها في أواسط الكلمات وأواخرها[5].

وإن الواقع النطقي لأي حركة في أثناء الكلام لَيفرض الإقرار بكونها صوتا تابعاً لصوت الحرف من جهة وجوده معه، فهذه حقيقة ملحوظة صوتياً؛ كما أن سبر الواقع النطقي لأصوات اللغة يكشف أنه لا يمكن أن يبدأ النطق إلا بصامت[6]، ويدل عليه أن كل حركة أريد النطق بها منفردة تعذر نطقها إلا بصوت الهمزة قبل الحركة[7]، لأن الهمز هو آخر مخارج الحروف الصوامت في أقصى الحلق. وليس بعده مما يلي الصدر مخرج [8].

---

١) التعليقة على كتاب سيبويه لأبي علي الفارسي ٤ / ٢٥ . تحقيق عوض بن حمد القوزي. ط١، ١٤١٥هـ الرياض .

٢) انظر : الخصائص ٣٢١/٢ و سر الصناعة ٢٨/١ و الهمع ٦٢/١

٣) انظر : التواصل اللساني ٤٤/٦ (نقلا عن "دي سوسير"). و المنهج الصوتي للبنية العربية ٣٥-٣٦ .

٤) انظر : Mansour Alghamdi :Analysis, Synthesis and Perception of Voicing in Arabic. P:١٤٤-١٤٥. Al-toubah bookshop. jarecr St.-Riyadh .

٥) التشكيل الصوتي للعاني ١١٥،١١٦،١٣١.

٦) انظر : دراسة السمع والكلام، لسعد مصلوح ٢١٤.

٧) التشكيل الصوتي للعاني ٣٨ . وتهذيب اللغة ٥١/١.

٨) المنح الفكرية ٢٣ .

وإذا أريد تحديد مخرج الحرف بدقة واعتبار صداه الصوتي المعين. فلا بد من الإتيان به ساكنا لا متحركا، لأن الحركة - كما ذكر ابن جني - تُقلق الحرف عن موضعه ومستقره، وتجتذبه إلى جهة الصوت الذي هي بعضه، ثم تُدخَل عليه همزة الوصل مكسورة - أو مضمومة - من قَبْله، لأن الساكن لا يمكن الابتداء به نحو: اِكْ - اِقْ - اِجْ - وهكذا في سائر الحروف ....فإن اتسع مخرج الحرف حتى لا يقتطع الصوت عن امتداده واستطالته، استمر الصوت ممتدا حتى ينفد، فيفضي إلى مخرج الهمزة، فينقطع بالضرورة عندها إذ لم يجد منقطعا فيما فوقها[1].

هذه هي أوصاف الحركات العربية على وجه العموم، ولقد درج العرب على كتابة كلامهم غير مضبوط بالحركات، ثقةً بما طُبعوا عليه من سليقة تمكنهم من النطق بهذه الحركات مع حروفها الصوامت من غير خطإ فيها، ولم يميزوا حركات الضبط برموز تُكتب مع الحروف الهجائية التي يكتبون بها، وساد هذا الوضع إبان عصور ما قبل تدوين علوم اللغة العربية، في الفترة الممتدة من بداية العصر الجاهلي إلى أوائل القرن الثاني من الهجرة النبوية، فلما اضطروا إلى تدوين لغتهم وصيانتها من عوامل اللحن والضعف والتأثر بغيرها، وخافوا على تراثهم الديني والثقافي بدؤوا في ملاحظة أصواتها المؤثرة في ضبطها وتقنينها وصيانتها، فتوصلوا إلى إيجاد رموز لهذه الحركات[2]، ثم سمَّوْا كل حركة باسم خاص، على ما سيأتي تفصيله فيما يلي .

---

1) سر الصناعة ٧/١.

2) يرجح العلماء أن الخط العربي متطور من أصل الخط النبطي والسرياني المشتقين من الخط الفينيقي، ويعد الخط الفينيقي أول الخطوط السامية كلها، على ما يرجحه الباحثون، والخطوط السامية جميعا اشتهرت بإغفال الترميز للحركات في كتابتها، ومن ثَمَّ كانت العرب لا تخص هذه الحركات برموز كتابية، وإن خلوّ الخطوط السامية كلها من الحركات في أصلها ليدل دلالة ظاهرة على الأصالة العربية لحركات لغة العرب، رَسمًا واسمًا، إذ لا يصح عقلا أن يدعى أنها منقولة، مع أن الأصل المنقول منه خالٍ من الحركات أصالةً، وهذه مسألة تتعلق بالكتابة وتاريخها، تعرض لها من كتب في هذا المجال من الباحثين (من أمثال: علي عبد الواحد وافي، في كتابيه: "فقه اللغة" و"علم اللغة" وغانم قدوري الحمد، في كتابه: "علم الكتابة العربية" والكرملي، في كتابه: "نشوء اللغة العربية ونموها" ورمزي بعلبكي، في كتابه: "الكتابة العربية والسامية" ....وغيرهم)، وقد تحتاج إلى مزيد من البحث والتحقيق، وليس محلها

ابتداء الضبط الصوتي لأواخر الكلمات العربية

لقد حظيت دراسة الأصوات العربية بنصيب وافر من العناية والاهتمام لدى الدارسين والواصفين لها. وظهرت بوادر تلكم العناية في أوائل أعمال تدوين علوم اللغة العربية. منذ ألف العلامة الخليل بن أحمد المتوفى(د ١٧٥هـ) رحمه الله معجمه "العين" ثم تلميذه سيبويه المتوفى (١٨٠هـ) رحمه الله. كتابه في النحو العربي، الذي هو الرائد في هذا المجال. ثم توالت جهود أهل العربية في ملاحظة أصواتها ودراستها حتى بلغت ذروتها لدى الشيخ عثمان بن جني المتوفى (٣٩٢هـ) رحمه الله. فقد ألف في اللغة جمعًا من الكتب، منها كتابان اهتم فيهما بالجانب الصوتي اهتماما بالغًا، وصل فيه إلى كثير من دقائقه وقوانينه في اللغة العربية. وسأذكر فيما يلي الخطوات الأولى لوضع علامات الضبط وألقاب الإعراب، ثم أحللها لبيان مدلولاتها اللفظية.

قد كان أولَ عملٍ عمله علماء العربية في محاولة الضبط الصوتي للكلمات العربية نقطُ أواخر الكَلِمِ للدلالة على ضبطها، وهو ما عمله الشيخ أبو الأسود الدؤلي المتوفى(٦٩هـ) رحمه الله، ذلك أن العرب كانت تتكلم بلغتها معربة فصيحة، ولا تلحن فيها. ثم بدأ اللحن يتخللهم شيئا فشيئا، بسبب عوامل عديدة أدت إلى ذلك، وكان من أهمها تأثر العرب بالعجم، فخافوا على العربية فبدؤوا يفكرون في وضع نظام يقنن أصواتها ويضبطها، ليستعان به على "الوصول إلى التكلم بكلام العرب على الحقيقة صوابا غير مبدل ولا مغيّر"[1].

فكان من جملة ما قدموه في هذا الشأن من أعمال، ما ورد عن الشيخ أبي الأسود الدؤلي في منتصف القرن الأول من الهجرة، وكان أول ما بدأ به رحمه الله أنْ جاء بكاتب حاذق، فأخذ أبو الأسود يقرأ أمامه قراءة بينة واضحة الحروف والحركات، وأمره أن يلحظ وضع فمه وهو يقرأ، وأمره أن يأخذ مصحفاً وقلمًا، وقال له :

هذه الدراسة المخصصة للمصطلحات التي أُطلقت على الحركات العربية وربطها بوظائفها اللغوية وحقائقها الصوتية.

١) الإيضاح في علل النحو للزجاجي ص ٩٥.

"إذا فتحتُ شفتَيَّ فانقُطْ واحدةً فوق الحرف، وإذا ضممتُها فاجعل النقطةَ إلى جانب الحرف، وإذا كسرتُها فاجعل النقطة في أسفله، فإنْ أتْبعْتُ شيئًا من هذه الحركات غنةً فانقط نقطتين"[1]. ومراده بالغنة التنوين.

هذه أول خطوة وصلت إلينا فيما يتعلق بمحاولة تقنين الضبط بالحركات العربية كتابةً، وإظهار تلك الحركات رموزا مع الحروف الصوامت، وما يهم الباحث هنا في هذا النص هو ما يلي:

- أنه ذكر الفتح والضم والكسر أوصافا لأعضاء النطق في أثناء التصويت بالحركات، وليست أوصافا للحركات، فدل ذلك على أن تسمية الحركات بهذه الأسماء تطوير لاحق لكلمة أبي الأسود هذه.
- أنه سماها حركات، ورمز لها بالنقط، وجعلها تابعة للحروف الصوامت، ولم يجعلها مستقلة.
- أنه جعل لها كلها رمزًا واحدًا وهو النقطة، لأن المقصود الترميز لمجرد الحركة وليس المقصود الترميز لكل نوع من أنواعها، فهذه النقطة تعتبر "حركة" بصرف النظر عن تصنيفها.
- أن الترميز لها بالنقط يدل على أنها لم تكن معروفة قبل ذلك كتابةً.
- أنه لم يفرق بين الكلمات المعربة والمبنية، لأن صوت الحركة واحد، ولا فرق بين المعرب والمبني فيه.
- أنه حدد لكل حركة موضعها من الحرف، لتمييزها عن غيرها، إذْ كان الشكل الكتابي غير مميز لها، فجعل موضعها هو المحدد لنوع الصوت الملفوظ.
- أنه ربط بين نوع الحركة الصوتية وموضعها بإشارة عضو الصوت ونوع حركته.

فقد اختار لانفتاح الشفتين بُعَيد التصويت بالحرف أعلى الحرف، فسميت تلك الحركة فتحًا لذلك، فهل ثمة علاقة بين صوت الفتح وأعلى الحرف؟ أو المراد اتجاه

---

1) إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل لابن الأنباري المتوفى ٣٢٨هـ ٤١/١، وأخبار النحويين البصريين للسيرافي المتوفى ٣٦٨هـ ص٣٥، والموضح في التجويد لعبد الوهاب القرطبي٤٦١هـ ص٦٤.

الشفتين إلى العلو حين اللفظ بالفتحة؟ أو اتجاه الحنك إلى العلو في أثناء نطقها؟ هذا ما سيتبين بعدُ إن شاء الله.

واختار أن يكون رمز انضمام الشفتين بجانب الحرف، يريد أمامه على السطر. فما علاقة هذا بطبيعة صوت الضم؟ وهل له علاقة بإشارة الشفتين عند انضمامهما؟

واختار لرمز الكسر أسفل الحرف. فهل يعني بهذا كسر الشفتين؟ أي اتجاههما بعكس الفتح. أو يريد كسر الحنك، أي اتجاهه إلى السُّفْل ؟ أوكسر اللسان؟ أو غير ذلك مما يمكن أن تُفسَّر به كلمة الكسر هنا.

لا ريب أن هذا الترميز صوتي مجرد، لم يلاحظ فيه إلا حركة عضو النطق وإشارته. وحركة عضو النطق تابعة لنوع الصوت الذي يُخرجه، والصوت يتكيف أيضا بحسب اتجاه عضو النطق وهيئته في أثناء النطق. والغرض في هذه المرحلة لم يتجاوز تحديد حركات الضبط. كما أن الاعتماد في ذلك لم يتجاوز ما يستنتجه السامع من الصوت المسموع، وما يراه الرائي من أوضاع حركات أعضاء النطق في أثناء التلفظ.

تسمية الحركات وتعيين مخارجها وأوضاع جَريان الصوت بها

من أوائل الأعمال اللغوية التي عُنِي بها علماء العربية تسمية الحركات وتعيين مخارجها. وبيان أوضاع جَريان الصوت بها، ولهم في ذلك ملحوظات توصيفية قد تُعين على الإجابة عما تقدم من استفهامات حولها. وهي تدل على اعتمادهم حركات أعضاء النطق وهيئات الجهاز الفموي في تصنيف الأصوات وتمييز أنواعها وطبائعها، وفيما يلي نماذج مختارة منها عبر العصور التاريخية للدرس النحوي :

الأول: جاء في معجم " العين" أن الخليل بن أحمد رحمه الله ذاق حروف العربية فوجد مخرج الكلام كله من الحلق. فبدأ ترتيب الحروف بأول صوت يخرج من أقصى الحلق. وكانت طريقته في ذواقها أن يفتح فاه بالألف ثم يظهر الحرف عقبه. هكذا: ابْ . اتْ . اثْ . احْ . غْ . اعْ .....إلخ[1].

---

1) العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، ١/٤٧.

أفاد هذا النص أن شيخ العربية الخليل بن أحمد قد اعتمد على أوضاع الجهاز الصوتي في تحديد مخارج الحروف وطبيعتها وترتيبها، وتوصل إلى شيئين مهمين في هذا الصدد هما :

الأول: أن جميع الأصوات تأتي من جهة الحلق. وهذا صحيح، لأن الهواء الذي يصطك بمخارج الحروف يأتي من الرئتين عبر المزمار (الفتحة بين الوترين الصوتيين في الحنجرة) صاعدًا من أقصى الحلق إلى أدناه مما يلي الفم.

الثاني: أن الصوت المميز لا يكون إلا بفتح الفم، على معنى تباعد الفكين شيئًا ما، فإذا كان الفكان متلاصقين فلا يمكن إخراج أي صوت مميز. فإذا انفتح الفم ولو قليلا فأقرب شيء إلى فتحه صوت الألف ولذلك سميت الألف فتحًا. وهذا يعني أن الفتح صوت جوفي غير معتمد على مخرج معين إلا أن مبدأه هو الحنجرة.

وهاتان الملحوظتان المستفادتان من كلام العلامة الخليل تدلان على إدراكه وتقريره أن فحص حقائق حروف اللغة وحركاتها ينبغي أن يكون منطلقه الدراسة الصوتية، وملاحظة أعضاء النطق في أثناء التلفظ. وهذه هي نفسها فكرة أبي الأسود الدؤلي فيما تقدم عنه، ولا ريب أن غياب هذا المنطلق في دراسة اللغة عند من يدرسها سينتج عنه خلل مؤثر فيما يقرره من نتائج.

الثاني: وقال سيبويه: "هذا باب مجاري أواخر الكلم من العربية، وهي تجري على ثمانية مجارٍ، على النصب والجرّ والرفع والجزم، والفتح والضم والكسر والوقف، وهذه المجاري الثمانية يجمعهن في اللفظ أربعة أضْرُب: فالنصب والفتح في اللفظ ضَرْبٌ، والجرّ والكسر فيه ضَرْب واحدٌ، وكذلك الرفع والضم، والجزم والوقف"[1]

إن هذا الكلام يدلنا دلالة واضحة على اهتمام النحو في خطواته الأولى بالصوت، وأنه لا يمكن أن يضبط ويُقنَّن إلا بتأمل الكيفيات التي تجري عليها أصواته، وحصر أنواعها، وتصنيفها وفق طرق اللفظ بها، والتفريق بين الظواهر الصوتية، وتمييز بعضِها عن بعض.

فهذا سيبويه شيخ النحويين بعد الخليل يحصر الطرق التي تجري عليها الحروف العربية في أربعة أصوات : الفتح الذي لقبه بالنصب، والكسر الذي لقبه بالجر، والضم الذي

---

١) سيبويه ١/ ١٣.

لقّبه بالرفع، ثم فسرها بالتمثيل والتطبيق، وبين أنه إنما عبر بالفتح والضم والكسر والوقف إذا كانت الحركة لازمة في فعل أو اسم أو حرف، وعبر بالرفع والنصب والجر والجزم فيما تتغير حركاته بتغير مواقعه الإعرابية، ولكنه صرّح بأن الضم والرفع شيء واحد، والفتح والنصب شيء واحد، والجر والكسر شيء واحد، وكذلك الجزم والوقف[1].

وذكر في مواضع أخرى من كتابه أن الرَّفعة هي الضمة، والنصبة هي الفتحة، والجرَّة هي الكسرة[2]، فدل على أنها جميعا أوصاف صوتية صِرْفة، وأن ألقاب علامات البناء مرادفة لألقاب علامات الإعراب، وليست شيئًا مغايرًا من الجهة الصوتية المجردة، فصوت الضمة هو نفسه الذي يسمى بالرفع في حال الإعراب. وصوت الفتحة هو المسمى بالنصب في حال الإعراب، وصوت الكسرة هو المسمى بالجر، والوقف (السكون) هو المسمى بالجزم، وهذا في غاية الأهمية في الدراسات النحوية، لأن النحويين ربما لم يلتزموا بهذا عند التطبيق، بل يرجحون عليه اعتبار الحركة التي يقتضيها العامل عند التعارض.

ولكن سيبويه وإن كان قد بيَّن بمفهوم كلامه السابق أن ألفاظ الإعراب صوتية لا معنوية، فإنه لم يفسر هذه الألقاب لغويا، ولم يبيّن سبب تسميتها بهذه الأسماء. وهو الشيء الذي ستحاول هذه الدراسة إيضاحه إن شاء الله.

الثالث: روي عن الكسائي (١٩٣هـ) رحمه الله أنه قال: " العربية على ثلاثة أحرف: على الرفع والنصب والخفض"[3].

وروي عنه وعن بعض أتباعه من الكوفيين أنهم قالوا: " أواخر الكلم على ثلاثة أحرف، على الرفع، والنصب، والخفض "[4].

فسمى الحركات حروفًا وعمم، وإنما مراده أنّ نظام اللغة العربية مبني على حرف متحرك بالرفع، وحرف متحرك بالنصب، وحرف متحرك بالخفض، فاللغة العربية تأتي على ثلاثة أحرف متحركة، مرفوع ومنصوب ومخفوض، والمهم هنا حصر الأصوات

---

١) السابق نفسه.

٢) سيبويه ٢/ ٢٠٣، ٢٠٤، و: ٤/ ٢٠٣

٣) شرح عيون كتاب سيبويه لأبي نصر هارون القيسي القرطبي (٤٠١هـ) ص١٨

٤) ارتشاف الضرب ١/ ٤١٤.

العربية في الأنواع الثلاثة، وهذا إيجاز تفصيله أن الكلام يستحيل تكونه من حروف غير متحركة، فلا يمكن أن تكون كلمة من الكلمات إلا بهذه الحركات الثلاث، قصاراً وطوالاً. وأما الصوت الساكن فيأتي تابعًا للأصوات المتحركة، ولا يتكون منه الكلام، وقد أكد سيبويه رحمه الله هذه الحقيقة في مواضع من كتابه[1]، وهو ما تؤكده الدراسات الصوتية الحديثة[2]، وهذا إحساس واضح بأهمية الجانب الصوتي في تكوين النظام اللغوي. وتصريح ظاهر بأن ألقاب الإعراب ألقاب صوتية حسية لا معنوية.

ويبدو أن عدم ذكره للجزم سببه أنه أراد بالرفع والنصب والخفض الحركات التي تتحرك بها الحروف، ولم يرد المواقع الإعرابية التي غلبت عليها هذه التسميات فيما بعدُ. وهذا أخص مما صرح به معاصره سيبويه في كلمته السابقة. حيث قال: "هذا باب مجاري أواخر الكلم من العربية، وهي تجري على ثمانية مجارٍ، على النصب والجرّ والرفع والجزم ...." فسمى حركات أواخر الكلمات مجاري[3]، ثم فسرها بالنصب والرفع والجر والجزم. وأدرج معها (الجزم) لأن آخر الكلمة يتميز بعلامة الجزم من جهة الصوت الخاص بالسكون أو الحذف، كما يتميز بصوت الحركة، فصار السكون أو الحذف من هذه الجهة بمنزلة الحركة في كونه علامةً للإعراب المعيَّن، فهو يتبادل معها المواقع. ومن ثَمَّ فسره بـ(الوقف) لأنه إيقاف للحركة وكفٌّ لها، وهذا إجراء صوتي واضح. وعلامة دالة. وفي تصريحه بـ(أواخر الكلم) دليل على أن الاعتبار بمنقطَع الصوت، ولا تنقطع كلمة إلا على إحدى الحركات الثلاث أو السكون.

وثمةَ من النحويين مَنْ لا يرى أن الجزم من أنواع الإعراب، وهذا مروي عن أبي عثمان المازني (٢٤٧هـ)[4] لكونه سلبا لعلامة الإعراب. وهو وجه آخر يجوز أن يكون هو السبب في عدم ذكر الكسائي له.

الرابع: عن الأخفش (٢١٥هـ) أنه قال: "العربية تجري على ثمانية أحرف: على الرفع والنصب ....الثمانية"[5] وذكر ما تقدم من كلام سيبويه.

---

١) انظر كلامه في ٤ /٣١٨.
٢) انظر على سبيل المثال : دراسة الصوت اللغوي للدكتور أحمد مختار عمرص١٣٦.
٣) انظر : شرح السيرافي ٦٣/١.
٤) انظر ارتشاف الضرب ١/ ٤١٤.
٥) شرح كتاب سيبويه للإمام أبي الفضل الصفار(٦٣٠هـ) ٢٥١/١.

وهو يريد حصر أحرف العربية من جهة ما تأتي عليه من الحركات. لأن هذا هو أساس الكلام وأصله، وهو ما تقدم ذِكْره عن سيبويه والكسائي، وهذا كله تفسير للعمل الذي قام به أبو الأسود الدؤلي، الذي لم يفرق بين المبني والمعرب، لأنه أراد مطلق الحركة.

وقد يكون أراد بـ(الأحرف) هنا الأوجه، أعني أوجه التصويت والتلفظ بها، فيكون المعنى أن اللغة العربية تأتي كلماتها على أجناس ذات ثمانية أوجه؛ وجه الرفع، ووجه النصب، ووجه الجر، ووجه الجزم، ووجه الفتح، ووجه الضم، ووجه الكسر، ووجه الوقف، وهذا بمعنى سابقه؛ لأن المراد بالأوجه الحركات التي يتوصل بها إلى النطق، فكل حركة وجه من أوجه النطق والتلفظ، ومن ثم ذهب بعض شراح كتاب سيبويه إلى أن مراده بالحرف هنا الحركة[١]، غير أنه فرق بين الحركة اللازمة، وهي البنائية، وغير اللازمة وهي الإعرابية.

وممن سمَّى ألقاب الإعراب أَوْجهًا، العلامة ابن قتيبة(٢٧٦هـ) رحمه الله، في قوله: "وجوه العربية أربعة أَوْجهٍ، الرفع والنصب والجر والجزم، وعلاماتها أربع علامات: الضم والفتح والكسر والوقف"[٢]، فجعل الأوجه غير العلامات، ولم يصرح بالتفريق بين المبني والمعرب، مع أن قوله "وجوه العربية" يقتضي العموم، وجعل العلامات للأوجه الأربعة، فكأن الوجه وعلامته شيء واحدٌ من الجهة اللفظية، وهذا حقٌّ لا ريب فيه، والتفريق بينهما مفهوم تركيبي يتعلق بالدلالة النحوية لا باللفظ نفسه.

ذلك أن النحويين خصوا الحركات في الكلمات المعربة بألقاب مخصوصة لا يسمونها بها إذا كانت في البناء، فقالوا: الرفع والنصب والجر للمعرب، والضم والفتح والكسر للمبني، ومعرفة تلك الكلمات متوقف على معرفة دلالاتها المعجمية والتركيبية، فإذا قلت : صلَّى محمدٌ، قلتَ : إنه مرفوع، وإذا قلتَ : رأيتُ محمدًا، قلتَ : إنه منصوب، وإذا قلتَ : نظرت إلى محمدٍ، قلتَ : إنه مجرور، وتقول في (مُنْذُ) : إنه مضموم، وفي (أينَ) : مفتوح، وفي (هؤلاءِ) : مكسور، وفي (هلْ ومِنْ): موقوف، أو ساكن، وقد

---

١) انظر السابق في الموضع نفسه، وشرح السيرافي ٦٣/١.

٢) تلقين المتعلم من النحو، لابن قتيبة، ص١١،(بتصرف يسير).

تستعمل ألقاب البناء في الإعراب، فيقال في نحو (زيدًا) في قولك رأيتَ زيدًا: مفتوح. وذلك يُفعل اتساعا واعتمادًا على وضوح المعنى. ويرى بعضهم أن الأجود ألاّ يُفعل[1]. وهذا التفريق اصطلاحي. ولكنه جيد مستحسن، ولا سيما في التعليم، لأجل التفريق بين المبني والمعرب من الكلمات، فإن هذا من أهم ما يحتاج إليه المتعلم. ومن ثم التزمه أكثر النحويين، وإن اشتهر عدمه أيضا[2].

ويبدو أن اعتبار الطبيعة الصوتية لهذه الحركات، ومراعاة أصل تلقيبها أولَ الأمر هو الذي جعل متقدمي النحويين يكثر منهم عدم التفريق بين الألقاب التي خُصت بها المبنيات والتي خُصتْ بها المعربات في الدراسات النحوية، كما تقدم عند سيبويه والكسائي والأخفش، ومن ذلك قول الأخفش أيضا: " قال الله تعالى: ﴿وإنْ كلٌّ ذلكَ لَمَا متاعُ الحياةِ الدنيا﴾[3] خفيفة منصوبة اللام. وقال بعضهم: (لَمَّا) فثقّل ونصب اللام "[4]. وقال في قول الله تعالى ﴿لله الأمرُ من قبلُ ومِنْ بعدُ﴾[5]: " رفَع، لأن (قبل وبعد) مضمومتان ما لم تضفهما ..."[6]. فقد سمى المبني مرفوعا ومضموما، كما سماه منصوبا ومفتوحًا. فدل ذلك على ترادف المصطلحين عنده، مراعاةً لاتحاد أصل التسمية وهو الوصف الصوتي للفظ .

ومن نماذج تعبيرهم بألقاب الإعراب في المبنيات قول الفراء(٢٠٧هـ) في فتح ياء المتكلم من نحو(دعايَ وآبايَ): " بنصب الياء، لأنه يترك الهمز ويقصر الممدود فيصير بمنزلة (محيايَ) و(هُدايَ)"[7]. فقوله: بنصب الياء، يريد به فتحة بناء ياء المتكلم.

وقد تعرض للغات الواردة في كلمة (أفّ) فقال: " فالذين خفضوا ونوّنوا .أفٍّ. ذهبوا إلى أنها صوتٌ لا يُعرف معناه إلا بالنطق به فخفضوه كما تُخفض الأصوات ....قال: وبعض

---

١) انظر المقتضب ١/١٤٢، والمقتصد في شرح الإيضاح ١/١٠٠.

٢) انظر : الأشباه والنظائر للسيوطي ٢/ ٤٠، ٤١.

٣) سورة الزخرف، الآية ٣٥.

٤) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥١٤.

٥) سورة الروم، الآية ٤.

٦) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٤٧٦.

٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٦.

العرب قد رفعها فيقول: أفٌّ لك .."[1].

يريد بـ(الأصوات) أسماء الأصوات وأسماء الأفعال. وسمَّى كسرة الفاء من (أفّ) خفضا، وهو الذي يسميه البصريون الجرّ. وسمّى ضمها رفعا. فدل ذلك على أن مراده الصوت المجرد، وأن الأصل في تسمية الحركات وألقاب الإعراب غير منظور فيه إلى معاني السياق وأنواع الإعراب. وإن كانت لا تأتي إلا وفقا لما يقتضيه السياق من المعاني النحوية، ولكن هذا قد لايكون مَرْعيا في تسميتها ابتداءً بالرفع والضم .....إلخ.

ولقد صرح المبرد(ت ٢٨٥هـ) بأن (الرفع) قد لا يكون إعرابًا، فقال: " اطراد البناء في كلِّ منادى مفرد حتى يصير البناء علةً لرفعه، وإن كان ذلك الرفع غير إعراب"[2] فهذا كله دليل على أنهم كانوا ينظرون إلى هذه الحركات باعتبار الأصل الصوتي لكل حركة، وأن التفريق بين ألقاب الإعراب وحركات البناء تفريق اصطلاحي، والأصل عدمه.

الخامس: نقل الشيخ عبد الله بن أبي داود السجستاني (٣١٦هـ) عن أبي حاتم السجستاني(ت ٢٥٥هـ) رحمهما الله، أنه عمل كتابا في علم النقط، وقال فيه: " إذا كان الحرف مرفوعًا غير منون نقطته قدامه واحدة ...وإذا كان منصوبا غير منون نقطته واحدة فوقه ... وإذا كان مجرورًا غير منون نقطته واحدة تحته ..."[3].

لقد جاء تصور السجستاني هنا للحركات والترميز لها على ما تقدم عن أبي الأسود الدؤلي بالطريقة نفسها. غير أنه هنا سمى الحركات بالرفع والنصب والجر، بدلا من الفتح والضم والكسر. وهو دليل على أن المصطلحين مترادفان عندهم، لأنه لا فرق بينهما من جهة الدلالة الصوتية، وترميزه للحركات بالنقط بهذه الطريقة يدل على أنه لم يرد بالرفع والنصب والجر الإعراب، بل أراد كل كلمة متحركة بإحدى الحركات الثلاث. ولو كان يريد الإعراب لَما قال : " إذا كان الحرف" ولَمَا رمزَ لكل نوع منها في موضع واحدٍ، فالمرفوع قد يكون آخره مفتوحًا أو مكسورًا إذا كان مبنيا أو محركا بحركة عارضة.

---

١) معاني القرآن للفراء ٢ /١٢١.

٢) المقتضب ٤ /٢٠٧.

٣) كتاب المصاحف لابن أبي داود ص١٦٢.

نحو: جاء هؤلاءِ، وجاء خمسةَ عشرَ، وجاء أخِي ... فاختلفت الحركات مع أن الموضع الإعرابي واحدٌ.

وقد تكون الضمة غير دالة على الرفع، نحو: لم يذهبُوا . أنتمُ الأعلَوْن . اشتروُا الحياةَ . أنُ اشكرْ لي ....ومنه قول المبرد السابق: " ..... وإن كان ذلك الرفع غير إعراب ".

وتأتي الفتحة غير دالة على النصب، نحو: نظرتُ إلى أحمدَ، ومررت بصحراءَ، وجاءنا هدًى منَ الله ..... وتأتي الكسرة لغير الجر (الإعرابي) أيضا نحو: لم يذهبِ الرجل، رحم الله المؤمناتِ، ورَويتْ عنِ العلماء، ورحمَ الله سيبويهِ ......ومع هذا جعل لكل حركة نقطةً تدل عليها في مكانها دون تفريق بين المعرب وغيره، والعارض وغيره.

ويستفاد من هذه النصوص أن علماء هذه الطبقة ـ وهم علماء القرنين الثاني والثالث من الهجرة ـ كانوا يفسرون جريان الصوت بالحركة في آخر الحرف بالرفع والنصب والجر، وأنهم يعنون بهذه المصطلحات مجرد الحركة الصوتية، سواء أكانت إعرابية أم بنائية، لأنهم يتحدثون عن مجاري الصوت، وإنما يجري الصوت بالحركة لا بالسكون. وهذا عام في حركات الإعراب والبناء، غير أن حركات الإعراب تأتي على وَفق ما يقتضيه الموقع الإعرابي في السياق، والسياق خاضع للمعنى الوظيفي الذي هو مراد المتكلم، ولمجموعة من القرائن التي تكتنف الكلمات في التركيب، وهذا لا علاقة له بالتسمية نفسها.

ولكن هذه الملحوظات الصوتية لم تقترن بالتفسير اللغوي الذي يعلل هذه المصطلحات، ولا الوصف الصوتي الوافي لألقاب الضبط والإعراب، ويبدو كون ذلك بسبب أن اهتمام أهل هذه الطبقة كان منصبا على تعيين هذه الحركات كتابيا، وتمييز مواضعها من الكلمات، ووضع رموز تدل على أجناسها، ثم جاء مَنْ بعدهم فنظروا في أحوال تبادلها المواقع، وشُغلوا بمعرفة علل تواردها وتغايرها، وأحكام الكلمات والجمل المصحوبة بها، وكأن كونها ألقابًا صوتية مأخوذة من حركات أعضاء النطق، أمرٌ مسلَّمٌ به عندهم، ومِنْ ثَمَّ لم نجد عندهم مزيدًا من الشرح والتقنين له، واهتموا بأسبابه بدلا من ذلك، لكون غرضهم متوجها إلى محاربة اللحن وحماية اللغة من التحريف، واكتفوا في غالب ذلك بمعالجة الظواهر السطحية التي يقع فيها اللحن.

تفسيرات علماء العربية وتعليلاتهم لمصطلحات الضبط:

أمّا تَجاوُزُ هذه المرحلة إلى محاولة التفسير اللغوي والتعليل الصوتي لهذه الألقاب فنجده عند جمع من علماء القرن الرابع فما بعده. فقد ورد عنهم شيء من التفسير الصوتي لحركات الضبط في العربية، وبيان وجه مطابقة أصواتها لمعاني أسمائها، ووجه تلقيبها بالألقاب التي عُرفت بها. وفيما يلي نماذج من أقوالهم في ذلك مع تحليل معانيها، والنظر في تحقق دلالاتها. وقد اقتضت الدراسة تقسيمها إلى قسمين:

أ ـ التفسيرات اللفظية الصوتية. ب ـ التفسير المعنوية.

أ ـ التفسيرات والتعليلات اللفظية الصوتية:

١ـ فمنهم أبو القاسم الزجاجي (٣٣٧هـ) رحمه الله، من نحويي القرن الثالث وبداية القرن الرابع، إذ يقول: "نسبوا الرفع كله إلى حركة الرفع، لأن المتكلم بالكلمة المضمومة يرفع حنكه الأسفل إلى الأعلى، ويجمع بين شفتيه ....والمتكلم بالكلمة المنصوبة يفتح فاه، فيُبين حنكه الأسفل من الأعلى، فيبين للناظر إليه كأنه قد نصبه لإبانة أحدهما عن صاحبه، وأما الجر فإنما سُمي بذلك لأن معنى الجر الإضافة، وذلك أن الحروف الجارة تجر ما قبلها فتوصله إلى ما بعدها، كقولك مررت بزيدٍ، فالباء أوصلت مرورك إلى زيد، وكذلك: المال لعبدِ الله، وهذا غلامُ زيدٍ. هذا مذهب البصريين وتفسيرهم، ومن سماه منهم ومن الكوفيين خفضًا فإنهم فسروه نحو تفسير الرفع والنصب، فقالوا: لانخفاض الحنك الأسفل عند النطق به وميله إلى إحدى الجهتين، وأما الجزم فأصله القطع ...فكأن معنى الجزم قطع الحركة عن الكلمة، هذا أصله، ثم جُعل منه ما كان بحذف حرف على هذا، لأن حذف الحركة وحذف الحرف جميعا يجمعهما الحذف"[1].

أوضح الزجاجي رحمه الله هاهنا التفسير الصوتي لألقاب الضبط والإعراب في العربية بشيء من التفصيل، وعزاه إلى علماء النحو البصريين والكوفيين، فهو على هذا إجماع، وهو يدل على أنهم لم يخترعوا هذه الألقاب بعيدًا عن الواقع الصوتي عند النطق، بل من الواضح جدًا أن كلمات "مرفوع" و"منصوب" و"مجرور/مخفوض" و"مجزوم"

---

١) الإيضاح في علل النحو للزجاجي، ص٩٣-٩٤.

أوصاف صوتية. تعبر في أصلها عما تعبر عنه كلمات: "مضموم" و"مفتوح" و "مكسور" و"ساكن" وهي أحوال أعضاء النطق عند التلفظ.

لقد اعتمد هذا الوصف على أوضاع الفكين العلوي والسفلي، فنسب الرفع للفك الأسفل عند الضم. ونسب النصب له عند الفتح، ونسب الخفض له عند الكسر، على أنه هو الذي يتحرك وحده، فيعلو مرتفعا، وينخفض منكسرًا، وينتصب قائما إذا بان عن الفك العلوي وفارقه عند الفتح. وأما ما علل به الجر فلا علاقة له بالوصف الصوتي، بل هو من قبيل التعليل المعنوي لألقاب الإعراب، وهو التعليل الذي غلب على النحو العربي. بسبب ترجيح قواعد (العامل) النحوي على الوصف الصوتي إذا تعارضا. وهذا ليس مما يُعنى به هذا البحث الآن.

هكذا ذكروا حسب رؤيتهم وتفسيرهم، فماذا يقول الوصف المعملي الحديث؟ وما موقفه من هذه التعليلات من جهة الدقة وعدمها؟ وهل يصح أن هذه الحركات تتشكل عن طريق أوضاع الفكين والشفتين فقط؟ أو ثمةَ أعضاء أخرُ تشاركها في تكوينها وتمييزها؟ وهل هناك أسباب معنوية يمكن أن تفسَّر بها هذه الألفاظ؟ هذا ما سيتبين لنا إن شاء الله بعد استكمال عرض النماذج من تفسيرات علماء العربية لهذه المصطلحات والألقاب.

٢. ومن أبرز مَن عُني بشرح المباحث الصوتية في اللغة العربية من علماء النحو في القرن الرابع العلامة عثمان بن جني(٣٩٢هـ) رحمه الله. ومن كلامه الذي تعرض فيه لتأصيل الحركات العربية وألقابها صوتيا قوله " اعلم أن الصوتَ عَرَضٌ يخرج مع النفس مستطيلا متصلا حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا ...وسبيلك إذا أردت اعتبار صدى الحرف أن تأتي به ساكنا لا متحركا، لأن الحركة تقلق الحرف عن موضعه ومستقره.."[1]

وتعرض لتعليل كثير من أحكام الحركات الثلاث. فبين أنها تخرج من تجويف الفم، وأنها طوال وقصار، وأنها تتقارب وتتداخل فيما بينها، كما هو شأن الحروف

---

١) سر صناعة الإعراب لابن جني، ١/ ٦.

الصوامت[1]. وكان من تعليله لجواز إشمام الفتح كسرًا أو ضمًا، وجواز إشمام الكسر ضمًا والعكس، مع عدم جواز إشمام الكسر ولا الضمّ فتحا أنْ قال: " إن الفتحة أول الحركات وأدخلها في الحلق، والكسرة بعدها، والضمة بعد الكسرة، فإذا بدأت بالفتحة، وتصعَّدت تطلب صدر الفم والشفتين اجتازت في مرورها بمخرج الياء والواو، فجاز أن تُشمها شيئا من الكسرة أو الضمة، لتطرقها إياهما - يعني مرورها بهما - ولو تكلفتَ أن تُشِمَّ الكسرة أو الضمة رائحة من الفتحة لاحتجت إلى الرجوع إلى أول الحلق، فكان في ذلك انتقاض عادة الصوت بتراجعه إلى ورائه وتركه التقدم إلى صدر الفم، والنفوذ بين الشفتين ..."[2]

تبين لنا من كلام الشيخ ابن جني هذا أنه عزا اختلاف أصوات الحركات الثلاث إلى اختلاف أوضاع أعضاء النطق، غير أنه تميز عمن سبق إيراد كلامهم بذكره أن الحركات الثلاث يشترك فيها الحلق والشفتان وما بينهما، وهذه الحدود هي حدود التجويف الفموي، كما أنه رتب مخارج الحركات الثلاث، فذكر أن الفتحة أقصاهن وأدخلهن في الحلق - كما ذكر الخليل - ثم تليها الكسرة، ثم تليهما الضمة - وهذا الترتيب مهم جدًا عند دراسة الصرف العربي، وأنه لاحَظَ أمرًا دقيقا جدًا ولكنه في غاية الأهمية، وهو أن بعض أحكام هذه الحركات وتوزيعها على الحروف والكلمات راجع إلى طبيعة نطقها، وما ينشأ عنها من ثقل أو خفة على الناطق في أثناء التلفظ بها، إذا تلا بعضَها بعضا، فيتأثر بعضها ببعض، وهذا هو سر كثير من أحكام الإعلال والإبدال، والجوار والإتباع، وكثير من أحكام الإعراب وقوانين المباني الصرفية في اللغة العربية.

ولكننا مع هذا كله لا نزال نحتاج إلى معرفة وجه تخصيص كل حركة باللقب الذي خُصّتْ به، على نحو أدق وأكثر تفصيلا مما ذكره الزجاجي وابن جني رحمهما الله، لأن ذلك يعيننا على التحليل والتعليل للقضايا الصوتية التي تبنى عليها دراسة اللغة، ولا سيما الإعراب الذي يُدَلُّ عليه بالتغييرات الصوتية في أواخر الكلمات.

---

1) انظر سر صناعة الإعراب ١/٦-٣د.

2) السابق ١/ ٣د-٤د.

٣ـ وفي النصف الأول من القرن الخامس نجد من علماء اللغة المعنيين بالقضايا الصوتية عناية خاصة، لصلتها الوثيقة بعلم التجويد والقراءات، الشيخ أبا عمرو الداني (٤٤٤هـ) حين يقول: " اعلم أن الحركات ثلاث، فتحة وكسرة وضمة، فموضع الفتحة من الحرف أعلاه، لأن الفتح مستعلٍ، وموضع الكسرة منه أسفله، لأن الكسر مستفلٌ، وموضع الضمة منه وسطه أو أمامه، لأن الفتحة لما حصلت في أعلاه والكسرة في أسفله؛ لأجل استعلاء الفتح وتسفُّل الكسر، بقي وسطه فصار موضعا للضمة"[1]

لقد علل أبو عمرو هنا لوضع الفتح فوق الحرف بأن صوت الفتح فيه استعلاء، ولذلك جُعِلتْ علامته من أعلى الحرف، وهذه مناسبة واضحة، وهي مناسبة الفوقية للعلوّ، ولوضع الكسر أسفله بأن صوت الكسر فيه تسفُّل، يعني انخفاضا، وهو ضد الاستعلاء الكائن في الفتح، وعلل لوضع الضم بجانب الحرف على السطر بأنه الموضع الذي بقي غير مشغول بالحركة من جوانب الحرف، فجعلت فيه الضمة ليعلم أنها الحركة الثالثة غير الفتح والكسر، وهذه علة منطقية غير صوتية، أما تعليله لموضعي الفتح والكسر فهو تعليلي صوتي، ولكنه لا يزال يحتاج إلى تفسير وبيان، لأن الدارس يحتاج إلى معرفة المراد من تسفل الصوت واستعلائه، وكيفية كونه كذلك، وهل هو شيء يقاس بمجرد السماع؟ أو يقاس بملاحظة حركة أعضاء النطق في أثناء التلفظ بالحركات؟ على نحو مما فسره به الزجاجي سابقا، وهو المفهوم من كلمة أبي الأسود الدؤلي.

ومما يشكل من كلام الشيخ أبي عمرو الداني رحمه الله وصفه الفتح بالاستعلاء! مع أن الضمة هي الرِّفعة[2]، والمضموم هو المرفوع، والرفع لغة هو العلوّ والاستعلاء، فكيف يتفق هذا مع نسبة النصب إلى الاستعلاء، ووضع علامته أعلى الحرف دون علامة الضم؟ مع أن الموضع هنا مراد به مناسبة الصوت لإشارة حركة عضو النطق.

ولكن قد يُزال هذا الإشكال بالنظر إلى الفن الذي غلب على الشيخ أبي عمرو، فهو إمام في فنِّ التجويد والقراءة، ومؤلفاته فيه متعددة، وفي غاية الجودة، وقد تقرر في هذا الفنِّ أن التفخيم يكون لحروف الاستعلاء، وللراء واللام في بعض الحالات، وأن أعلى

---

١) المحكم في نقط المصاحف لأبي عمرو الداني، ص٤٢.

٢) انظر كتاب سيبويه ٤/ ٢٠٣.

مراتبه مرتبة المفتوح، الذي بعده ألف، ثم المفتوح فقط[1]. فكأن الشيخ ربط بين الفتح والاستعلاء من هذه الناحية. وهو قد فسَّر الاستعلاء في مكان آخر بأنه رفْع اللسان إلى الحنك الأعلى[2]. ولكن هذا ينطبق على حروف الاستعلاء (خص ضغط قظ) لا على الفتح، فإن اللسان في الفتح يظل قارًّا مستويا في وسط الفم.

٤. ومن علماء هذه الطبقة الشيخ عبد الوهاب القرطبي (٤٦١هـ) وكان أراد الاستدلال على أن الحركة تحدث مع الحرف لا قبله ولا بعده، فكان من ضمن بيانه للحركات وإنتاجها قوله : "إن الحركات الثلاث إنما عملهن بالفم. فإذا ضممته حدَثَ الضم. وإذا كسَرْتَه حدث الكسر، ومتى فتحته حدث الفتح، وفي حال تحريك الحرف بالضم يكون اللافظ به قاطعا للصوت على مخرج الحرف. وضامًّا شفتيه معًا في حالة واحدة، من غير أن يتخلل بينهما زمان محسوس، وكذلك في حال الكسر يكون كاسرًا بفمه مع قطع الصوت على مخرج الحرف المكسور، وكذلك في حال الفتح يكون قاطعًا للصوت على مخرج الحرف مع فتح فمه، من غير فصل بينهما"[3].

وهذا تعليل صوتي صِرْف. فقد نسب الحركات الثلاث إلى أوضاع الفم عند النطق، فمعنى الضم ضم الشفتين، والكسر كسر الفم، والفتح فتح الفم. وبيَّن أن كل حركة تأتي مع الحرف الذي تصحبه من غير أن يكون بينهما مدة زمنية محسوسة، وعدم وجود مدة زمنية محسوسة بين النطق بالحرف وإتباعه الحركة هو الذي دعا طوائف من النحويين إلى القول بأن الحركة تحدث مع الحرف لا قبله ولا بعده[4]، وهو الرأي الذي أيده الشيخ أبو حيان الأندلسي (٧٤٥هـ)[5] وساعدهم على ذلك ما يجدونه من ملازمتها للحروف وعدم استقلالها نطقا، ولكن تبين في العصور المتأخرة أن الصواب قول من ذهب إلى أن

---

١) انظر : الرعاية ١٢٩، ١٦٨-١٧١، ١٩٨. وجهد المقل للمرعشي ١٥٤-١٥٥.

٢) انظر : التحديد للداني ص١٠٦-١٠٧.

٣) الموضح في التجويد، لعبد الوهاب بن محمد القرطبي، ص٧٥.

٤) انظر : الخصائص ٣٢١/٢ وسر الصناعة ٢٨/١ والهمع ٦٢/١.

٥) انظر : ارتشاف الضرب ٤١٣/١.

هذه الحركة تحدث بعد الحرف وتتلوه نطقا[1] بعد ملاحظة حركات أعضاء النطق عن طريق الأجهزة الآلية الحديثة[2]، وقد سبقت الإشارة إلى هذه المسألة في أول هذا البحث.

فقد أفاد القرطبي إذَنْ أن هذه الألقاب أوصاف لحركات محسوسة، صادرة من فم الإنسان في أوضاع معينة، فدل ذلك على أن الحرف الذي تتبعه حركة من هذه الحركات لا يصح الحكم عليه بغيرها، لأنها في الحقيقة جزء منه لشدة الاتصال بينهما، وبناءً على هذا ينبغي من الجهة المنطقية ألا يقال في نحو: جاء أخِي، إنه مرفوع، إذْ لا رفع هنا، وإنما هو في موضع رفع، وأما الرفع من الجهة اللغوية فهو وصف صوتي منتفٍ هنا، كما لا يقال في نحو: جاء سيبويهِ، إنه مرفوع، بل يقال : مبني في محل رفع.

وكذا ينبغي على هذا الوصف في نحو: مررتُ بصحراءَ وما شابهه من الممنوع صرفه إذا كان في محل تُجَر فيه الأسماء أن يقال: مفتوح في محل جر، لأَجل مطابقة الوصف للموصوف،لأن الموجود لفظا هو الفتح لا الجر، ولكنَّ النحويين آثروا على هذه المطابقة مراعاة مقتضى العامل النحوي، في التوصيف التطبيقي، فإذا اقتضى رفعا، قالوا: مرفوع، وإن كانت الكلمة مكسورة أو مفتوحة أو ساكنة، خالية من اللفظ الموصوف بالرفع وهو الضم، فنظروا إلى مقتضى العامل ولم يلتفتوا إلى ذوات الكلمات وألفاظها فيما يعارضه، غير أن عملهم هذا له علة دلالية مقبولة منطقيا، وأخرى يقتضيها الجانب التعليمي للغة، سيأتي بيانهما إن شاء الله.

د. ومن علماء النحو في القرن الخامس أيضا الشيخ عبد القاهر الجرجاني (٤٧٤هـ) وقد تحدث عن ألقاب الإعراب: الرفع والنصب والجر، و بيَّنَ أن النحويين اصطلحوا على تسميتها كذلك، وذكر الأصل في تسمية الحركات المبنية: ضمة وفتحة وكسرة، وأبان الحقيقة الصوتية لهذه الحركات وفصل بينها وبين ما تنبئ عنه هذه الحركات من وظائف نحوية في التركيب، فقال: " إن الأصل في تسمية الحركات الضمة والفتحة والكسرة، والمراد بهذه التسمية إفادة نفوسها فقط، فإذا قلتَ: ضَمٌّ الكلمة، فالمعنى:

---

١) انظر : التواصل اللساني ٦ /٤٤ (نقلا عن "دي سوسير")، و المنهج الصوتي للبنية العربية ٣٥-٣٦ .

٢) انظر : التشكيل الصوتي للعاني ١١٥،١١٦، ١٣١، و Mansour Alghamdi :Analysis, Synthesis and Perception of Voicing in Arabic. P:١٤٤-١٤٥. Al-toubah bookshop. jareer St.-Riyadh .

أظهر لفظ الحركة المخصوصة فيها، كما أنك إذا قلت: حرِّكْ، فالمعنى: الفظ بواحدة من هذه الحركات، فلا فصل بين هذه الأسماء وبين الحركة في أنها تفيد اللفظ فقط ..." ثم ذكر أنهم لما وجدوها تأتي مبينة عن معانٍ مختلفة في الكلمات المعربة، غيروا أسماءها للدلالة على تغير معانيها[1].

يستفاد من كلام الشيخ عبد القاهر هنا أنه صرَّح بأن أصل التسمية "الضمة والفتحة والكسرة" وأما ألفاظ: الرفع والنصب والجر، فهي ألقاب طارئة، جيء بها بعد أن لاحظ العلماء أن بعض هذه الحركات يأتي تابعًا للمعنى التركيبي كالفاعلية والمفعولية والإضافة، فعبروا عن الحركات حيث تفيد تلك المعاني بألقاب أخرى للتفريق، ولكنه لم يصرح بذكر الأصل الذي اعتْمد عليه في تخصيص ألقاب الإعراب بهذه الأسماء خاصة، فإذا كانت الحركات دالة بلفظها على معانيها اللفظية، فما دلالة ألقاب الإعراب من الجهة اللفظية؟

فقد بيَّن أن الأصل في كل حركة دلالتها على لفظها فقط، يعني صوتَها، وهو بهذا موافق لمن قبله في أن ألقاب الإعراب هي نفسها ألقاب الحركات، أعني أنها مرادفة لها من جهة المعنى اللغوي لألفاظها، وهذا يفهم من فحوى عبارته، وقد علل للحاجة لهذا التنويع في التسمية بأنه لأجل الدلالة على المعاني المختلفة، فالاختلاف لفظي فحسب، أما الحقيقة فواحدة.

وهنا نجد ـ ضِمنًا ـ الإفصاح عن السر الذي جعل النحويين يصرفون هذه الألقاب عن حقيقتها اللفظية الصوتية أحيانًا، فيجعلونها للحكم الإعرابي عندما لا تطابقه، فيقولون في نحو: هذا كتابِي، إن كلمة (كتابِي) مرفوعة؛ لأن حكمها الإعرابي الرفع، مع أنها من جهة الحقيقة الصوتية مجرورة، لأن حرف الإعراب وهو الباء مكسور، والكسر هو الجر صوتيا،كما تقدم، وحملهم على ذلك طردُ القاعدة في حكم الفاعل.

٦ـ وممن حاول إيضاح هذه المصطلحات وبيان أصل تلقيبها بشيء من التفصيل والتعليل، جامعا بين الملاحظة الصوتية وما تفيده الإشارة العضوية في أثناء النطق: الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي المتوفى(٥٨١هـ) رحمه الله، فقال:

---

١) المقتصد في شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجاني، ١/ ١٠٠، ١٠١.

"الحركة عبارة عن تحريك العضو الذي هو الشفتان عند النطق بالصوت الذي هو الحرف، والحرف عبارة عن جزء من الصوت .....فالضمة عبارة عن تحريك الشفتين بالضم عند النطق بالحرف، فيحدث عن ذلك صوت خفي مقارن للحرف، وإن امتد كان واوًا، وإن قَصُر كان ضمة. وصورتها عند حُذَّاق الكُتّاب صورة واوٍ صغيرة؛ لأنها بعض واوٍ.

والفتحة عبارة عن فتح الشفتين عند النطق بالحرف وحدوث الصوت الخفي الذي يسمى فتحة أو نَصْبَةً. وإن امتدت كانت ألفًا، وإن قصُرت فهي بعض ألف. وصورتها كصورة ألف صغيرة. وكذلك القول في الكسرة والياء. أن إحداهما بعض الأخرى، وحدوثهما عند تحريك العضو بالكسر مع مقارنة الحرف.

والسكون عبارة عن خلو العضو من الحركات عند النطق بالحرف. فلا يحدث بعد الحرف صوت، فينجزمُ عند ذلك، أي: ينقطع، فتسميه جزمًا، اعتبارًا بالصوت وانجزامه. وتسميه سكونًا، اعتبارًا بالعضو الساكن.

فقولنا إذَنْ: فتح، وضم، وكسر، وسكون، هو من صفة العضو. وإذا سميناها رفعًا ونصبًا وخفضًا وجزما، فهي من صفة الصوت، لأنه يرتفع عند ضم الشفتين، وينتصب عند فتحهما، وينخفض عند كسرهما، وينجزم عند سكونهما، ولهذه الحكمة عبّر أرباب الصنعة بالرفع والنصب والجزم والخفض عن حركات الإعراب..."[1]

لقد ذكر السهيلي رحمه الله في هذا النص ملحوظات جديرة بالتأمل، لما تتميز به من الوصف الصوتي الدقيق، الربط بين حركة عضو النطق والصوت المسموع، والنظرة الفاحصة لألقاب الحركات والإعراب. وذكر في تفسيرها وتعليلها أمورًا مهمةً جديرة بالبحث، وينبغي أن نخضعها للفحص الدقيق للتحقق من مدى موافقتها لنتائج النظريات الصوتية الحديثة، وفيما يلي بيان ملخّص لما أورده مع تحليله:

أولا: ذكر أن الحركة سميت حركة نسبة إلى حركة عضو النطق، وذكر أن عضو النطق المقصود هنا هو الشفتان.

وهذا الحكم لا يخلو من الصحة، ولكنه ناقص؛ لأن الحركة لم تحصل من مجرد تحرك عضو النطق، ولكنها نتجت من انبعاث الصوت المسموع المصاحب لحركة عضو

---

١) نتائج الفكر في النحو للعلامة السهيلي، ص٦٧-٦٨.

النطق. فإننا نجد أن الأخرس ـ مثلا ـ يستطيع أن يحرك شفتيه ولسانه وهو مع ذلك عاجز عن إصدار صوت. قال سيبويه: "والإنسان يستطيع أن يضع لسانه موضع الحرف قبل تزجية الصوت"[1] ومراده بتزجية الصوت دفعه وإظهاره بحركة من الحركات، وهو أمر تنبه له علماء اللغة منذ قديم. فرأوا أن الحرف الساكن لا يجري فيه الصوت إلا إذا صاحبته حركة. وأن جريان الصوت بالحرف هو الحركة، ومن ثَمَّ سَمَّوا الحركات بالمجاري، أي أماكن جريان الصوت. وقد تقدم إيراد كلام سيبويه والأخفش والكسائي وابن جني في ذلك.

وإن جمعا من علماء العربية القدامى عبروا عن هذه الحركات بما يفيد مساواتها للحروف الصوامت من الجهة الحرفية[2]. وهو أحد الأوجه التي فُسِّر بها قول سيبويه: "وإنما ذكرت لك ثمانية مجارٍ؛ لأفرّق بين ما يدخله ضرْب من هذه الأربعة لما يحدث فيه العامل. وليس شيء منها إلا وهو يزول عنه، وبين ما بني عليه الحرف. بناءً لا يزول.."[3]، قال أبو نصر القرطبي (٤٠١هـ) في أثناء شرحه له: "وقد يحتمل أن يكون الحرف في هذا الوجه الثاني كناية عن علامة الإعراب والبناء. فيسمى المجاري حروفًا. كما قال الكسائي: العربية على ثلاثة أحرف: على الرفع والنصب ولخفض. فسمى الرفع والنصب والخفض حروفًا"[4].

وهذه مسألة تقدمت. وبُيِّن ثمةَ أنها مما تؤكده الدراسات الحديثة. لأن الكلام كله أصوات، وهذه الأصوات إما صوامت. وهي الحروف السواكن. وإما صوائت أو(مُصَوّتات) وهي الحركات. والصوامت لا تجري إلا بالصوائت. ومن ثَمَّ قيل للجميع "حروف". لأن الكلام يتكون منها جميعا على حدٍّ سواء.

---

١) سيبويه ٤/١٧١.

٢) مثل أبي علي الفارسي (٣٧٧هـ) في كتابه البغداديات ص ٤٨٧ـ ٤٨٨. وابن يعيش (٦٤٣هـ) في شرح المفصل ٤/١٨٣. وأبو حيان(٧٥٤هـ) في التذييل والتكميل ١/ ١٤٤.

٣) سيبويه ١/١٣.

٤) شرح عيون كتاب سيبويه لأبي نصر القرطبي ١/١٨. وانظر: شرح كتاب سيبويه للإمام أبي الفضل الصفار(٦٣٠هـ) ١/٢٥١.

وأما ذِكْرُه أن المراد بعضو الحركة الذي تُنسب إليه الحركات الشفتان، ففيه نوع تطابق مع كلام أبي الأسود الدؤلي الذي تقدم إيراده، لأنه نسب الحركات الثلاث كلها إلى حركة الشفتين، ولكن هذا غير دقيق، لأن الفتح والكسر لا يبدو للشفتين عمَلٌ فيهما، وتحقيق ذلك ندعه لنتائج الوصف المعملي الآتي بعدُ إن شاء الله.

ثانيا: علَّل السهيلي نسبتَه الحركة الصوتية إلى حركة العضو بأن الضمة عبارة عن تحريك الشفتين بالضم، والفتحة عبارة عن فتح الشفتين، والكسرة عبارة عن تحريك العضو بالكسر، فهذه حركات عضو النطق، والسكون عبارة عن خُلُوّ العضو من الحركة. فهذه إذَنْ صفات أعضاء النطق، والصوت الذي يحدث معها هو المسمى رفعا ونصبا وخفضا وجزما، لأن الصوت يكتسب هذه الأوصاف بتلك الأوضاع عند النطق، هذا ملخص كلامه، وهو مطابق لما ذكره الشيخ عبد القاهر الجرجاني قبله، ولكن تؤخذ عليه أمور، أهمها ما يلي :

- أنه نسب الفتحة إلى فتح الشفتين، والملاحظ أن الفتحة تحدث بانفتاح التجويف الفموي كله ولا علاقة لها بالشفتين، ويظهر ذلك بوضوح عند النطق بحروف الحلق ووسط اللسان مفتوحة، فإن الناطق يلفظ بها من غير أن يحرك شفتيه، ولكنه يحرك الفكين جميعا، كما ذكر الزجاجي فيما سبق.
- أنه لم ينسب الكسرة إلى عضو معين، مع أنه ذكر أنها صفة عضو النطق، فلا بد من تعيين العضو أو الأعضاء الموصوفة بالكسر.
- أنه فرَّق بين ألقاب الحركات، وألقاب الإعراب، بأنْ جعل ألقاب الحركات من صفات أعضاء النطق، وجعل ألقاب الإعراب من صفات الصوت، وحمله على هذا التفريق ما ذكره من أن الحرف عَرَضٌ[1]، لأنه جزء من الصوت، والصوت عَرَض، والحركة عَرَض آخر، وهذه الأعراض لا يمكن أن يتصف بها إلا أجسام، فإن

---

1) العَرَضْ : هو ما يأتي طارئا على جسم من الأجسام ثم يزول، أو هو: "ما يعرض في الجواهر، ولا يصح بقاؤه" انظر: الحدود في الأصول لابن فورك ص٨٨.

الجسم هو الذي يقبل أن يتحرك ويسكن، لأن الحركة انتقال الجسم من حيز إلى حيز[1].

وقد سبقه ابن جني إلى ذكر هذه العلة[2]، وهي علة منطقية لا يمكن الجزم باتفاقها مع الأنظمة الطبيعية للغة، ولا إخضاعها لها، وقد رد عليها ابن القيم رحمه الله فقال: "وعندي أن هذا ليس باستدراك على النحاة، فإن الحرف وإن كانَ عَرَضا فقد يوصف بالحركة تبعا لحركة محله، فإن الأعراض وإن لم تتحرك بأنفسها فهي تتحرك بحركة محالِّها، فاندفع الإشكال جملة"[3].

وهذا الذي ذكره ابن القيم رحمه الله مستقيم؛ وقد أطال ابن سينا (٤٢٨هـ) ـ وهو من كبار الفلاسفة الصوتيين ـ في الاستدلال لهذه المسألة، وبيّن أن الحركة تختلف باختلاف مصدرها، كما أنها تتنوع تبعا لمحالّها، وليست ناشئة دائما عن انتقال الجسم من حيز إلى حيز، بل هذا نوع من أنواعها فقط[4]، ومن كلامه في ذلك قوله: "وأما ما قيل في حد الحركة من أنها زوال من حال إلى حال، أو سلوك من قوة إلى فعل، فذلك غلَط؛ لأن نسبة الزوال والسلوك إلى الحركة ليس كنسبة الجنس أو ما يشبه الجنس، بل كنسبة الألفاظ المرادفة إياها، إذ هاتان اللفظتان ولفظة الحركة وضعت أوّلا لاستبدال المكان ثم نقلت إلى الأحوال"[5].

وبيّن أيضا أن المتحرك بالعَرَض من أحواله أن تكون له حركة بالذات، وأن العَرَض نفسه قد تكون مقارنته للجسم مقارنة لشيء موجود في الجسم[6]، وهذا هو ما ينطبق بعينه على مقارنة الحركة للحرف الملازم لمقطعه من أعضاء النطق.

وسبب هذا أن الأعراض ليست سواءً، فمنها ما يقبل صفات الجواهر، كما أن الجوهر نفسه يختلف، فمنه ماله صفة العَرض الذي يزول، ومن هذا النوع الحركة، فهي

---

١) انظر نتائج الفكر ص٦٧، والأشباه والنظائر للسيوطي، ٢/٧٣–٧٤.

٢) انظر سر صناعة الإعراب ١/٣٢.

٣) انظر الأشباه والنظائر، في الموضع السابق، فقد أورد كلمة السهيلي ورد ابن القيم عليها.

٤) انظر: السماع الطبيعي لابن سينا ص١٣١–١٥٠، و: ٢٤٥– ٢٧٨.

٥) السماع الطبيعي ص ١٣٢.

٦) انظر السابق ص ٢٧٨.

عَرض، ولكنها بمثابة الجوهر من جهة ذاتها وصفاتها التي منها الصوت، وليست عَرَضا من جميع الجهات[١]، كما أن الصوت أيضا ليس عَرَضا من جميع الجهات، والصوت نفسه حركة عما يمكن أن يتحرك[٢]. وهذه الحركات التي نتحدث عنها جزء من الصوتِ، وليست من قبيل الصفات المغايرة لأصل الموصوف، لأنها صادرة عن حركة الأعضاء المحدثة للصوت، كما أن الصوت نفسه صادر من تلك الأعضاء مع قرع الهواء، أما الهواء في ذاته فلا صوت له؛ لأنه ينتشر بسهولة، وإنما ينشأ الصوت من حركة انحباسه بين جسمين[٣].

والواقع أن الإنسان لا يمكن أن يربط بين كلمة "الضم" وكلمة "الرفع" إلا إذا كان عنده علم بما اصطُلِح عليه، أما المعنى اللغوي لكلمة "الرفع" فغير متبادر إلى الذهن من سماع كلمة "الضم" إذ لا دلالة طبيعية لإحداهما على الأخرى، فقول السهيلي رحمه الله إن "الصوت يرتفع عند ضم الشفتين" حكم غير واضح، لأن ارتفاع الصوت معناه زيادة حدته وقوته حتى يسمع من بُعْد، وهذا حتمًا غير مقصود للنحويين، وكذا يقال في قوله : " وينتصب عند فتحهما، وينخفض عند كسرهما" فانتصاب الصوت وانخفاضه من الجهة اللغوية لا تبدو علاقتهما واضحة بالفتح والكسر، وهما مع ذلك غير منقاسين في الواقع النطقي، ومن ثَمَّ كانت نسبة هذه الألقاب إلى أوضاع الفم أظهرَ وأسهلَ إدراكا، ولذلك عَلل بها أكثر الذين تقدم ذكرهم، وهي الموافقة لأثر أبي الأسود الدؤلي رحمه الله، وسيأتي بيان وجه تحققه عمليا إن شاء الله.

أما الجزم فمطابقته لمعنى السكون واضحة، غير أن كلامه فيه لا يخلو من بعض التناقض، لأنه ذكر أن الصوت ينقطع، والانقطاع هو الانجزام، وهو السكون، فتسميته سكونًا اعتبارًا بالعضو الذي انقطعت حركته، ثم تسميته جزما اعتبارًا بالصوت، لا معنى لها، لأن الصوت هو الذي سكن وانقطع وانجزم، وهي ألفاظ مترادفة، وإنْ قلنا إن العضو سكن عن الحركة، وقلنا هذا سكون، فإن هذا لا يمنع أن يقال: إن العضو انقطع عن

---

١) انظر: معيار العلم للغزالي ص١٩١-١٩٢.

٢) كتاب النفس لأرسطوطاليس ص٧٢.

٣) انظر: كتاب النفس ص٧١.

الحركة، فانقطاعه جزم للحركة، أي قطع لها، وهذا الانقطاع هو سبب السكون؛ لأن السكون سلب الحركة، من جهة أن ما يقبل الحركة من الأجسام إذا لم يكن متحركا فهو ساكن، أو يقال: إذا عُدِم الحركةَ خلَفَها السكون[١].

فلم يبق إلا أن نسلِّم بأن هذه الألقاب ألقاب صوتية، موصوف بها الصوت الناشئ عن حركات أوضاع أعضاء النطق، وهي نوع منه لأنها ناشئة عن التصويت الذي نشأ منه الصوت، وتُكسِبُ الصوت أحكامًا لا تكون له ما لم يتصف بها، كما هو شأن الصفة للموصوف[٢]. وأنه لا فرق بين أسماء الحركات وألقاب الإعراب من الجهة اللفظية الصوتية والتأصيلية[٣]. ولذلك لم يفرق بينها قدماء النحويين، بل كثيرًا ما يعبرون ببعضها عن بعض، كما تقدم من كلماتهم في ذلك[٤]، ومنها قول سيبويه: "الرفعة بمنزلة الضم، والنصبَة بمنزلة الفتح، والجرّة بمنزلة الكسرة"[٥]. وقال أيضا: " الرفعة ضمة، والجرّة كسرة"[٦].

والدليل على هذا أنهم سموا الكلمة المضمومة مرفوعة، والمفتوحة منصوبة، والمكسورة مجرورة ومخفوضة، والمقطوعة الآخر مجزومة. هكذا أصَّلوها، ثم حملوا على هذا الأصل ما لا تظهر عليه الحركات بسبب من الأسباب، وأما تفريقهم بين المبني والمعرب بإطلاق أسماء الحركات على المبني وإطلاق ألقاب الإعراب على المعرب، فقد تقدم من كلام بعض علماء النحو ما يوحي بمناسبتها لمعانيها، وسيأتي من كلام بعضهم ما يؤكد ارتباط ذلك التقسيم بالطبيعة الصوتية لهذه الحركات، ولكن قد يبدو أن هذا التفريق مسألة اصطلاحية، لا علاقة لها بالحقيقة الصوتية واللغوية لهذه الحركات الصوتية، وأصل تسميتها بهذه الأسماء[٧].

---

١) انظر: السماع الطبيعي لابن سينا ص١٤٧.

٢) انظر : الحدود لابن فورَك ص ٩٤.

٣) انظر: توجيه اللمع لابن الخباز ص٦٧.

٤) وانظر الاستدلال لهذه المسألة بنقول عن مصادر قدامى النحويين في "مصطلحات النحو الكوفي" للدكتور عبد الله بن حمد الخثران، ص٨٩-٩١.

٥) كتاب سيبويه ٢/ ٢٠٣، ٢٠٤.

٦) السابق ٤/ ٢٠٣.

٧) انظر لهذه المسألة: كتاب سيبويه ١/١٣، والأصول في النحو لابن السراج ١/ ٤٥، والمقتضب للمبرد ١/١٤٢، والمقتصد في شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجاني ١/ ١٠٠

٧ ـ وتعرض الشيخ جمال الدين ابن إياز(٦٨١هـ) رحمه الله. للأصل اللغوي في تسمية الحركات والسكون، محاولا التعليل للتفريق بينها وبين ألقاب الإعراب في التسمية. اعتمادًا على المعاني اللغوية لهذه الألفاظ، والاشتقاق الصوتي لأصولها. فكان مما ذكره في ذلك قوله:" ولما كانت الحركات والسكون تنقسم إلى قسمين: إعرابٍ وبناءٍ. فرّقوا بين أسمائها إذا كانت إعرابا. وبينها إذا كانت بناءً....فقالوا: ضمٌّ وفتحٌ وكسرٌ ووقفٌ، أي سكون. لأن الضم حركة يُضم بها الشفتان. والفتح حركة ينفتح بها الفم، والكسر ينكسر بها المخرَج ويَهْوي إلى أسفل. والسكون عدم الحركة. فهذه مصادر نُقلت فجُعلتْ أعلاما على حركة البناء. ثم جاؤوا بمصادر أُخرى دالة على حقائق قريبة من تلك الحقائق؛ لأنها هي بأعيانها. وإن افترقا في اللزوم والانتقال، فقالوا: رفعٌ بإزاء الضم، ونصبٌ بإزاء الفتح. وجرٌّ بإزاء الكسر. وجزمٌ بإزاء الوقف، إذ الرفع مصدرُ (رَفَعَ). والضم من الواو. والواو إذا رُمتَ النطق بها ارتفعت الشفتان. والنصب مصدرُ (نَصَبَ الشيءَ): أقامه، وحركة النصْب من الألف. والألف تفتح الفمَ وتكسوه هيئةَ النصْب، والجرُّ مصدَرُ (جَرَرْت الشيءَ) إذا سحبته على الأرض، ومنه جرُّ الحبْل. وهو أصله لدُنوّه من الأرض؛ لأن الكسر من الياء. وفي الياء انسحابٌ على المَخْرَج ودُنُوٌّ إلى التسفُّل، والجزْم مصدر (جزَمْت بكذا) إذا قطَعْت بصحته؛ لأنه قَطْعٌ للحركة. أو الحرف"[1].

هاهنا أمور مهمة في تأصيل تسمية هذه الحركات. قد ذكرها ابن إياز في كلمته السابقة. وهي تدل على النظرة الثاقبة في حقائق هذه الحركات، والربط بين أصولها وفروعها اعتمادًا على التسلسل الاشتقاقي، وقد وُفق في ذلك أيما توفيق. بسبب بنائه على ما تقرره الحقائق الصوتية لهذه الحركات. والنتائج المستنبطة من كلامه تتلخص فيما يلي:

أولا: أن الأصل في تسمية الحركات في اللغة العربية الاعتماد على هيئات أعضاء النطق، فهذه الحركات هي في الحقيقة تعبير عن أوضاع حركات أعضاء النطق عند التلفظ بها. وهذا هو التأصيل الصوتي الدقيق؛ لأن الصوت تابع لمصدره. وتسميته بالوصف المأخوذ من هيئة مصدره عند إنتاجه عين الصواب. وهذا مفهوم من قوله: " لأن الضم

---

١) المحصول في شرح الفصول، لابن إياز البغدادي. ص٦٧-٦٨.

حركةٌ يُضم بها الشفتان، والفتح حركة ينفتح بها الفم، والكسر ينكسر بها المخرَج ويَهوي إلى أسفل، والسكون عدم الحركة" فنسب كل حركة لغوية إلى أصل حركة عضو النطق المنتج لها.

ثانيا: أن هذه الألفاظ التي سَميت بها الحركات تُعدُّ من قبيل الأعلام المنقولة، لأنها في الأصل مصادر الأفعال: ضمَّ وفَتَح وكَسَر. فتأمَّل المتأمل هيئة كل فعل عند حدوثه فاشتق منها المصدر الدال عليها فجعله علَمًا على تلك الحركة، فحركة الضامّ تسمى ضَمًّا، وحركة الفاتح تسمى فتْحًا، وحركة الكاسر تسمى كسْرًا، وبناءً على هذه الحركات العضوية الحسية سميت الأصوات المسموعة الناتجة عنها: ضمًّا وفتحا وكسرًا، وهذا نفسه حال الوقف أو السكون.

ثالثا: أن علماء العربية أخذوا ألقاب الإعراب من الأصول التي اشتُقت منها الحركات أنفسها، فإن عضو النطق الذي ضُمّ نتج من ضمه ارتفاعٌ، فسمي الضم رَفعًا لذلك، والعضو الذي فتِح أدّى فتْحه إلى انتصابه قائمًا، أي انبساطه وامتداده، فسمي الفتح نَصْبًا لأجل ذلك، والعضو الذي كُسِر لُحِظَ فيه أنه ينجرُّ هاويا إلى جهة السُّفْل في أثناء كسره فسمِّي الكسر جَرًّا وخَفْضا للعلة التي بها سُمِّيَ كَسْرًا نفسها، وتضمن كلامه أن أوضح ما يكون ذلك في الحركات الطوال، وهي المدات، لأن أعضاء النطق تكون معها في غاية التمكن من إصدار الصوت وإظهار هيئات إخراجه.

رابعًا: يَضِح من حديثه أن هذا الإجراء إجراء اصطلاحي غرضه التفريق بين الكلمات المبنية والمعربة؛ لأن الحركات البنائية هي أنفسَها حركات الإعراب من جهة اللفظ، وكذلك الصورة الكتابية، والتفريق بينها منظور فيه إلى ما تصحبه من الكلمات لا إلى الحركة نفسها، كما أن التسمية جاءت تفريعا بناء على الحاجة إلى ذلك، وهذا مفهوم من قوله: ".. ثم جاؤوا بمصادر أُخرى دالة على حقائق قريبة من تلك الحقائق؛ لأنها هي بأعيانها، وإن افترقا في اللزوم والانتقال، فقالوا: رفعٌ بإزاء الضم، ونصبٌ بإزاء الفتح، وجرٌّ بإزاء الكسر، وجزمٌ بإزاء الوقف".

والفائدة المهمة التي يجب أن تؤخذ من كلام ابن إياز في تأصيله لهذه الألقاب، هي أن الدراسة اللغوية ينبغي أن تستند على الحقائق الصوتية، فإن ذلك طريق نجاحها وسدادها، لأن اللغة أصوات، والدرس اللغوي مبني في أساسه على ما ترشحه النتائج

الصوتية من أصول النطق، وسبب هذا أن الصوت هو المجعول دليلا على المعنى، فتعيين الأصل الصوتي يقود إلى تعيين المعنى اللغوي المراد.

٨- ومن نماذج التفسير والتعليل لألفاظ الحركات، وألقاب الإعراب المتفقة مع طبيعة وضعها الصوتي، والمتفقة إلى حد كبير مع ما تقدم عند ابن إياز: تفسير الرّضِيّ الاستراباذي (٦٨٦هـ) إذ يقول: "وإنما قيل لعَلَم الفاعل رفع لأنك إذا ضممتَ الشفتين لإخراج هذه الحركة ارتفعتا عن مكانهما، فالرفع من لوازم مثل هذا الضم وتوابعه، فسُمِّي حركة البناء ضما وحركة الإعراب رفعا؛ لأن دلالة الحركة على المعنى تابعة لثبوت نفس الحركة أولاً، وكذلك نصب الفم تابع لفتحه، كأن الفم كان شيئًا ساقطًا فنصبته، أي أقمته بفتحك إياه، فسُمِّيَ حركةُ البناء فتحًا، وحركة الإعراب نصبا، وأما جرّ الفكّ الأسفل إلى أسفل وخفضه فهو ككسر الشيء، إذ المكسور يسقط ويهوي إلى أسفل، فسُميَ حركة الإعراب جرًا وخفضًا، وحركة البناء كسرًا، لأن الأولَيْنِ أوضح وأظهر في المعنى المقصود من صورة الفم من الثالث، ثم الجزم بمعنى القطع والوقف والسكون بمعنى واحد، فسمي الإعرابيّ جزما، والبنائيّ وقفًا وسكونًا"[1].

لقد أوضح الرضيّ بجلاء ترادف معاني ألقاب الحركات وألقاب الإعراب، مع توضيح نوع الفرق الذي جعل النحويين يعبرون ببعضها عن بعض، طَاردين مسألة الأصل والفرع، والسبب والمسبَّب، وبيّن أنها كلها أصوات مأخوذة من أوضاع جهاز النطق، والتفريق بينها في التلقيب مسألة اصطلاحية وإن كان قد التمس لها نوع مناسبة، كما أوضح أن المعاني المعجمية لهذه الألفاظ جاءت وَفْقا للهيئات التي يتشكل عليها جهاز النطق عند التصويت بها، وأن هذه الألقاب تنبئ عن حركات حسية وهيئات صادرة من فم الناطق، فثمة كسر حقيقي يتبعه انجرار العضو إلى السُّفْلِ، وفتح يتبعه انتصاب العضو قائمًا مستويا لا مرتفعا ولا منخفضا، وضمٌّ حسيٌّ ينشأ منه ارتفاع العضو، وهذا وفاق لما ذكره معاصره ابن إياز.

ومما قد ينتقد على الرضي من كلامه السابق على اعتباره بعيداً عن التصور الصوتي قوله: "كأن الفم كان شيئًا ساقطًا فنصبته، أي أقمته بفتحك إياه" فإن فتح الفم ليس

---

١) شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، ١/٦٠-٦١.

عن سقوط ولا شِبهه، وكون الفتح ينشأ بعد فتح الفم ليس معناه أن الفم ينتصب انتصاب الساقط بعد إقامته، وإنما يُحمل ذلك على معنيين اثنين يلحظان على وضع الفم عند الفتح، الأول: أن الفكّين العلويّ والسفليّ يتوازيان عند الانفتاح من غير أن يكون أحدهما متقدما عن الآخر ولا متأخرًا عنه، وعندئذ يحصل لفتحة الفم كلها انتصاب طوليٌّ، وهو امتداده علوًا وسُفْلا، بعد أنْ كان الفم مغلَقا، وليس هيئة السقوط والانطراح. والثاني: أن اللسان يتخذ وضعا في داخل الفم عند النطق بالفتح يكون فيه منتصبا من أوله إلى آخره من غير أن يكون له اعتراض على شيء من الهواء المنبعث من الداخل، وسيأتي بيان هذا وتحقيقه إن شاء الله.

وثمةَ مناسبة مهمة جدًا - تُفهم مما تقدم من كلام العلامة الرضيّ ضمنا - بين البناء وأسماء الحركات، وبين الإعراب وألقابه، وهي المناسبة نفسها المفهومة من حديث ابن إياز، وتفصيلها أن كل حركة أصلية تنشأ عنها صفة لازمة لها، وتلك الصفة فرع، والأصل هو الحركة من حيث هي بذاتها، فالأصل في المفتوح الفتح، وهو ناشئ عن انفتاح الفم، فلما كان الفتح هيئة الفم عند انفتاحه من الجهة اللغوية، اعتبرت هذه الحركة أصلاً، فناسب أن يلقب بها ما لا تفارقه من الكلمات، وهو المبني، ومن ثمّ قيل فيه: مفتوح، أي : باقٍ على أصله من الفتح ولم يطرأ عليه شيء.

ثم إن الفتح ينشأ عنه الانتصاب وهو هيئة عضو النطق عند الانفتاح، فهو صفة عارضة للتجويف الفموي زائدة على وصفه الأصلي، ومن ثمّ ناسبت أن تكون لقبًا للفتحة العارضة، وهي فتحة الإعراب، لأنها زائلة بتغير الموقع الإعرابي، فالمبني مفتوح استصحابا للأصل، والمعرب منصوبٌ اعتدادا بعروض النصب مُسبَّبًا عن الفتح، لأن النصب صفة ناشئة عن الفتح، كما أن الإعراب صفة ناشئة عن الموقع السياقي للكلمة.

وهكذا يقال في الضم والجر، على أنهما أصل حركة أعضاء النطق، ثم ينشأ عن الأول ارتفاع العضو إلى أعلى، وينشأ عن الثاني انجراره إلى أسفل، فسميت حركة المبني ضما وكسرا طردًا للأصل، ولقبتا بالرفع والجر فيما تطرآنِ عليه من الكلمات وليستا أصلا فيه، وذلك يناسب طروءَ الارتفاع ونشوؤَه من الضم، وطروءَ الجر ونشوؤَه من الكسر، فسموا بأصل الحركة ما كانت فيه أصلا، وسموا بلقبها العارض ما كانت فيه عارضة.

وهذه المناسبة ذكرها لفيف من النحويين، وعَزَوا إليها أصل التفريق في التلقيب بين الحركات البنائية والإعرابية[1]، كعبارة القاسم بن محمد الواسطي الضرير (القرن الخامس) في شرحه لقول ابن جني: "الإعراب أربعة أضرب: رفع ونصب وجرّ وجَزْم، والبناء أربعة أضرب: ضم وفتح وكسر ووقف"[2] فقال: "فهذه الأربعة - حركات البناء - هي الأصول، وحركات الإعراب فروع، وإنما كانت فروعًا؛ لتغيُّرها من حال إلى حال"[3].

فهذه مناسبة واضحة، ولكن يعكر عليها أن صفة الحركة واحدةٌ في المبني والمعرب، فعضو النطق موصوف بالارتفاع في حال الضم مطلقا، وموصوف بالنصب في حال الفتح مطلقا، وموصوف بالانجرار والانخفاض في حال الكسر مطلقا، لا فرق في ذلك بين حركات المبني والمعرب، فلو قيل في المبني: مرفوع ومنصوب ومجرور لصح ذلك صوتيا؛ لتحقق سببه ومعناه لغة، لأن هذه الصفات لازمة لحال أداء الحركات الثلاث أنَّى وُجدَتْ، ومن ثَمَّ لا يمكن أن يفرق الإنسان بين المبني والمعرب من كلمات الجملة الآتية لمجرد النطق بالضم: (جلستُ حيثُ يجلسُ زيدٌ) لأن المضموم موصوف بالرفع الصوتي في الجميع ولا فرق بين معربه ومبنيّه، وليس مجرد الضم فارقا مميزًا بين الأصل والطارئ من هذه الضمات، كما أن حذف النون في الأفعال الخمسة ليس مفرقا بين النصب والجزم، وإنما يحصل التمييز بالموقع الإعرابي أو المعنى ونحوهما من القرائن.

فلم يكُ بدٌّ من أن يقال إن هذا التفريق بين أسماء الحركات وألقاب الإعراب مهما كان له من مناسبة ظاهرة، واعتبار منطقي، لا يَعْدُ كونه مصطلحا اصطُلِح عليه لضبط أحوال الإعراب، وتسهيل تعليم اللغة، فهو إجراء وصفيٌّ يُنظر فيه إلى متعلقاته لا إلى ذاته، ولكن يجب أن يفهم - بناءً على ما سبق - أن له أصلا لغويا صحيحا، وهو العلاقة الاشتقاقية الكائنة بين المصدر وفعله، والمنطقية الكائنة بين السبب ومسببه، وأنه مبني على الطبيعة الصوتية لهذه الحركات.

---

1) انظر: المحصول في شرح الفصول لابن إياز، ١/٦٦-٧٧.

2) اللمع في العربية لابن جني، ص٠د.

3) شرح اللمع في النحو، للواسطي، ص٩.

ب. التفسيرات والتعليلات المعنوية:

ومن علماء العربية مَنْ تناول وصف هذه الأصوات وتعليل تلقيبها بتلك الألقاب. من الجهة المعنوية، محاولين التفريق بين أسماء الحركات الأصلية، وألقاب الإعراب في أصل التسمية، لأنهم وجدوا مَن قبلَهم قد فرقوا بينها من الناحية التطبيقية، فالتمسوا لها عِللاً منطقية أرادوا بها الربط بينها وبين مدلولاتها في السياق اللغوي، ولكن تلك العِلَل لا تبدو لها علاقة بالأصول الصوتية لهذه الحركات وألقابها، ولا بحقيقتها اللفظية، كما سيتبين من النماذج الآتية:

١. من هذه التفسيرات والعلل المعنوية ما تقدم أن ذكره العلامة الزجاجي رحمه الله ونسبه إلى البصريين في تعليل الجر.إذ قال: "وأما الجر فإنما سُمي بذلك لأن معنى الجر الإضافة، وذلك أن الحروف الجارة تجر ما قبلها فتوصله إلى ما بعدها، كقولك مررت بزيدٍ، فالباء أوصلت مرورك إلى زيد. وكذلك : المال لعبدِ الله، وهذا غلامُ زيدٍ"[1].

ولا ريب أن ما ذكره من أن حروف الجر من الروابط التي تربط العلاقات بين كلمات اللغة، وتنسب بها معاني الأفعال إلى الأسماء صحيح ولا جدال فيه، ولكن هذا ليس خاصا بحروف الجر، بل تشترك فيه كل الأدوات، كأدوات العطف، والاستفهام، والشرط، ونحوها، ولا علاقة لذلك الربط بحقيقة الجر، وليست الإضافة جرًا، وإنما هي نسبةٌ معنوية، والجر حركة حسية، وتسميته لدى فريق من النحويين بالخفض يُفهم منها أنه حركة باتجاه السُّفْل.

وأما إيصال الباء للمرور إلى (زيد) في نحو: مُرَّ بزيد، فمفهوم من دلالة عموم السياق، وليس من لفظ الجر المدلول عليه بعلامة الكسر، ولا من المعنى المفهوم من الباء نفسها في سياقها، وهو الإلصاق والمخالطة وملابسة ما قبلها لما بعدها، فإن علاقة هذا بلفظ الجر أو الخفض الدال على التسفُّل والانخفاض يصعب تصورها، ولا سيما إذا تقرر أن الجرة هي الكسرة لغةً كما تقدم مرارًا.

٢ـ ومن التفسيرات المعنوية قول الحيدرة اليمني(٥٩٩هـ) رحمه الله: "وألقاب الإعراب أربعة: رفع، ونصب، وجر، وجزم". وهذه ألقاب صياغية من المعاني، وذلك أن

---

١) الإيضاح في علل النحو للزجاجي، ص٩٣-٩٤.

الفاعل والمبتدأ لمّا كانا شريفين سُمّي إعرابهما رفعا، وكذلك المفعول وشبهه لما كانت حركته خفيفة، يخرج بغير تكلف سُمِّيَتْ نصْبا، والنصب الصوت الحسن السهل، وقيل للجر جرٌ لأنه يجر معاني الأفعال إلى الأسماء..."[1].

ولا شك أنه لا يمكن للإنسان أن يتصور مثل هذه العلاقات المنطقية على الحقيقة، فأي علاقة يمكن ربطها بين الشرف وهو صفة معنوية، والرفع الحركي وهو صفة حسية؟ كما أنه يستبعد معنى الشرف المذكور في مصطلح (الفاعل)، وهو مصطلح تركيبي لا علاقة له بالمدح ولا الذم، كما يستبعد تصور مراعاة معنى الحسن والسهولة في المعنى اللغوي للنصب الحركي المدلول عليه بالفتح.

٣- ومن هذا النمط من التعليل المعنوي : قول عز الدين القواس الموصلي(٦٧٢هـ) رحمه الله : "وألقاب الإعراب أربعة: رفع ونصب وجر وجزم، فالرفع من رفع المنزلة، لكونه علَما لإعراب الفاعل الذي هو أعلى المراتب، والنصب من نَصَبَه المرض إذا غيَّره، لكونه على المفعول الذي يتأثر بفعل الفاعل ..." وجوّز في علة تسمية الجر، الوجهين السابقين : الوجه الصوتي والوجه المعنوي [2].

وكلامه في الرفع ككلام سابقه في نسبة الرفع إلى الفاعل بجامع الشرف وارتفاع الرتبة!! وإذا ادُّعِيَ هذا في الفاعل فليت شعري ما شأن سائر المرفوعات؟ هل جاءها الرفع من تلقاء نصيب لها من هذا الشرف؟!! وقد علل النصب بنقيض سابقه، فهناك علّله الحيدرةُ بأنه بمعنى الحسن والسهولة لغة، فسمي المنصوب منصوبا لسهولته وخفته لذلك!! وهنا جعل القواس معناه المراد المرض، لأن المفعول - في هذا الزعم - واقع تحت تأثير الفاعل مصابٌ بعذاب أليم منه، فهو منصوب مكظومٌ!! ولم يذكر سبب لحوق هذا العذاب الْمُدنِف لسائر المنصوبات التي لا تقع تحت تأثير الفاعل.

٤- ومن قبيل هذا التعليل قول العلامة الدماميني (٨٢٧هـ) رحمه الله: " ...لأن حقيقة قولنا: مرفوع، إنه عُمدة، لأن ذلك إعراب العُمد، أي إعراب ما هو أحد جزئي الجملة "[3].

---

١) كشف المشكل في النحو للحيدرة اليمني، ص١٦٧-١٦٨.

٢) شرح ألفية ابن معطي للقواس الموصلي، ١/ ٢٢٥

٣) تعليق الفرائد للدماميني ١/ ١٣٤.

وذهب بعضهم إلى أن هذه التسميات عائدة إلى كثرة المعرب بها وقلته، وكثرة المبني وقلته. فسمي الكثير بالأخف منها، وهو نصب المنصوبات لكثرتها وخفة الفتح. وسمي القليل وهو المرفوعات بالثقيل وهو الرفع لثقل الضم ليعتدل الكلام بتخفيف ما يثقل وتثقيل ما يخف![1] والتمس بعضهم عللا أخرى من هذا القبيل ليس لها أي علاقة بتاريخ ابتداء وضع هذه الأسماء. ولا بحقائقها الصوتية المتقدمة.

إن هذا النوع من التعليلات المنطقية التي لا يخلو بعضها من الطرافة، لا أرى أيها الباحث أهمية للاسترسال في إيراد مزيد منها، لعدم إضافتها شيئا مغنيا في الوصول إلى غرض البحث. ومن ثم استكفيت بإيراد نماذج قليلة يستدل بها على وجودها وعدم استبعادها. وهي حتما مما يجدها القارئ عند بعض النحويين ولا يجد لها أي علاقة بالطبيعة الصوتية لهذه الألقاب الإعرابية الموضوعة للدراسة. بل يجدها من تأملها بعيدة كل البعد عن الواقع اللغوي، وفيها من التكلف والتأويل ما لا يخفى.

وإن وجود مثل هذا النوع من التعليل المنطقي المباين للأصول الصوتية لألفاظ اللغة ليدعو دارسي العربية إلى التعمق في تتبع منطلقاتها اللغوية. لأن حملها على غير ما وُضعت له أساسا نشأ منه تعقيد كبير حال بين أبناء العربية وبين إدراك سلاستها وعذوبتها، ونفّر منها ملتمسيها، فعزُب عنهم التوفيق بين ما يجدونه مطبّقا في الواقع الاستعمالي. وما دُوّن من قوانين وعلل لا يفسرها ذلك الواقع.

* * *

---

١) انظر: الأشباه والنظائر للسيوطي ٢/ ٤٤-٤٦.

موقف الدراسات الحديثة، ونتائج التحليل المعملي:

لقد تناول كثير من الباحثين في الصوتيات الحديثة حديث الحركات، تصنيفا وتحليلا، ولكنّ كثيرا منهم انطلقوا متأثرين بالدراسات الغربية من جهة التحليل الصوتي. ولم يكن اهتمامهم تأصيل النطق العربي الموافق لما وصفه أوائل علماء اللغة، الذين شافهوا العرب الأقحاح أيام صفاء اللغة ونصاعة ألفاظها، أو مَن روى عنهم وتأثر بهم ولم يتجاوز الوصف الصوتي للنطق العربي الخالص. مثل من تقدم ذكرهم وإيراد أقوالهم عبر القرون الغابرة.

والدارس العربي يحتاج إلى الوصف المعملي الموافق للنطق العربي، بطريقة تفسر المدلولات اللغوية الدقيقة لهذه الألقاب كما أطلقها الأوائل الذين أصّلوا لها، كما أنه يحتاج إلى نتائج معملية غير مقتصرة على تحليل الملامح الصوتية التي لا يمكن قياسها بحاستي السمع والبصر المجردين، بل ترتكز على إظهار حقيقة اللفظ من جهة أصوله التي بُنِي عليها، وهي حقائقه المدرَكة لدى ناطقيه ابتداءً؛ لأن ذلك أقرب إلى الذوق العربي الذي أطلق هذه الألفاظ معتمداً على مجرد إدراكه لما يسمعه ويبصره.

ولقد تقدم من كلام أئمة النحو واللغة تحديدهم للأجزاء النطقية التي يمكن أن توصف بالفتح والضم والكسر في أثناء التلفظ بالحركات الثلاث، وقد توصلوا إلى كثير من الدقائق الصوتية لهذه الحركات، فحددوها وعللوها عن طريق منهج الملاحظة، معتمدين في وصفهم ودراستهم لطبائع أصوات اللغة وحقائقها نتائج الملاحظة المباشرة، وهو أدق منهج وأسلمه؛ لأنه يؤدي إلى المعرفة المباشرة، وليس عن طريق شيء آخر قد يُختلف في تحليل نتائجه، كالآلات المعملية، ونحوها، وهو المنهج الذي يسميه المحدثون بـ"علم الأصوات التجريبي" لأنه يستعمل منهجا تجريبيا لدراسة الأصوات اللغوية، وفيه يلجأ المحلل إلى محاولة تحديد نوع الصوت وقوته وضعفه ونغمته، وتحديد الأعضاء التي تنتجه، وأوضاعها في أثناء النطق؛ للتفريق بين أنواعه من جهة كميته وحجمه وحركته وسكونه، وتفخيمه وترقيقه، وجهره وهمسه، ورخاوته وشدته، ونحو ذلك، عن طريق التجربة والاختبار، وقد يسمى بـ"علم الصوت المعملي" لما يستعمل فيه من آلات وأدوات في المعامل الصوتية تعين على تحديد الأصوات ورسمها[1].

---

١) انظر: دراسة الصوت اللغوي ص٣د-٦٤، ومعجم علم الأصوات للخولي ص١١٢.

ومن هذه الزاوية يتبيّن للمتأمل أن الدراسات الحديثة تلتقي مع الدرس الصوتي القديم في النحو العربي، في بعض المناهج المتبعة لتحليل الأصوات، ومنها المنهج التجريبي هذا، الذي يلتقي مع منهج الملاحظة المباشرة عند علماء العربية القدماء، والفرق بينهما أن المحدثين استخدموا آلات معملية للملاحظة، والقدماء اعتمدوا على الملاحظة المباشرة، ومن ثَمَّ نجد أن المحدثين لم يتجاوزوا في كثير من معالجاتهم الصوتية ما قرره علماء العربية، وأن ما توصلوا إليه من نتائج يتفق إلى حد كبير مع ما سبق إليه علماء العربية.

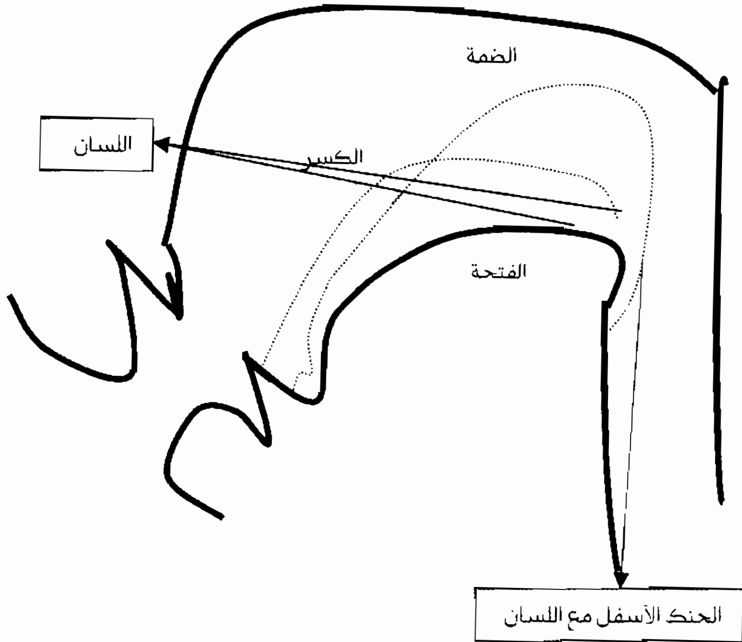
ومن هنا تجدنا مدفوعين إلى معرفة حقيقة ما توصلت إليه الدراسات الصوتية الحديثة، في شأن الطبيعة الصوتية للحركات، للنظر في مدى مطابقته للوصف الذي قدمه علماء العربية لها، وما أظهرته الحقائق العلمية المستندة إلى نتائج المعامل الصوتية البالغة الدقة، فإن ذلك يجعل القارئ على دراية مُثبَتة علميا بمناسبة الضم للرفع، والفتح للنصب، والكسر للجر، من حيث مطابقة المرئي من حركات الفم للصوت المسموع، ومن حيث تحديد جميع الأجزاء النطقية التي تشارك في إنتاج هذه الحركات، فإن هذا مما يعتمد عليه كثيرا في تعليم النطق، والتفريق بين المنطوقات، وتعيين الخطإ من الصواب.

فهل نتج الضم والكسر والفتح عن عملية تركيبية فيزيائية فسيولوجية اشترك فيها الحلق واللسان والشفتان والأسنان والمحيط التجويفي للفم كله، فظهرت مختصرة فيما نسمعه ونسميه فتحًا وضما وكسرا؟ يبدو أن الأمر يحتاج إلى إيضاح يجمع بين الدقة والبساطة والوضوح، وإلى إثبات يجمع بين نتائج الملاحظة المباشرة السمعية البصَرية، ونتائج المعامل الصوتية الدقيقة؛ فإن ذلك يفضي إلى نتيجة واضحة معَلَّلَةٍ علميا، مدعومة بالبرهان المبين على تأصيل تسمية هذه الحركات بتلك الأسماء والألقاب.

لأنَّ المتأمل في حقيقة التصويت قد يستبعد أن يكون جزء من أجزاء التجويف الفموي صغيرًا كان أو كبيرًا بعيدًا عن التأثير في تشكيل صوت الحركة، والدليل على ذلك في الواقع المشاهد اختلاف أصوات التيار الهوائي في أثناء مروره بأي حيّز من الأحياز التي يعبرها وتحتويه.

الوصف المعملي للحركات

باستخدام التصوير الطيفي للكلام. والتقاط صور أعضاء النطق بالأشعة السينية، أمكن تحديد أوضاع اللسان في أثناء النطق بالحركات الثلاث. كما ظهر أن لتلك الأوضاع أثرًا في تعيين صوت كل حركة وتمييز صفاتها، وكذلك ظهر ما للأعضاء الأخرى من هيئات متباينة في أثناء النطق بالحركات الثلاث. فقد لوحظ اهتزاز الوترين الصوتيين الموجودين في الحنجرة عند النطق بالحركات، وينتج عن اهتزازهما صوت الحنجرة، ويتبع ذلك أوضاع خاصة للشفتين، وللفكين نزولا وصعودًا، ويكاد جمهور الصوتيين الذين حاولوا وضع رسم تقريبي لأوضاع اللسان في داخل التجويف الفموي يتفق على الرسم التقريبي الآتي[1]:



---

1) انظر: مدخل إلى التصوير الطيفي للكلام. لآرنست بولجرام ص١١٦. والتشكيل الصوتي في اللغة العربية للعاني ص١٠٩. وعلم الاصوات العام لكمال بشر. ص١٣٢.

يتبين من هذا الرسم اختلاف أوضاع اللسان مع كل حركة، ويتخذ الفكان والشفتان وما حولهما أوضاعا دقيقة جدًا تتكيف عن طريقها هذه الأصوات فتتميز، على التفصيل الآتي:

أولا: الفتحة: ينفصل الفكان السفلي عن العلوي، وينفتح التجويف الفموي، فيذهب الفك السفلي منخفضا بموازاة الفك العلو من غير رجوع للخلف، فتنفرج لذلك الشفتان والأسنان؛ لأنها جزء من الفكين، فلا يعترض على هواء الصوت شيء، ويمتد اللسان منبسطا في قاع الفم، كما يظهر في الرسم المتقدم، فيتسع التجويف الفموي اتساعا بقدر درجة الفتح وطوله.

هنا تظهر حقيقة تسمية هذه الفتحة فتحا ونصبا، فقد تبين أنها تنتج عن طريق انفتاح الفم بجُمعه، انفتاحا متوازيا، وباستمرار هذا الانفتاح ينتصب الفم بانفتاح الفكين إلى أقصى حد، كما أن اللسان أيضا ينتصب بامتداده في داخل الفم على شكل الفك السفلي الذي لزق به، فمن نطق بالفتح من غير إظهار لهذه الكيفية لم يُصب صوت الفتح الحقيقي.

وأما ما يذكره بعض أهل الأداء والباحثين من أن الشفتين تكونان مفتوحتين، فليس بالوصف الدقيق، لأن ذلك يوهم انفتاحهما مستقلتين عن الفكين، والصواب أنهما تابعتان للفكين، والفكان هما اللذان ينفتحان ويتباعدان، ومن ثم يُلحظ أن التجويف الفموي ينفتح كله عند حدوث الفتحة، فيخرج الهواء بانبعاث كامل دون حبس أو تضييق عليه، ولهذا كانت أخف الحركات، لأنها لا تتطلب إشراك اللسانِ أو الشفتين، بل تنسل انسلال النَّفَس[1].

ثانيا: الضمة: ينفصل الفك السفلي عن العلوي قليلا بما يكفي لمزايلة الأسنان السفلى للعليا، ولكن من غير انفتاح، وتنقبض الشفتان متجهتين للعلوّ، فتتضايقان حتى تكادان تنغلقان، وتبقى فرجة بينهما يمر منها الهواء، ويتحدب اللسان من الخلف - كما في الرسمة - متجها نحو سقف الحنك، وتنزل أسَلَته لازقة بأسفل الحنك السفلي، وينقسم تجويف الفم إلى قسمين: قسم ضيّق خلف اللسان، وقسم واسع مدوَّر أمام اللسان، وفي هذه الهيئة يأتي الصوت منبعثا عبر الحنجرة فيهتز التجويف الفموي كله، محدثا صوت الضم، بما يلائم هذه الهيئة العضوية.

---

1) انظر: مجلة التواصل اللساني ٦ / ٤٦، العددان :٢،١.

ولأجل هذا الانضمام الملحوظ للشفتين سميت الحركة ضمة. ولأجل الارتفاع الحادث لهما بعد الضم مع ارتفاع الجزء الخلفي من اللسان للحنك الأعلى سمي الضم رَفْعًا. وهذا واضح جدًا لمن تأمله. وهذا يحقق صحة تسمية الضمة رفْعةً، كما كان بعض النحويين يسميها.

ثالثا: الكسرة: يزايل الفك السفلي قرينه العلويّ، فينفصل عنه منكسرًا انكسارًا يسيرا للخلف. ولكنه انكسار في وضع النزول (الانخفاض) بحيث يُلحظ تقدمٌ ما للفك العلويّ في جهة الأمام. وهو تقدُّمٌ ناتج عن تأخر الفك السفلي عنه. فلا يكون ثمة موازاة تامة بينهما. وتظل الشفتان في مكانهما تابعتين للفكين، فتتقهقر الشفة السفلى قليلا مع فكها للخلف. ويُلحظ رجوع يسير لجانبيهما عند إخلاص الكسر وإظهاره بشدة. ويُلحظ ذلك أكثر ما يُلحظ عند مَن يُحرِّك شِدقيه ويسحبهما للخلف. أما اللسان فيرتفع من الخلف إلى مؤخرة الحنك الأعلى، ولكن دون ارتفاعه لدى الضم ـ انظر الرسمة . وينزل طرف ذَوْلَقه تحت لثات الثنايا السفلى.

فلأجل هذا الانكسار الملحوظ للفك السفلي وانخفاضه عن العلويّ، سميت حركته كسرًا. وسميت جرًا وخفضا. لهذا الانجرار الذي أدى إلى انخفاض الفك السفلي عن مكانه الطبيعي قبل التلفظ بهذه الحركة. كما يُلحظ أن طرف اللسان النازل في أسفل الفك السفلي خلف لِثاتِ الثنيتين ينجر قليلا إلى الخلف عن وضعه الذي كان فيه قبل ذلك[1].

لاحقة مقتضاة:

ومن مقتضَيات هذه الدراسة التي ينبغي أنْ يُصرح بها وتُلحَق بهذا الإطار أن النطق الفصيح للحركات الصوتية العربية جاء مقرونا بهذه الحركات والهيئات المذكورة لأعضاء النطق. وكان هذا شائعا لديهم، ولأجله نسبوا إلى هذه الهيئات العضوية ما يصدر عنها من الأصوات. وأطلقوا على كل صوت لفظة توافق المعنى المعجمي لحركة العضو الذي نشأ منه ذلك الصوت. ولا ريب أنهم لم يقولوا: فتح وضم وكسر ورفع ونصب وجر:

---

1) انظر حول هذا الوصف المعملي : مدخل إلى التصوير الطيفي للكلام، لأرنست بولجرام ص١١٦–١١٧. والتشكيل الصوتي في اللغة العربية للعاني ص٣٨–٦٧. ودراسة الصوت اللغوي لأحمد مختار عمر ص ١٥١. وعلم الأصوات العام لكمال بشر، ص٤٦٥.

إلا بالملاحظة البَصرية المباشرة لهذه المعاني من تحركات أعضاء النطق بوضوح، ولولا ذلك الوضوح في الحركة العضوية لَمَا تميز صوتها عن غيرها، ولَما قسموا كل حركة إلى جزأين: أصل الحركة، ثم الوصف الناتج عنها، كما تقدم.

وإنما ذكرتُ هذا لما يُرى عند كثير من الناس -ولا سيما العجم- عندما ينطقون بهذه الحركات في أثناء القراءة من غير تحريك للشفتين والفكين والشدقين. فيكتفون بتحريك اللسان مدعومًا بصوت الحنجرة وحركة الوترين الصوتيين. فتُسمَع أصواتهم ضيِّقةً محبوسة يابسة غير سلسلة ولا منطلقة في أثناء التصويت بالحركات الثلاث. حتى إن بعض القراء من العجم يعدون تحريك الفكين في أثناء النطق خطأ في تجويد القراءة! وإذا شرع أحدهم في القراءة لم يكَدْ يحرك شفتيه بوضوح إلا بالميم والباء، والفاء والواو بوَهن لا يكاد يُدرك. كما أن بعض الباحثين في المعامل الصوتية يجرون تجاربهم لِسَبْر حقائق أصوات الحركات الثلاث على ناطقين من هذا النوع الذي لا يحرك فكيه وشفتيه وشدقيه تحريكا ظاهرًا، ومِنْ ثَمَّ كانت أحكامهم ناتجة عن تحليل غير دقيق وعمل غير مؤصَّل، وهذه مسألة بالغة الأهمية في تحليل الأصوات، وفي مجالات البحث العلمي الدقيق. والتحليل الصوتي تعتمد مصداقيته على أمرين:

الأمر الأول: تحديد المجال الصوتي الذي يراد قياسه، وأخذه من مصدر مطابق لأصله، وحقيقته المثبتة نظريا، وهذه الحركات لا ينبغي أن تقاس أصواتها ممن لا ينطقها نطقا موافقا للوصف النظري الذي قدمه علماء العربية الذين عاصروا نقاء الفصحى، أو رووا عمن أخذ وصفها من نطق أهلها الخُلَّص.

الأمر الثاني: المعرفة التامة بالنظام الصوتي الأصلي الذي تنتمي إليه المادة الصوتية المعالَجة. فإذا كان المحلل الصوتي محدود المعرفة اللغوية، فإنه قد لا يعطي حقائق واقعة، ناهيك عن أن سلامته من التأثر بسوابق ثقافية أوظروف أخرى مصاحبة واردة لا محالة، كما أن آلة القياس في المعمل الصوتي نفسها قد لا تكون عالية الدقة، وكل ذلك مَظِنّة للحدِّ من موضوعية المُحلِّل الصوتي ودقته[1].

---

1) انظر: مدخل الى التصوير الطيفي للكلام، لأرنست بولجرام ص٢٠٤-٢٠٥، وتعليق المترجم عليه في ص٢٥٦،٢٥٧.

نتائج الدراسة

وهذا أوان إيجاز أهم ما استبان من نتائج ما تقدم من الدراسة:

١. أن الحركات تنتج عن طريق هيئات متنوعة ومختلفة لأعضاء النطق في التجويف الفموي، فكانت تسميتها حركاتٍ تعبيرا عن حركات الأعضاء التي تنتجها، فهي حركات جسمية حقيقية في أصلها، وأن تنوعها هو سبب تباين أصواتها.

٢- جاء الاصطلاح على تسمية كل حركة صوتية بالحركة العضوية التي تنتجها في جهاز النطق البشري، ودالة عليها دلالة صوتية ومعجمية.

٣- الأسماء والألقاب التي أطلقها علماء اللغة على الحركات منظور فيها إلى حركات الشفتين والفكين والشِّدْقين والأسنان في أثناء التلفظ بها، والدراسات المعملية الحديثة أكدت ذلك وأضافت إليه ما تقتضيه أحوال اللسان وهيئاته عند النطق، فقد تبين من خلال التصوير الطيفي للكلام بجهاز الاسبكتروجراف والتصوير بأشعة الإكس أن لِلِّسان أثرًا ومشاركةً في تكوين صوت الحركة وتكييفه.

٤. تبيَّن أن التفريق بين أسماء الحركات وألقاب الإعراب في التسمية لا يرجع إلى أسباب صوتية لفظية، ولا إلى المعنى المعجمي لكل لفظة منها، بل هو إجراء اصطلاحي اقتضاه التقعيد الإعرابي، والغرض التعليمي، ولكن تبين أيضا أن هذا التفريق في التسمية لم يأتِ اعتباطا بل كان لمناسبة ظاهرة بين كل حركة ولقبها من جهة البنية الصوتية العميقة، فقد تبين من الناحية الفسيولوجية أن الفتح يقتضي انتصابًا، والضم يقتضي ارتفاعا، والكسر يقتضي خفضا وجرًا.

٦. الفتح نَصْبٌ، والكسر جرٌّ وخفْضٌ، والضمُّ رَفْعٌ، كل حركة مرادفة للقبها، ولكن من الجهة التأصيلية لا يكون اللقب إلا بعد تحقق مسماه، فلا يأتي النصب إلا بعد تحقق الفتح، ولا يأتي الرفع إلا بعد تحقق الضم، ولا يأتي الجر إلا بعد تحقق الكسر؛ لأنها أسماء صوتية تابعة لحركات عضوية، وبناءً على طروء اللقب ونشوئه مُسَبَّبًا عن الحركة الأصلية المبتدَإِ بها نُطقا رأى علماء النحو العربي تخصيص الاسم الخاص بالحركة الأصلية (الفتح، الجر، والضم) بحركة البناء؛

لِلُزومها، لمناسبة الأصالة الابتدائية للصوت لأصالة تسميته لغَةً، ذلك أن حركة العضو عند الفتح ـ مثلا ـ معناها لغةً: الفتح، دلالةً معجميةً، وهكذا يقال في الباقي.

كما رأوا أن يكون اللقب الطارئ على كل حركة مخصَّصا بهذه الحركة حيث تقبل التغيير ويخلفها غيرها ولا تلزم، وذلك يكون في الكلمات المعربة، فيقال فيها: الرفع والنصب والجر، لكون هذه المعاني طارئة وناشئة من بعد تحقق أصل الحركة.

٧ـ تقرَّرَ ـ بناء على النتيجة السابقة ـ أن الرفع وصف صوتي، والنصب وصف صوتي، والجر وصف صوتي، وصرف هذه الأوصاف الصوتية إلى إطلاقها على المواقع الإعرابية المصاحبة لها مسألة اصطلاحية، جاءت استجابة للدواعي السابق ذكرها.

٨ـ لا يلزم أن تكون هذه الحركات علامات على الإعراب في كل كلمةٍ معربة، لأن الكلمة المعربة قد تحرك بحركة عارضة أو للجوار وغيرهما مما لا يقتضيه الموقع الإعرابي، وقد يكون آخر الكلمة المعربة حرفا لا تظهر عليه الحركات، أو صوتًا لا يقبل التحريك. وهذا يدل على أن هذه الحركات قد تأتي لأغراض دلالية، وقد تأتي لأغراض صوتية صِرْفة لا علاقة لها بالمعنى.

٩ـ تبيّنت أهمية تعليم النطق الصحيح بالحركات الثلاث، وتمييزها عن غيرها من الأصوات، ولا سيما السكون، وأهمية ربط نطقها بحركات الأعضاء المنتجة لها، لأن الاعتماد على النطق التلقائي في هذا الجانب تنتج عنه أخطاء كثيرة في تعلّم اللغة وتعليمها، كما هو الشأن في الاعتماد على النطق التلقائي للحروف الأخرى في التراكيب النحوية.

١٠ـ ثبت من خلال هذه الدراسة أن جمعا من علماء النحو العربي قد وضعوا أسسا تأصيلية للوصف الدقيق لأصوات الحركات، وأنهم بنوا على ذلك كثيرا من آرائهم وتحليلاتهم، فأصابوا في دراساتهم كثيرا لصحة المنطلَقات اللغوية التي بَنَوا عليها. كما أظهر التتبع الدقيق للطبيعة الصوتية لهذه الحركات أن تعليل تسمياتها بارتباطها بمعانٍ فيما يُعرب بها أن ذلك غير دقيق، ولا يمكن القطع به، ولا يوجد ما يؤيده من الناحية التاريخية لأساس تسميتها، كالقول بارتباط

الرفع بالفاعلية لشَرف الفاعل أو لقوته أو لأسبقيته. وارتباط النصب بالسهولة أو الصعوبة أو لكثرة المنصوبات. وارتباط الجر بقلة المجرورات. أو بالربط. أو بنزول الرتبة. ونحو ذلك من هذه العلل التي لا يمكن إثباتها علميا. وتأباها الطبيعة الصوتية والأصول التاريخية لتسمية هذه الحركات. وقد تقدمت مناقشة ذلك كله.

١١. أظهرت هذه الدراسة أن النطق الصحيح للحركات العربية لا بد أن يكون بتوظيف واضح لجهاز النطق. ولا سيما الفكان والشفتان وملتقاهما يمينا وشمالا، لأن أسماء هذه الحركات في أصلها حركات هذه الأعضاء في أثناء التلفظ. وقد دلت تسمية العرب لها بهذه الأسماء على أنهم كانوا يحركون هذه الأعضاء بطريقة واضحة تتميز بها كل حركة. ولم يكونوا يعتمدون على معامل صوتية أو أحداس ذهنية أو دراسات نظرية، بل كانت وسيلتهم الملاحظة الدقيقة لأوضاع أعضاء النطق عند إصدار الصوت، وقد تقدم توثيق ذلك عنهم.

وبناءً على هذا توصل البحث إلى عدم دقة مَنْ بنى وصفه لهذه الحركات على قياس صوت الحنجرة والوترين مكيفا بحركات اللسان. دون إشراك ملحوظ للفكين والشفتين. كما بين البحث أن الدراسة المعملية لا ينبغي الركون إلى نتائجها ما لم تعتمد المعايير العلمية الدقيقة التي تضمن الأصالة والموضوعية.

وأختم هذه الدراسة بالشكر الجزيل والدعاء الخالص وفاءً لأخي الدكتور منصور بن محمد الغامدي. الذي أطلعني على بعض التجارب الصوتية التي أعدها معمل الصوتيات بمدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية بمدينة الرياض. في هذا المجال.

والله أعلم. وصلى الله وسلم على النبي محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

قائمة بمراجع الدراسة

- أخبار النحويين البصريين للسيرافي، تحقيق محمد إبراهيم البنا، ط١، د ١٤٠٥هـ دار الاعتصام.
- ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق مصطفى النماس.ط١، ١٤٠٤هـ مطبعة النسر الذهبي.
- أسس علم اللغة لماريوباي، ترجمة أحمد مختار عمر، ط٢، عالم الكتب، القاهرة ١٩٨٣.
- الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي، عبدالعال سالم مكرم، ط١، ١٤٠٦هـ مؤسسة الرسالة، بيروت.
- الأصوات العربية المتحولة وعلاقتها بالمعنى، لعبد المعطي نمر موسى، ط١، دار الكندي، الأردن.
- الأصول في النحو لابن السراج، تحقيق عبد لحسين الفتلي، ط١، د ١٤٠٥هـ مؤسسة الرسالة، بيروت.
- إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري، تحقيق محيي الدين عبد الرحمن، دمشق ١٣٩٠هـ.
- الإيضاح في علل النحو للزجاجي، تحقيق مازن المبارك، ط د، ١٤٠٦هـ دار النفائس، بيروت.
- البغداديات = المسائل البغدادية
- التحديد في الإتقان والتجويد لأبي عمرو الداني، تحقيق غانم قدوري الحمد، ط١، ١٤٢١هـ دار عمار عمان.
- التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل لأبي حيان الأندلسي، تحقيق حسن هنداوي، ط١، ١٤١٨هـ دار القلم دمشق.
- التشكيل الصوتي في اللغة العربية (فونولوجيا العربية) للدكتور سلمان حسن العاني، ط١، ١٤٠٣هـ جدة.
- تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد للدماميني، تحقيق الدكتور محمد المفدى، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ
- التعليقة على كتاب سيبويه لأبي علي الفارسي، تحقيق عوض بن حمد القوزي ط١، د١٤١٦/١٤١٠هـ الرياض.
- التفسير الكبير لفخر الدين الرازي.ط١، ١٤١١هـ دار الكتب العلمية بيروت.
- تلقين المتعلم من النحو، لابن قتيبة، تحقيق عبد الله الناصر،ط١، ١٤١٣هـ المكتب الإسلامي، بيروت.
- التمهيد في معرفة التجويد لأبي العلاء الحسن بن أحمد الهمذاني العطار، تحقيق غانم قدوري حمد، ط١، ١٤٢٠هـ دار العمار.
- تهذيب اللغة = معجم تهذيب اللغة.
- التواصل اللساني = مجلة التواصل اللساني.
- توجيه اللمع لابن الخباز، تحقيق فائز زكي، ط١، ١٤٢٣هـ دار السلام، القاهرة.

- جهد المقل للعلامة محمد ساجقلي،تحقيق سالم قدوري الحمد. ط١٤٢٢،١هـ الأردن.
- الحدود في الأصول لابن فورك. تحقيق محمد السليماني. ط١. ١٩٩٩. دار الغرب الإسلامي.
- الخصائص لابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي. بيروت.
- دراسات في علم اللغة الوصفي والتاريخي والمقارن لصلاح الدين صالح حسين،ط١. ١٤٠٥هـ دار العلوم، الرياض السعودية
- دراسة السمع والكلام. لسعد مصلوح، ط١. ١٤٢٠هـ عالم الكتب، القاهرة.
- دراسة الصوت اللغوي لأحمد مختار عمر ط / ١٤١١هـ عالم الكتب. القاهرة.
- الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق أحمد حسن فرحات، ط٢. ١٤٠٤هـ دار عمان. الأردن.
- سر صناعة الإعراب لأبي الفتح ابن جني، تحقيق حسن هنداوي، ط١. ١٤٠٥هـ دار القلم، دمشق.
- السماع الطبيعي لابن سينا، تحقيق جعفر آل ياسين، ط١. ١٤١٧هـ دار المناهل، بيروت.
- سيبويه = الكتاب.
- شرح ألفية ابن معطي للقواس الموصلي، تحقيق علي موسى الشوملي، ط١. ١٤٠٥هـ الرياض.
- شرح الرضي لكافية ابن الحاجب. تحقيق حسن بن محمد حفظي، ويحيى بشير مصري، ط١. ١٤١٤هـ جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض.
- شرح السيرافي = شرح كتاب سيبويه
- شرح الكافية للرضي = شرح الرضي لكافية ابن الحاجب.
- شرح اللمع في النحو للقاسم بن محمد الضرير، تحقيق رجب عثمان محمد، ط١. ١٤٢٠هـ مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- شرح اللمع للأصفهاني، تحقيق إبراهيم أبو عباة، ط١. ١٤١٠هـ جامعة الإمام بالرياض.
- شرح المفصل لابن يعيش، تحقيق أحمد السيد سيد أحمد. ط المكتبة التوفيقية، القاهرة
- شرح شافية ابن الحاجب لرضي الدين الإستراباذي، تحقيق محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محي الدين عبد الحميد.ط دار الكتب العلمية ببيروت ١٤٠٢هـ.
- شرح عيون كتاب سيبويه لأبي نصر هارون القيسي القرطبي، تحقيق عبد ربه عبد اللطيف، ط١. ١٤٠٤هـ مطبعة حسان، القاهرة.

- شرح كتاب سيبويه للإمام أبي الفضل الصفار البطليوسي، تحقيق معيض العوفي. ط١. ١٤١٩هـ دار المآثر. المدينة النبوية.
- شرح كتاب سيبويه للسيرافي. تحقيق رمضان عبد التواب وصاحبيه، ط/الهيئة المصرية للكتاب،١٩٨٦.
- علم الأصوات لبرتيل مالمبرج ترجمة عبد الصبور شاهين، نشر مكتبة الشباب .
- علم الأصوات لكمال بشر. ط٢٠٠٠م. دار غريب . القاهرة .
- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي لمحمد السعران، طبعة دار النهضة . بيروت.
- العين = معجم العين .
- كتاب المصاحف لابن أبي داود السجستاني. ط١، ١٤٠٥هـ دار الكتب العلمية، بيروت.
- كتاب النفس لأرسطوطاليس.ترجمة أحمد فؤاد الأهواني. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة.
- الكتاب لسيبويه، تحقيق عبد السلام محمد هارون،ط٢، ١٤٠٢هـ دار الجيل، مصر
- كشف المشكل في النحو، لعلي بن سليمان الحيدرة اليمني ، تحقيق هادي الهلالي. ط١. ١٤٢٣هـ دار عمار. الأردن.
- اللغة العربية معناها ومبناها. لتمام حسان.ط:١٤٢١. دار الثقافة. الدار البيضاء.
- اللمع في العربية لابن جني. تحقيق حامد المؤمن. ط٢، ١٤٠٥هـ عالم الكتب، بيروت.
- مجلة التواصل اللساني المجلد السادس. العددان : الأول والثاني ١٤١٥هـ
- المحصول في شرح الفصول. لابن إياز البغدادي، تحقيق شريف عبد الكريم النجار، ط١، ١٤٣١هـ دار عمار. الأردن.
- المحكم في نقط المصاحف لأبي عمرو الداني. تحقيق عزة حسن. ط٢. ١٤٠٧هـ دار الفكر. دمشق.
- مدخل إلى التصوير الطيفي للكلام لـ(إرنست بولجرام). ترجمة سعد عبد العزيز مصلوح. عالم الكتب ١٤٢٢هـ
- المسائل البغداديات لأبي علي الفارسي. تحقيق صلاح الدين عبد الله السنكاوي. ط مطبعة العاني ببغداد .
- مصطلحات النحو الكوفي للدكتور عبد الله الخثران. ط١. ١٤١١هـ هجر، مصر .
- معاني القرآن لأبي زكريا الفراء. ط٢. ١٩٨٠م. عالم الكتب بيروت .
- معاني القرآن للأخفش. تحقيق هدى محمود. ط١. ١٤١١هـ مطبعة المدني . مصر .

- معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي. تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، ط دار ومكتبة الهلال .
- معجم علم الأصوات للخولي . ط: ١٩٩٨، دار الفلاح . الأردن .
- معيار العلم في المنطق. للغزالي. تحقيق أحمد شمس الدين، ط١، ١٤١٠، دار الكتب العلمية، بيروت.
- المقتصد في شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجاني. تحقيق كاظم بحر المرجان، من منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية ١٩٨٢م .
- المقتضب لأبي العباس المبرد. تحقيق عبد الخالق عضيمة. ط١. القاهرة ١٣٩٩هـ مصر .
- مقدمة لدراسة اللغة لحلمي خليل. دار المعرفة الجامعية ١٩٩٧. القاهرة.
- المنح الفكرية. للعلامة ملا علي القارئ، ط١. ١٤٢٤هـ دار المنهاج بالقاهرة.
- المنهج الصوتي للبنية العربية لعبد الصبور شاهين. ط١. ١٤٠٠. مؤسسة الرسالة . بيروت.
- الموضح في التجويد للإمام عبد الوهاب القرطبي. تحقيق غانم قدوري الحمد. ط١. ١٤٢١هـ دار عمار. الأردن .
- نتائج الفكر في النحو. لأبي القاسم السهيلي تحقيق عادل أحمد، و علي محمد، ط١. ١٤١٢هـ دار الكتب العلمية. بيروت.
- همع الهوامع في شرح. جمع الجوامع للسيوطي. تحقيق عبد السلام محمد هارو. وعبد العال سالم مكرم. ط١٤١٣هـ. مؤسسة الرسالة، بيروت .
- الواضح لأبي بكر الزبيدي الإشبيلي. تحقيق عبد الكريم خليفة. من منشورات الجامعة الأردنية .
- Mansour Alghamdi :Analysis. Synthesis and Perception of Voicing in Arabic. P:144-145. Al-toubah bookshop. jareer St.-Riyadh .

* * *

من مظاهر التوافق اللفظي والاختلاف الدلالي في الأبنية الصرفية

د . مبروك بن حمود الشايع
كلية الآداب - جامعة حائل



من مظاهر التوافق اللفظي والاختلاف الدلالي في الأبنية الصرفية

د. مبروك بن حمود الشايع
كلية الآداب – جامعة حائل

ملخص البحث:

هذا البحث يتحدث عن التشابه اللفظي في الأبنية الصرفية ، مما تكون فيه الصورة اللفظية واحدة لكن الدلالة مختلفة ، ويشمل ذلك الأسماء والأفعال ، مع ظهور أهمية السياق الذي يحدد المقصود ويزيل اللبس الحاصل من التشابه اللفظي ، وعَرَضَ البحث جملة من أقوال المتقدمين الذي شعروا بهذه الظاهرة وتحدثوا عنها ، كما استأنس ببعض تحليلات المحدثين وتتبعهم لمظاهر هذه الموضوع .

وخَلَص البحث إلى أن التشابه في الصورة اللفظية أمر غير مستغرب في العربية وله شواهد وأمثلة ، وأن العرب أجازته رغم ما يحدث فيه من لبس، لكن السياق يوضّح ذلك .

مقدمة

هذا البحث يُعنى بالأبنية الصرفية المتفقة لفظاً المختلفة في الدلالة والمعنى. وهو شبيه بالمشترك اللفظي في علم اللغة بيد أن المشترك اللفظي يكون في مفردات اللغة التي تحويها المعاجم . وهذا الذي معنا يكون في الأبنية الصرفية التي ينشئها المتكلم ويقيسها على ما تفوهت به العرب.

وظاهرة التشابه اللفظي في الأبنية الصرفية تَنبّهَ لها الأقدمون وأومؤوا إليها . من مثل قول ابن جني :

"ألا ترى أنك تقول في تحقير عمرٍو: عُمَير،وكذلك تقول في تحقير عُمَر، وكلاهما مصروف في التحقير. وهذا باب واسع . وإنما يُعتمد في تحديد الغرض فيه بما يصحب الكلامَ من أوله أو آخره،أو بدلالة الحال،فإن لها في إفادة المعنى تأثيراً كبيرًا ، وأكثر ما يعتمدون في تعريف ما يريدون عليها"[1].

وكذا المحدثون لَحَظُوا هذا التشابه اللفظي بين أبنية تختلف في دلالتها . فهذا د. تمام حسان يقول : "ولكن أحيانا قد تتشابه صيغتان في النظام مع اختلاف معناهما . فحين لا نجد اختلافا بينهما نلجأ إلى القرائن نَستبين بها معنى كلٍ منهما"[2].

الدراسات السابقة :

هناك بعض الدراسات التي ألمت ببعض أمثلة هذه الظاهرة، لكن دون تفصيل أو استقصاء . وإنما إشارات متناثرة هنا وهناك . فمن ذلك :

١- ابن جني في كتابه الخصائص . تحدث عن هذه الظاهرة . مرةً في (باب في التقديرين المختلفين لمعنيين مختلفين) [3] ومرة أخرى في (باب اتفاق المصاير على اختلاف المصادر) [4].

وهو في حديثه يكتفي بذكر بعض الأمثلة مع الاستطراد في ذكر أشياء أخرى.

---

(١) المنصف: ١/ ٢٥٤.

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها : ١٤٧.

(٣) الخصائص: ١/ ٣٤٢.

(٤) السابق: ٢: ١٠٥.

٢- الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة في كتابه (دراسات لأسلوب القرآن) ذَكَرَ بعضَ الكلمات القرآنية التي فيها أكثر من احتمال [١]، كأن تحتمل أن تكون مصدرا أو جمعا، أو أن تكون اسم مفعول أو اسم مكان. وهو يثبت تلك الكلمات دون شرح أو تفصيل؛ لأن طبيعة كتابه هو حصر الكلمات القرآنية وفق تصنيف صرفي أو نحوي.

٣- د. تمام حسان في كتابيه (اللغة العربية معناها ومبناها) و (البيان في روائع القرآن)، يسرد أمثلة للتشابه في بعض الأبنية الصرفية على وجه التمثيل لا على وجه الحصر. وبعض أمثلته قد لا يُوافَق عليها

وعلى أية حال فهو تطرق لهذه الظاهرة وتحدث عنها وضرب أمثلة لها.

٤- بحث للدكتور سليمان العايد بعنوان "احتمال الصورة اللفظية لغير وزن" [٢] وهو بحث ينطلق من الوزن التصريفي. ولا ينظر إلى اتفاق الدلالة أو اختلافها. فمما جعله متحدا في الصورة، كلمات: (حيان. حسّان. عفان) بناءً على أن كل كلمة منها تحتمل النونُ فيها أن تكون أصلية أو زائدة [٣]، كما أَدْخَلَ في البحث بعضَ الشاذ من الأفعال مثل: مجيء المضارع من (يَئِسَ) على (يَئَسُ) بدون ياء المضارعة شذوذا [٤]، كما اعتدّ بتسكين الآخر فذكر أن لفظَي (صَبّ وقَرّ) يحتملان أن يكونا اسمين وأن يكونا فعلين بناءً على تسكين آخرهما [٥].

وفي آخر البحث قال: "أوردنا شيئا من الألفاظ التي تحتمل غير وزن واحد. ولا أدّعي أنني استوعبت جميع الألفاظ، أو قاربت. بل إنني ذكرت شيئا، وتركت أشياء يمكن أن تدخل فيما ذُكِرَ" [٦].

وفي بحثنا هذا سننطلق من الدلالة، فما كان متشابها في اللفظ مختلفا في الدلالة أدخلناه. ولا نَعْتَدّ بالتشابه الناتج عن تسكين آخر الكلمة؛ لأن هناك ما يُزيل التشابه وهو

---

(١) انظر على سبيل المثال: القسم الثاني الجزء الثاني، ص:١١٨، ١١٩، ١٣٦، ١٤٢، ١٨٨، ١٨٩.

(٢) مجلة جامعة أم القرى، السنة الثانية، العدد الثالث، ١٤١٠هـ، ص: ٩٦-١٤٤.

(٣) احتمال الصورة اللفظية لغير وزن، ص: ١٢٣.

(٤) السابق: ص: ١٠٩.

(٥) السابق: ص: ١٣٩.

(٦) السابق: ص: ١٤٢.

تحريك آخر الكلمة . وسنحاول في بحثنا تَتَبْع أهم تلك المظاهر، خاصة التي لم يُتَطرّق إليها في الدراسات السابقة . أو تُطرّق إليها لكن دون تفصيل أو تمثيل . وارتأينا تضمينها في مبحثين . أولهما في الأسماء . وثانيهما في الأفعال.

ويتجلى في هذا البحث أهمية السياق وأنه غالبا يكون هو الفيصل في تحديد المراد ؛ لذلك حاولنا إيراد أمثلة وشواهد يتضح من خلالها معنى الصيغة. كما استأنسنا بأقوالٍ للأقدمين تنبئ عن شعورهم بهذا التشابه والتشارك في الأبنية الصرفية.

* * *

المبحث الأول : في الأسماء:

١- اتفاق لفظ اسم الفاعل من فعلين مختلفين:

تكون صيغة اسم الفاعل بلفظ واحد من الثلاثي الأجوف والثلاثي مهموز الوسط[١]:

ذلك مثل : سال و سأل، اسم الفاعل منهما : سائل بزنة (فاعِل)، إلا أن الأول يدل على السيلان ، والثاني يدل على السؤال، ولا يتبين ذلك إلا من خلال السياق ، فيقال : الدم سائلٌ ، وزيدٌ سائلٌ سؤالا ، وتكون الهمزة أصلية في اسم الفاعل من سأل . ومبدلة من الياء في اسم الفاعل من سال.

ومثل سال وسأل : جارَ وجأر ، وثار وثأر ، وبار وبأر [٢] فاسم الفاعل منها على الترتيب هو : جائر ، وثائر ، وبائر ، والسياق هو الكفيل في إبانة المعنى المراد ، فيقال :

١- هذا الرجل جائر في حكمه . ورجل جائر في صوته . أي رافع له مع استغاثة ، من قولهم : جأر يجْأر جَأْرًا وجُؤارًا : إذا رفع صوته بالدعاء [٣].

٢- ثار الغبار فهو ثائر أي : مُتطاير. وثأر زيد لأبيه فهو ثائر أي آخذ بالثأر.

٣- بار الرجل فهو بائر ، من البَوار وهو الهلاك والفساد . ومن أقوال العرب: رجل حائر بائر ، أي ضال تائه لا خير فيه[٤] ، وبأر الرجلُ المالَ فهو بائر للمال ، أي : مخبّئ له أو مدّخر له.

والسبب في التوافق اللفظي في اسم الفاعل في هذه الأمثلة وما أشبهها هو : أنه في نحو : سال فهو سائل، وجار فهو جائر ، وثار فهو ثائر ، ترد علة صرفية هي أن الياء والواو تُقلبان همزة إذا وقعت إحداهما عينا لاسم فاعِلِ فِعْلٍ أُعلتْ فيه[٥] .فحينئذ تتشابه صيغة اسم الفاعل هنا مع اسم الفاعل الذي همزته أصلية.

هذا، وذهب د. تمام حسان إلى أن هناك تشابها في الصيغة بين اسم الفاعل وفعل الأمر في قولك : هذا قاتلُ زيدٍ ، وقاتِلْ زيدا . فقد قال في هذا الصدد :

---

(١) انظر : اللباب من تصريف الأفعال:١٢، ١٣.

(٢) بَأَرَ الشيءَ يبْأَرُه بَأْراً و ابْتَأَرَه. كلاهما: خَبَأَهُ وادَّخَرَهُ (اللسان : بأر) ٤ / ٣٧.

(٣) لسان العرب : (جأر).

(٤) لسان العرب : (بَوَرَ) ٤ / ٨٧.

(٥) انظر : أوضح المسالك :٤ / ٣٧٤.

"صيغة فاعِلْ: عند النظر إلى هذه الصيغة باعتبارها مبنى غير منطوق وغير موضوع في سياق متصل بالطبع ، لأن السياق لا يتكوّن من صِيَغ،سنرى أنها صالحة لمعنيين : أ. اسم الفاعل من فعّل و ب – الأمر من فاعَلَ" [1].

والذي يظهر أنه لا يمكن أن يكون هناك تشابه بين اللفظين ،لأن اسم الفاعل محرك اللام ، وفعل الأمر ساكن اللام. إلا في حالة الوقف . والوقف حالة طارئة ليست هي الأصل . ولو جعلنا الوقف منطلقا لتشابهت صيغ كثيرة ، مثل تقدّم (ماضٍ وأمر) تضارَب (ماضٍ وأمر).

٢. اتفاق لفظ اسم الفاعل واسم المفعول :

يحدث تطابق لفظي بين اسم الفاعل واسم المفعول في موضعين[٢] :

أ– مع الفعل الأجوف على وزن افْتَعَلَ أو انْفَعَلَ . مثل : اختار ، احتار ، احتال ، اعتاض ، اغتاض ، انحاز ، انهارَ. فاسم الفاعل واسم المفعول منها هو : مُخْتار ، مُحْتار ، مُحْتال ، مُعْتاض ، مُغْتاض ، مُنْحاز ، والذي يفرق بينهما هو السياق ، وهذا ما أشار إليه ابن جني بقوله : "ومن ذلك قولهم: مختار ومعتاد ونحو ذلك. فهذا يحمل تقديرين مختلفين لمعنيين مختلفين؛ وذلك أنه إن كان اسمَ الفاعل فأصله: مُخْتَيِر ومُعْتَوِد كمُقْتَطِع (بكسر العين).وإن كان مفعولا فأصله: مُخْتَيَر ومُعْتَوَد كمُقْتَطَع. فـ(مُخْتار) من قولك: أنت مختارٌ للثياب أي :مُستَجِيد لها، أصله: مُخْتَيِر. ومُخْتار من قولك: هذا ثوبٌ مُخْتار، أصله:مُخْتَيَر. فهذان تقديران مختلفان لمعنيين" [٣].

ويبين أبو البقاء العكبري سبب هذا التوافق اللفظي بقوله : "وقد يتفق اسم الفاعل والمفعول ويختلفان في التقدير، نحو : مُخْتَار ومُجْتَاز، وهو محتمل لهما . وسبب ذلك :أن عين الكلمة ياءٌ متحرك ما قبلها . فإن كان للفاعل فهي مكسورة فتقديره : مُخْتَيِر ،

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ، ص:١٤٧.

(٢) انظر :الخصائص : ١/٣٤٦، و٢/ د١٠٥وما بعدها ، اللباب : ١/٢٩٦، الممتع:٢/ ٦٤٢و٦٤٦، شذا العرف: ٩٦.

(٣) الخصائص :١/ ٣٤٧.

مثل : مَخْتَرِع ، وإن كان للمفعول فتقديره : مَخْتَيَر ، مثل : مُخْتَرَع .وعلى كلا التقديرين تنقلب الياء ألفاً ولفظها واحد ، ولكن تقدّر على الألف كسرة للفاعل وفتحة للمفعول"[1].

وأقول توضيحاً لما قاله أبو البقاء : يرجع التوافق إلى اختفاء حركة ما قبل الحرف الأخير، بقلب الياء إلى ألف لتحركها وانفتاح ما قبلها.والألف لا تقبل لا كسرةً ولا فتحةً ، وحينئذ تقّدر الكسرة عليه وكذا الفتحة ، وبعبارة مختصرة : "أدت قواعد الإعلال إلى توحيد الكلمتين" كما قاله د. عبده الراجحي[2].

ب – مع الفعل مضعف الآخر على وزن افْتَعَلَ أو انْفَعَلَ أو فاعَلَ أو تفاعَلَ أو افْعَلَّ أو افَعالَّ، مثل : اشتدّ ، اعتدّ ، انسدّ ، حاجّ ، تحابّ ، احْمَرّ ، احْمارّ فاسم الفاعل واسم المفعول منها واحد والسياق يكشف عن ذلك ، نحو قولك : "أنا مُعْتَدٌّ لك بكذا وكذا، وهذا أمر مُعْتَدٌّ به. فأصل الفاعل: (مُعْتَدِد) كمُقْتَطِع، وأصل المفعول: (مُعْتَدَد) كمقتَطَع"[3].

كما تقول : "هذا بُسرٌ مُحْمَرٌّ ومُحْمارٌّ، وهذا وقتٌ مُحْمَرٌّ فيه ومُحْمارٌّ فيه، فأصل الفاعل: مُحْمَرِر ومُحْمارِر (مكسور العين)، وأصل المفعول: مُحْمَرَر ومُحْمارَرٌ فيه"[4].

ومما يتعيّن فيه أن يكون اسمَ فاعل لأن السياق يدل على ذلك كلمة (مُضارّ) في قوله تعالى :

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾[النساء : ١٢]

فـ(مُضارّ) هنا اسم فاعل ،لأن المعنى : "غَيْرَ مُدْخِلِ الضَّرَرَ عَلَى الْوَرَثَةِ أيْ: لا يَنْبَغِي أنْ يُوصِيَ بِدَيْنٍ لَيْسَ عَلَيْهِ لِيَضُرَّ بِالْوَرَثَةِ، وَلا يُقِرَّ بِدَيْنٍ. فَالْإِضْرَارُ رَاجِعٌ إِلَى الْوَصِيَّةِ وَالدَّيْنِ" [5].

---

(١) اللباب : ٢/ ٢٩٦.

(٢) التطبيق الصرفي : ٨٣.

(٣) الخصائص : ٢/ ١٠٥.

(٤) السابق : ٢/ ١٠٦.

(٥) تفسير القرطبي : ٥/ ٨٠،وانظر: تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز)٢/ ٢٠.

وقال ابن عاشور: "ومُضَارٍّ: الأَظْهَرُ أَنَّهُ اسمُ فَاعِلٍ بِتَقْدِيرِ كَسْرِ الرَّاءِ الأُولَى المُدْغَمَة، أي: غَيْرَ مُضَارٍّ وَرَثَتَهُ بِإِكْثَارِ الوَصَايَا. وَهُوَ نَهْيٌ عَنْ أَنْ يَقْصِدَ المُوصِي مِنْ وَصِيَّتِهِ الإِضْرَارَ بِالوَرَثَةِ" (١).

والسبب في التشابه اللفظي بين اسم الفاعل واسم المفعول في هذه الأوزان التي ذكرناها في الموضع الثاني هو: مجيء الإدغام بأن أدغم الحرف الذي قبل الأخير فيما بعده فذهب هو وحركته.

وهذا يدل على أن العرب تجنح للتخفيف حتى وإن أدى إلى اللبس في بعض المواضع، معتمدين على سياقات الكلام وقرائن الألفاظ.

ولئن اتحدت الصورة اللفظية بين اسم الفاعل واسم المفعول فيما تقدّم إلا أن الوزن مختلف، على النحو الآتي:

وزن الفعل	مثاله	وزن اسم الفاعل	وزن اسم المفعول
افْتَعَلَ (أجوف)	اختار	مُفْتَعِل	مُفْتَعَل
انْفَعَلَ (أجوف)	انقاد	مُنْفَعِل	مُنْفَعَل
افْتَعَلَ (مضعّف)	اشتدّ	مُفْتَعِل	مُفْتَعَل
انْفَعَلَ (مضعّف)	انسدّ	منفَعِل	مُنْفَعَل
فاعَلَ	حاجّ	مُفاعِل	مُفاعَل
تفاعَلَ	تحابّ	مُتفاعِل	مُتفاعَل
افْعَلّ	احمرّ	مُفْعَلِل	مُفْعَلَل
افْعالّ	احمارّ	مُفْعالِل	مُفْعالَل

هذا، ويتعيّن في اسم الفاعل أو اسم المفعول إظهارُ الكسرة أو الفتحة في الترخيم على لغة من يَنتظر إذا كان ما قبل المِثلين ألفا(٢). مثل: مُضارّ، ومُحاجّ، ومحْمارّ

(١) التحرير والتنوير: ٤/ ٢٦٦.

(٢) انظر هذه المسألة في: الكتاب: ٢/ ٢٦٣، توضيح المقاصد: ٣/ ١١٤٢، الأشموني: ٣/ ٥٧٠، النحو الوافي: ٤/ هامش ١١١.

.أعلاما ، ففي ندائها مُرخّمة على لغة من ينتظر، يقال : يا مضارِ ويا مُحاجِ ويا مُحمارِ ، بإظهار الكسرة ، إذا أراد اسمَ الفاعل ، فإن أراد اسمَ المفعول قال : يا مضارَ ويا مُحاجَ ويا مُحمارَ، بإظهار الفتحة. وفي هذا قال سيبويه: "وإن حذفت من اسم مُحمارّ أو مُضارّ، قلت: يا مُحْمارِ ويا مُضارِ، تجيء بالحركة التي هي له في الأصل، كأنك حذفت من مُحمارِر، حيث لم يجز لك أن تُسكِن الراء الأولى... وإن سميته بمضارّ وأنت تريد المفعول قلت: يا مُضارَ أقبل، كأنك حذفت من مُضارَر" [1].

يقصد سيبويه أن إسكان أول المِثلين متعذر لأن ما قبله ساكن وهو الألف . فلما تعذّر التسكين جيء بالحركة الأصلية وهي الكسرة في اسم الفاعل والفتحة في اسم المفعول.

٣- اتفاق صيغة المصدر الميمي واسمي الزمان والمكان:

للمصدر الميمي من الثلاثي وزنان هما (مَفعَل) و(مَفعِل) ، وهما كذلك لاسمي الزمان والمكان من الفعل الثلاثي [2]، وتلك ظاهرة نستطيع تسميتها التزاحم على الوزن ، فالمصدر الميمي واسم الزمان واسم المكان تشترك في هذين الوزنين (على تفصيل في ذلك)[3] وهذان الوزنان صالحان لكل منها . والسياق هو الفيصل في ذلك،وأحياناً حتى السياق يكون محتملاً، على ما سنتبينه في الأمثلة القرآنية الآتية :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة :١٢٦]

مصير : مَفْعِل من صار يصير، وهو صالحٌ للزمان والمكانِ، كما يصلح للمصدر الميمي على قولٍ[4]

---

(١) الكتاب: ٢/ ٢٦٣، ٢٦٤.

(٢) انظر : شرح الشافية للرضي : ١/١٦٨و١٨١ ، شذا العرف : ٩٢و١١٠.

(٣) المصدر الميمي إن كان مثالاً واوياً جاء على (مَفعِل) وإلا كان على (مَفعَل) ، ويكون اسما الزمان والمكان على (مفعِل) إن كان الفعل مثالا غير معتل اللام أو كان مضارعه مكسور العين ، وفيما عدا ذلك يجيء على (مفعَل) (انظر : المصدرين السابقين).

(٤) القياس في المصدر الميمي من (صار) هو : مَصار ، على وزن (مَفْعَل) ، لكن أجاز بعضهم في الأجوف اليائي أن يكون المصدر الميمي منه على وزن (مَفْعِل) كالصحيح (انظر : الدر المصون: ٢/ ١١٣) .

فإنْ كان المصيرُ في الآية اسمَ مكانٍ فالتقدير: وبِئْسَ المكانُ النارُ، وإن كان اسمَ زمانٍ فالتقدير: بئس الزمانُ وقت دخولهم النار، وإن كان مصدراً ميميا على رأي مَنْ أجازه فالتقدير: وبِئْسَ الصيرورةُ صَيْرورتُهم إلى النار[1].

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود :٤١]

"قرأ ابن مسعود وعيسى الثقفي وزيد بن علي والأعمش (مَجراها ومَرساها) ظرفي زمان أو مكان أو مصدرين"[2].

فوزن (مَجرى ومَرسى) : مَفْعَل. وهذا الوزن يشترك فيه اسم الزمان واسم المكان والمصدر الميمي من الفعل الثلاثي ،وهذه الاحتمالات الثلاثة واردة في هذه الآية. وعليه يكون المعنى: باسم الله وقت جريانها ورسوها ، أو موضع جريانها ورسوها. أو باسم الله جريانها ورسوها[3].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم : ٣٧]

قال السمين الحلبي : "مَشْهَد : مَفْعَل، إما من الشهادة . وإما من الشهود وهو الحضور. و(مَشْهَد) هنا يجوز أن يراد به الزمان أو المكان أو المصدر . فإذا كان من الشهادة والمراد به الزمان . فتقديره : من وقت شهادة. وإن أريد به المكان فتقديره : من مكان شهادة يوم. وإن أريد به المصدر فتقديره : من شهادة ذلك اليوم.. وإذا كان من الشهود وهو الحضور ، فتقديره : من شهود الحساب والجزاء يوم القيامة،أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف،أو من وقت الشهود"[4].

ومن التعبيرات الحديثة : (مَشهَدٌ من جهة العمل) أي : شهادة ، فهو حينئذ مصدر ميمي . ويقال : رأيت مَشهداً مؤثراً فهو حينئذ اسم مكان[5].

﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾ [طه : ٥٨]

---

(١) انظر : البحر المحيط ١/ ٣٨٧، الدر المصون : ٢/ ١١٣.

(٢) البحر المحيط : ٥/ ٢٢٥ .

(٣) انظر : المحرر الوجيز : ٣/ ١٧٢، الدر المصون ٦/ ٣٢٥ .

(٤) الدر المصون: ٧/ ٦٠١–٦٠٢ .

(٥) يُنظر المعجم الوسيط ، مادة : ش هـ د .

يصحّ في (موعداً) أن يكون اسمَ زمان ويكون المعنى : اجعل لنا وقت اجتماع . أو اسمَ مكان، ويكون المعنى : بيّن لنا مكاناً معلوماً نعرفه . أو مصدراً ميميًا، ويكون المعنى : عِدنا وعداً لا نختلف فيه[1].

٤- اتفاق صيغة اسم المفعول واسمي الزمان والمكان.

تتفق هذه الثلاثة في صياغتها من كل فعل ثلاثي يائي العين وذلك مثل :باع ، زاد ، عاب.يقال :مَبيع ، مَزيد، مَعيب. لكلٍ من اسم المفعول واسمي الزمان والمكان.

وسبب هذا التوافق: أنها تشترك في فتح الميم وإعلال العين بنقل حركتها إلى الساكن الصحيح قبلها ، ويزيد اسم المفعول بحذف واوه وإتباع حركة العين للفاء . قال سيبويه : "وتقول في الياء : مَبيع ومَهيب ،أسكنت العين وأذهبت واو مفعول ،لأنه لا يلتقي ساكنان ، وجعلت الفاء تابعة للياء حين أسكنتها كما جعلتها تابعة في بِيْض"[2].

فالكسرة في اسمي الزمان والمكان هي الحركة المنقولة من الياء وأما في اسم المفعول فهي كسرة إتباع العين للفاء.

والياء في اسمي الزمان والمكان هي عين الكلمة اتفاقاً، أما الياء في اسم المفعول فهي عين الكلمة على رأي سيبويه.ومدة زائدة على رأي الأخفش[3].

وعلى هذا فنحو كلمة (مَبيع) تصلح أن تكون اسم زمان ،كقولنا : هذا يوم مبيع السيارات ، وأن تكون اسم مكان مثل: هنا مبيع السيارات ، كما تصلح أن تكون اسم مفعول مثل : هذا مَحلٌ مَبيع.

ومما يحتمل أن يكون مصدرا ميميا أو اسم مفعول كلمة (مَزيْد) في قوله تعالى :

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[ق:٣٠]

فمزيد "يجوز أنْ يكونَ مصدراً. وأن يكونَ اسمَ مفعولٍ أي: مِنْ شيءٍ تَزيدونَنِيْه أحْرِقه"[4]

---

(١) البحر المحيط :٦/٢٠٢، الدر المصون: ٨/٤٥.

(٢) الكتاب :٤/٣٤٨.

(٣) الممتع : ٢/٤٥٤

(٤) الدر المصون : ١٠/٣٠.

٥- اتفاق صيغة المصدر الميمي واسم المفعول واسمي الزمان والمكان.

تتفق هذه الأربعة في صياغتها من كل فعل زاد على الثلاثة، ويرجع هذا الاتفاق إلى أن كلاً منها لا بدّ أن يكون مبدوءاً بميم مضمومة ويفتح ما قبل آخره إن كان يقبل الحركة، وذلك مثل: مُخرَج، ومُتساقَط، ومُستخرَج، ومستعان... فـ"التمييز بينها بالقرائن، فإن لم توجد قرينة، فهو صالح للزمان والمكان والمصدر" [١].

وقد جاءت في القرآن الكريم أمثلة تحتمل ذلك [٢].فمن ذلك:

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء: ٨٠]

فـ(مُدخَل) و(مُخرج) يحتملان أن يكونا مصدرين ميميين، أي: إدخال صدق وإخراج صدق، ونُصبا على المصدرية. ويحتملان أن يكونا اسمي مكان، ونُصبا على أنهما ظرفا مكان[٣].

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ [هود: ٦]

فـ"مستقر ومستودع يحتمل أن يكونا مصدرين، ويحتمل أن يكونا اسمي مكان، ويحتمل (مستودع) أن يكون اسمَ مفعولٍ لتعدي الفعل منه" [٤].

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ [القمر: ٤]

"مزدجر هنا: اسم مصدر، أي: ازدجار. أو اسم مكان. أي موضع الازدجار" [د].

ومن أمثلة ما يكون السياق فيه فيصلا ما يأتي:

- هنا مُستخرَجُ الماءِ (اسم مكان).
- اليوم مُستخرَجُ الماءِ من البئر (اسم زمان).
- الماء مُستخرَجٌ من البئر (اسم مفعول).

٦- اتفاق بين اسم المفعول والصفة المشبهة:

---

(١) شذا العرف: ١١٠.

(٢) دراسات لأسلوب القرآن: القسم الثاني الجزء الثالث: ص: ٢٨٢ وما بعدها.

(٣) البحر المحيط: ٦/ ٧٣، الدر المصون: ٧/ ٤٠١.

(٤) البحر المحيط: د/ ٢٠٤.

(د) الدر المصون: ١٠/ ١٢٢.

تأتي ألفاظ تحتمل أن تكون اسمَ مفعول أو صفةً مشبّهة ؛لأن صورتها اللفظية واحدة ولا يفرق بينها إلا السياق [١]، وذلك مثل : مَشيط يجوز أن يكون اسمَ مفعولٍ من شاطَ[٢] وأن يكون صفة مشبه من مَشَطَ، فعلى هذا يقال : رأسٌ مشيط فيكون صفة مشبهة على وزن (فَعِيْل) والميم حينئذ أصلية ، ويقال : زيتٌ مشيط ، فيكون اسمَ مفعولٍ ، ووزنه : (مَفُعْل) على رأي سيبويه ،(مَفُوْل)على رأي الأخفش [٣] والأصل : مشيوط، والميم ساعتئذ زائدة.

ومن هذا الباب : مَهِين .فيصح أن يكون اسمَ مفعول من هانَ يهِين مثل : لانَ يلِين ، فاسم الفاعل منه هائن واسم المفعول منه مَهين [٤].

ويصح أن يكون صفة مشبهة من مَهُنَ ، وفي لسان العرب : "قال أبو إسحق:هو فعيل من المهانة وهي القلة. .. ورجل مَهِين من قوم مهناء أي : ضعيف. .. قال ابن بري : المهين فعله مَهُنَ بضم الهاء والمصدر المهانة"[٥].

فعلى هذا تكون الميم زائدة في مهين إذا كان اسمَ مفعول ،ووزنه مَفِعْل أو مَفِيل ، وتكون الميم أصلية إذا كان صفة مشبهة . ووزنه فَعِيل.

ومما يحتمل الصفة المشبه واسم المفعول (مَدين ومدينة) فعلى أنهما صفة مشبهة يكون فعلهما (مَدَنَ) أي : أقام في المكان ، فالميم أصلية ووزن الكلمة (فَعيل وفعيلة) ، وعلى أنهما اسم مفعول يكون فعلهما (دان) [٦]، فيقال: (في اسم المفعول) هذا رجل مدين بألف ريال ، وهذه امرأة مدينة بألف درهم، ويقال (في الصفة المشبة): هذا رجل مدين في هذا المكان منذ عامين أي : مقيم ، وهذه امرأة مدينة في هذا المكان منذ زمن طويل.

---

(١) انظر : اللباب من تصريف الأفعال ص: ١٣.

(٢) شاطَ الشيءُ : احترقَ ، وشاط دم فلان :ذهب هدراً ، وشاطت الجزور :إذا قسمت كلها(لسان العرب: ش ي ط).

(٣) انظر : التبيان في تصريف الأسماء :٧١.

(٤) لسان العرب : (هـ ي ن) .

(٥) لسان العرب : (م هـ ن) .

(٦) لسان العرب : (م د ن) .

٧- الاتفاق في صيغة المصدر.

يكون مصدر مهموز الفاء وواويها واحداً إذا كان من (أفعَلَ)،مثل : آلَمَ وأولَمَ ، مصدرهما : إيلام ، وكذلك آجر وأوجر ، مصدرهما : إيجار .. وآكل وأوْكَلَ . مصدرهما : إيكال.

ولئن اتفقت الصورة اللفظية . فالتقدير مختلف، وذلك أن الياء في مصدر مهموز الفاء منقلبة عن همزة . والتقدير : آلَمَ إئْلامًا ، آجَرَ إئْجارًا ، آكلَ إئكالا ؛ لأنه في المصدر اجتمعت همزتان في أول الكلمة وكانت الثانية منهما ساكنة .فقلبت الثانية حرفاً من جنس حركة ما قبلها وهي الكسرة ،وتلك قاعدة صرفية معروفة [١].

أما الياء في مصدر نحو (أولَمَ . أوجرَ . أوْكَلَ) فهي منقلبة عن واو،والأصل : إوْلام ،إوْجار . إوْكال؛ وذلك لأن الواو جاءت ساكنةً إثر كسرة فتعيّن قلبها ياءً [٢].

وعلى هذا لو قيل : أولم الرجلُ الوليمةَ إيلاما حَسَنا . لكان(إيلام) مصدرًا لـ(أوْلمَ)، ولو قيل : آلمني هذا الأمر إيلاما . لكان (إيلام) مصدرًا لـ(آلمَ).

٨- اتفاق المصدر وجمع التكسير.

يتفق أحيانا المصدر وجمع التكسير في الوزن ولا يمكن التفريق بينهما إلا من خلال السياق فمن ذلك: أ- اتفاقهما في وزن (فُعُول):

يأتي هذا الوزن مصدراً وجمع تكسير ؛ وذلك لأن من أوزان جمع الكثرة وزن (فُعُول) لكل اسم على وزن(فَعِل) أو (فعْل) مُثلّث الفاء [٣]، مثل : كبد وكبود ، ونَمِر ونمور ، وكعْب وكعوب ، وضِرس وضروس ،وجُند وجنود [٤] ، كما يجوز أن يُجمع (فاعل)[د] على فُعول ، مثل : جالس وجلوس ، واقف ووقوف ، وشاهد وشهود.

---

(١)انظر: شرح الشافية للرضي : ٣ / ٥٢.

(٢)انظر: شرح الشافية للرضي : ٣ / ٨٣.

(٣) يشترط في ساكن العين ألا تكون العين واواً إذا كانت الفاء مفتوحة أو مضمومة مثل ، حَوض وحَوت ، وألا تكون اللام ياءً إذا كانت الفاء مضمومة مثل : مُدْي .

(٤) شذا العرف ١٣٨.

(د) القياس في (فاعل) إن كان صحيح الآخر أن يجمع على فَعَلة (طَلَبة) أو فعّال (طلّاب) أو فِعال (نيام) وإن كان معتل الآخر جُمع على فعَلَة (قضاة).

كما أن مصدر الفعل الثلاثي اللازم يكون على(فُعُول) غالباً إلا إن اعتلت عينه أو دلّ على امتناع أو تقلّب أو داء أو صوت أو سيرٍ أو حرفةٍ، وذلك مثل: جلس جُلوساً، وقعدَ قعودًا، ونهض نهوضًا[1].

وعلى هذا يحدث تشارك في صيغة (فُعُول) بين جمع التكسير ومصدر الفعل اللازم. وتأتي كلمات تحتمل أن تكون مصدراً أو جمعَ تكسيرٍ؛ لأنها ترجع إلى مادة لغوية واحدة، والذي يفرّق بينها هو السياق. وأما الصياغة فواحدة، وذلك مثل: وُرود، تصلح أن تكون جمع وِرْد وتصلح أن تكون مصدرًا لـ(وَرَدَ)، و(ظهور) تصلح أن تكون جمع ظَهْرٍ وتصلح أن تكون مصدرًا لـ(ظَهَرَ) وكذلك قُصور تصلح جمعاً لقَصْرٍ ومصدرًا لـ(قَصَرَ).

وعن هذا التشارك في الصيغة قال سيبويه متحدثاً عن تكسير الاسم: "وجاؤوا به على (فُعول) كما جاؤوا بالمصدر، قالوا: فوج وفؤوج، كما قالوا: نَحْوٌ ونُحُوٌّ"[2].

وقال أبو منصور الأزهري: "وكل مصدر يجيء على (فُعُول) فإنه يجوز أن يجْعَل جمعًا لِفَاعِل كقولك: حَضَرْتُ حُضُورًا، وقَوْمٌ حُضُورٌ. وَشهِدت شُهُودًا، وقَوْمٌ شُهُود"[3].

وقد وردت كلمات قرآنية تحتمل أن تكون مصدرا وتحتمل أن تكون جمعَ تكسير فمن ذلك:

– قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]

قال مكي: "وَيكون بكيا جمع باكٍ، وَقيل: بكيا، نُصِب على الْمصدر وَلَيْسَ بِجمع باكٍ، تَقْدِيره: خروا سُجّدا وَبكَوا بكيًا. وَأَصله فِي الْوَجْهَيْنِ: بُكُويا على (فعُوْل) ثمَّ أدغمت الْوَاو"[4].

ورجّح أبو حيان كونه جمعا لمناسبته للجمع قبله (سُجّدا)[5].

وعلى القول بأنه مصدر يكون مصدراً مؤكداً لفعلٍ محذوف، أي: وبَكَوا بُكِيًّا، أي: بكاءً، أو مصدراً واقعاً موقع الحال. أي: باكين. أو جُعِلوا نفس البكاءِ مبالغةً[6].

–وقوله: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]

---

(١) شذا العرف: ٥٨.

(٢) الكتاب: ٣ / ٥٨٨.

(٣) معاني القراءات للأزهري: ٢/ ١٣١.

(٤) مشكل إعراب القرآن لمكي: ٢/ ٤٥٦.

(٥) البحر المحيط: ٧/ ٢٧٧.

(٦) الدر المصون: ٧/ ٦٠٩.

(فُتُوناً) فيه وجهان: "أحدُهما: أنه مصدرٌ على فُعُول كالقُعود والجُلُوس. إلاَّ أنَّ فُعُولاً قليلٌ في المتعدِّي. ومنه الشُّكُور والكُفور والثُّبور واللُّزوم. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢] والثاني: أنه جمعُ فَتْنٍ أو فِتْنَة على تَرْك الاعتداد بتاء التأنيث كـ(حُجُور) و (بُدُوْر) في حَجْرة وبَدْرة أي: فَتَنَّاك ضُروباً من الفتن"[١].

– وقوله: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ﴾ [الصافات : ٨، ٩]

يجوز في (دحورا) أن يكون مصدرا، ويُعرب مفعولا مطلقا من معنى (يقذفون)، أو مفعولا لأجله، أو حالا، ويجوز أن يكون جمع (داحر) ويُعرب حالا، أي حال كونهم دحورا[٢].

والدَّحْر: الطَّرْدُ والإبعاد والدفع بقوة [٣].

ب– اتفاق المصدر وجمع التكسير في وزن (فِعَال):

يتفق المصدر وجمع التكسير في هذا الوزن(فِعَال)، وفي كثير من الأحيان لا يتبيّن المعنى إلا من خلال السياق. فـ(فِعَال) يكون مصدرا للثلاثي مثل: قام قياما، وصام صياما، ويكون مصدرا للرباعي مثل: جاهد جِهادا، ودافعَ دِفاعا، كما يكون(فِعَال) جمعَ تكسيرٍ لعدة أوزان[٤] من بينها (فاعِل) وإن لم يكن مطردا فيه، مثل: قائم وقِيام، وصائم وصِيام، ونائم ونِيام، وجائع وجِياع[٥].

---

(١) الدر المصون: ٨/ ٣٩، وانظر: روح المعاني: ٨/ ٥٠٥.
(٢) التبيان في إعراب القرآن: ٢/ ١٠٨٨، وانظر: الدر المصون: ٩/ ٢٩٤، روح المعاني: ١٢/ ٦٩.
(٣) لسان العرب: (د ح ر) ٤/ ٢٧٨.
(٤) يكون (فِعال) جمعَ تكسيرٍ باطرادٍ لثمانية أنواع: الأول والثاني: فَعْل وفَعْلة. اسمين أو وصفين، ليست عينهما ولا فاؤهما ياء، مثل: كلْب وكلبَة وكِلاب، وصعْب وصَعْبة وصِعاب. الثالث والرابع: فَعَل وفَعَلة. اسمين صحيحي اللام، ليست عينهما ولامهما من جنسٍ واحد، نحو جَمَل وجِمال، ورَقَبة ورِقاب. الخامس: فِعْل كقِدْح وقِداح، وذِئْب وذِئاب. السادس: فُعْل اسمًا غيرَ واويِّ العين، ولا يائي اللام، كرُمْح ورِماح وجُبّ وجِباب. السابع والثامن: فَعيل وفَعِيلة، وصْفين من باب كَرُم، صحيحي اللام، كظَرِيف وظريفة وظِراف.
كما شاع هذا الوزن جمعا لكل وصف على فَعلان فَعلَى كغَضْبان وغضْبَى وغِضاب، وعطْشان وعطْشَى وعِطاش.. أوفُعْلان فُعْلانة كخُمْصان وخُمْصانة وخِماص. (انظر: شذا العرف: ١٣٧، ١٣٨)
(٥) انظر: الكتاب: ٣/ ٦٣٢، والمقتضب: ٢/ ٢١٨.

فعندما يقال مثلا (قِيام) فإن هذا الاسم يحتمل أن يكون مصدرا أو جمعا لقائم ، فمن مجيئه مصدرا قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة : ٩٧]

ومن مجيئه جمعا قوله تعالى : ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]

وكذا (صيام) تحتمل المصدرية وجمع التكسير ، ففي قوله[1]:

خيلٌ صيامٌ وخيلٌ غيرُ صائمةٍ تحت العجاج وخيلٌ تعلك اللُّجُمَا

يقتضي السياق أنها جمع صائم ، وفي قوله[2] :

نذرتُ عليّ فيهِ صيامُ شهرٍ فإنْ تمَّ الرضا وجبَ الصيامُ

(صيام) هنا مصدر لدلالة السياق على ذلك.

وقد وردت كلمات قرآنية تحتمل أن تكون مصدرا وتحتمل أن تكون جمع تكسير على (فِعال)

فمن ذلك :

– قوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]

في الخصام احتمالان : أحدهما : أنه جمع خَصْم ، مثل : كَعب وكِعاب، وبحر وبِحار. الثاني: أنه مصدر لـ(خاصَمَ) . يقال : خاصم مخاصمة وخصاما[3].

– وقوله : ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]

كلمة (رباط) تحتمل أن تكون جمع تكسير لـ(رَبْط) مثل : كلْب وكلاب . وفيه دلالة على كثرتها ، "لأنه لا يكثر ربطها إلا وهي كثيرة" [4]. وتحتمل أن تكون مصدرا من (رَبَطَ) مثل : صاح صياحا . أو من رَابَطَ الذي يفيد المفاعلة "فكأن ارتباط الخيل واتخاذها يفعله كل واحد لفعل آخر له فترابط المؤمنون بعضهم بعضًا" [5] فإذا ربطَ كلُ واحد منهم فرسا لأجل صاحبه فقد حصل بينهم رباط[6].

---

(١) البيت للنابغة ، انظر: الكامل للمبرد ٣ /٦٧.

(٢) العمدة : ١ /٦٠.

(٣) البحر المحيط : ٢ /١٠٨، الدر المصون : ٢ /٣٥٠.

(٤) المحرر الوجيز: ٢ /٥٤٦.

(٥) السابق: ٢ /٥٤٦.

(٦) البحر المحيط : ٤ / ٥١٢.

– وقوله : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾[المرسلات : ٢٥]

(كفاتا): "جَمْعٌ كافِتٍ ، مثل: صائم وصِيام. وقيل : هو مصدر ، مثل :كِتاب وحِساب . والتقدير : ذات كَفْتٍ ، أي: جَمْع" [١].

٩– اتفاق المصدر واسم المفعول.

عندما يكون الفعل على وزن (فاعَلَ) فإن مصدره يكون على (مُفاعَلَة) وكذلك اسم المفعول إذا كان مؤنثاً .مثل كاتب مُكاتبة ، وخاطب مُخاطَبة ، وقاومَ مقاومة ،فيقال مثلاً : خاطبته مخاطبة فيكون مصدرًا ، ويقال : هي مخاطبة بهذا الخطاب ، فيكون اسمَ مفعول.

وكأن سيبويه لحظ هذا التشابه عندما قال : "وأما فاعَلتُ فإن المصدر منه الذي لا ينكسر أبدًا (مُفاعَلة) .. وذلك قولك: جالسته مُجالسة . وقاعدته مُقاعدة، وشاربته مُشاربة، وجاء كالمفعول لأن المصدر مفعول" [٢].

١٠– اتفاقٌ لَفْظِيٌّ بين المفرد والجمع

يحدث توافق لفظي بين المفرد والجمع في بعض المواضع ، مما يستدعي الرجوع إلى السياق لاستيضاح المعنى المراد ولذلك أمثلة من أبرزها :

أ– مجيء المفرد والجمع على (فِعال)

هناك ألفاظ جاءت للمفرد وللجمع بلفظ واحد ، فقد ذكر سيبويه[٣] أن العرب تقول : درع دلاص[٤] ، وأدرع دلاص ، وناقة هِجان[٥]، ونُوقٌ هِجان ، ويقولون شِمال(الطبع والجبلّة) بلفظ واحد للمفرد وللجمع ، وزاد بعضهم[٦] على ما ذكر سيبويه : (كِناز)[٧] يقال

---

(١) التبيان في إعراب القرآن : ١٢٦٤/٢.

(٢)الكتاب : ٤ /٨٠.

(٣)الكتاب : ٣ /٦٣٩.

(٤) الدِّلاصُ مِنَ الدُّروع: اللَّيِّنَةُ. ودِرعٌ دِلاصٌ: بَرَّاقَةٌ مَلْساءُ لَيِّنَةٌ بَيِّنَةُ الدَّلَصِ .(لسان العرب، دلص ٧ / ٣٧).

(٥) الهِجانُ مِنَ الإبل البيضاءُ الخالصةُ اللونِ، والهِجان: أحسنُ البَيَاضِ وأعتقه في الإبل والرِّجَالِ والنِّسَاءِ. وَيقَالُ: خِيارُ كلِّ شَيْءٍ هِجانُه (لسان العرب: ه ج ن ٤٣١/١٣)

(٦) انظر : شرح الكافية الشافية : ٤ / ١٨٣٦، حاشية البغدادي على شرح الرضي للشافية: ٤ / ١٣٦، لسان العرب (ك ن ز) و (ع ص م) .

(٧)((الكِنازُ: النَّاقَةُ الصُّلْبةُ اللَّحْمِ. وَالْجَمْعُ كُنوز وكِنازٌ.كَالْوَاحِدِ بِاعْتِقَادِ اخْتِلَافِ الْحَرَكَتَيْنِ والألفين)) (لسان العرب: كَ نَ زَ، ٥/ ٤٠٢).

: ناقةٌ كِنازٌ ونُوقٌ كِناز. و(عِصام)[1] يقال : هذا عصام . وهؤلاء عصام . ومذهب سيبويه أن هذه الألفاظ هي مما اتحدت فيه صورة المفرد مع الجمع . وليست مصدراً كقولهم : رجل عدل ، ورجلان عدل ، ورجال عدل. فمن المعلوم أن المصدر إذا وقع صفة استوى فيه المفرد والجمع . فينفي سيبويه ذلك بقوله : "يدلك على أن دلاصاً وهجاناً جمعٌ لدلاصٍ وهجانٍ. وأنه كجوادٍ وجياد وليس كجُنُبٍ، قولهم: هجانان ودلاصان. فالتثنية دليل في هذا النحو"[2].

يقصد أنه لو كان مصدرا لكان بلفظ واحد للمفرد والمثنى والجمع ، فعندما تُني (دلاص ، وهجان) دلّ على أنهما مما تشابهت فيهما صورة المفرد مع الجمع.

ومع اتفاق اللفظ هناك اتفاق في الوزن أيضا . فالمفرد والجمع كلاهما على وزن (فِعال) ، إلا أن التقدير مختلف . فالألف في المفرد هي بمنزلة الألف من كِتاب ، والألف في الجمع هي بمنزلة الألف من كِرام (جمع كريم) (٣). ويعلل ابن جني لجمع العرب (فِعالا) على (فِعال) نفسها بأن العرب عاملت فِعالا معاملة (فَعِيل)؛لأنهما أخوان؛ لكونهما على أربعة أحرف ، والحرف الثالث حرف لين ،مع تعاقبهما على المعنى الواحد مثل: كَلِيب وكِلاب(جمع كلب)، وعَبِيدٍ وعِباد(جمع عبد) . فكما جُمِع (فَعِيل) على (فِعال) مثل : كريم وكرام . ولئيم ولئام . عومل أخوه (فِعال) معاملته فجمع أيضا على (فِعال)، فحدث تشابه بين المفرد والجمع نتيجة لذلك[4].

ومن أمثلة ما يدل السياق على أن المراد الجمع قوله:

أَلَمْ تَعْلَما أنَّ المَلامَةَ نَفْعُها قليلٌ وَمَا لَومِي أَخي مِنْ شِمالِيا

فـ(شِمال) هنا يراد بها الجمع . أي شمائلي المتعددة[د].

ومن إرادة المفرد في هذه الألفاظ السابقة ، قوله :

---

(١) عصامُ القِرْبةِ والدَّلوِ والإداوة: حَبْلٌ تُشدُّ بِهِ ، وكلُّ شيءٍ عُصِمَ بِهِ شيءٌ آخر فهو عصام (لسان العرب : ع ص م ، ٤٠٧/١٢)

(٢)الكتاب : ٣ / ٦٣٩_٦٤٠.

(٣)انظر : الخصائص ٢ / ٩٦، شرح الشافية للرضي : ٢/ ١٣٥.

(٤)الخصائص : ٢/ ٩٦.

(د)المقتضب : ٢/ ٢٠٦.

دِرْعِي دِلاصٌ شَكُّها شَكٌّ عَجَبْ وجَوْبُها القاتِرُ مِنْ سَيْرِ اليَلَبْ[1]

فواضح أنه يريد المفرد، وهكذا كان السياق فيصلا وموضّحا.

ب- مجيء المفرد والجمع على (فُعْل)

من ذلك كلمة (فُلْك) تصلح أن تكون مفردا وتصلح أن تكون جمعا. والسياق هو الذي يكشف ذلك. قال ابن الأنباري: "وأما ما لفظ الجمع مثل لفظ الواحد في الحروف والحركات، فنحو: الفُلْك. فإنه يكون واحدًا، ويكون جمعًا، فأما كونه واحدًا، فنحو قوله تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾[الشعراء: ١١٩] فأراد به الواحد، ولو أراد به الجمع لقال: المشحونة، وأما كونه جمعًا فنحو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾[يونس: ٢٢] وقال تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ [البقرة: ١٦٤] فأراد به الجمع، لقوله: (وجَرَيْنَ) و(التي تَجْرِي)"[2].

ومع هذا التوافق اللفظي هناك اختلاف تقديري، فالضمة في المفرد تقابل الضمة في نحو (قُفْل)، والضمة في الجمع تقابل الضمة في نحو: (كُتُب).

١١- مجيء جمع التكسير بلفظ واحد للمذكر والمؤنث

يجيء جمع التكسير بلفظ واحد للمذكر والمؤنث، وذلك في بابي: (أفعل فعلاء) و(فَعْلان فَعْلى) فمثلا يقال في جمع أحمر وحمراء: حُمْر، ويقال في جمع غضبان وغضبى: غِضاب.

وفي هذا قال ابن السراج في أوزان جمع التكسير: "فَعْلاءُ: قَدْ ذكرنَا في بابِ "أفعل" أنَّها تجيءُ علَى "فُعْلٍ" نحو: حَمْراءَ وحُمْرٍ فالمذكرُ والمؤنثُ فيهِ سواءٌ كما كانَ في جمعِ فَعْلى فَعْلان"[3]

وحينئذ يكون السياق هو الفصل في ذلك. فمما يدل عليه السياق قول الشاعر[4]:

ومَجَالِسٍ بِيضُ الوُجُوهِ أعِزَّةٌ حُمْرُ اللِّثاثِ كَلَامُهُمْ مَعْرُوفُ

---

(١) لسان العرب: ١/ ٨٠٦، واليلب: جُلود يُخْرَزُ بعضُها إلى بَعْضٍ.

(٢) أسرار العربية: ٧٠_٧١.

(٣) الأصول في النحو: ٣/ ٢٥.

(٤) سبيع بن الخطيم التيمي، المفضليات: ٣٧٤

فـ(بـيض) جمـع أبـيض، لأنـه يتحـدث عـن صفات لـذكور، وأمـا (حُمْر) فجمـع لمؤنـث (حمراء)؛ إذ يقال : لِثَة حمراء ولثاث حُمْر.

١٢- الاتفاق في صيغة التصغير.

مـن المعلـوم أن صـيغ التـصغير محـصورة بثلاثـة، وبمـا أنهـا قليلـة فـإن الأسـماء المشتركة في نوعية الحروف تتزاحم على هذه الصيغ وذلك، مثل : حَمَلٍ وحِمْلٍ وحَمْلٍ، تُصَغّر جميعها على حُمَيْل، والسياق هو الذي يبين المراد.

وكذلك دَرَجٌ ودِرْج تُصَغّرانِ على دُرَيج. وغُراب وغريب تُصَغّرانِ على غُرَيِّب، وعِقال وعَقِيل تُصَغّرانِ على عُقَيّل.

وعن هذا الاتفاق في الصيغة التصغيرية والاعتماد على القرائن قال ابن جني : "ألا ترى أنك تقول في تحقير عمرٍو : عُمَير، وكذلك تقول في تحقير عُمَر، وكلاهما مصروف في التحقير، وهذا باب واسع. وإنما يُعتمد في تحديد الغرض فيه بما يصَحب الكلامَ من أوله أو آخره، أو بدلالة الحال، فإن لها في إفادة المعنى تأثيراً كبيرًا" [1].

ويلاحـظ أنـه فـي تـصغير نحـو غُـراب وغَرِيْـب تكـون الـصيغة التـصغيرية واحـدة لكـن هناك اختلاف في العمل، وذلك أنّ هناك ياءين في (غُرَيّب) فإن كان تصغيراً لغراب فإن الياء الثانيـة هي فـي الأصـل ألـف لكـن قلبـت يـاءً لوقوعهـا بعـد يـاء التـصغير الـساكنة وهـو الموضع الثاني من مَوْضِعَيّ قلب الألف ياءً (٢). أما إن كان (غُرَيّب) تصغيرًا لغريب فإن الياء الثانية أصلية وليست منقلبة عن ألف.

١٣- اتفاق لفظ المنسوب والمنسوب إليه.

يحـدث اتفـاق فـي صيغة المنـسوب والمنـسوب إليـه في الاسـم المختـوم بيـاء مـشددة بعـد ثلاثـة أحـرف "كمـا فـي كرسـيّ وبَـرديّ وكـوفيّ. فيجـب حـذفها في النـسب. فيكون المنسوب والمنسوب إليه بلفظ واحد" [3].

---

(١) المنصف : ١/ ٢٥٤.

(٢) انظر : شذا العرف : ١٩٤.

(٣) شرح الشافية للرضي : ٢/ ٥٣.

والتقدير مختلف على الرغم من اتفاق اللفظين، فالياء في المنسوب إليه هي ياء من بنية الكلمة كما هي الياء في (غنيّ) وأما في النسب فإن الياء اللاحقة للاسم هي ياء متجدِّدة للنسب وليست من بنية الكلمة "ولهذا التقدير ثمرةٌ تظهر في نحو: بَخاتيّ وكراسيّ إذا سُميَ بهما مذّكرٌ، ثم نُسِب إليه، فإنه قبل النسب ممنوعٌ من الصرف؛ لوجود صيغة منتهى الجموع؛ نظرًا لما قبل التسمية. فإن الياء من بِنْية الكلمة، وبعد النسب يصير مصروفًا لزوال صيغة الجمع بياء النسب"[1].

* * *

---

(١) شذا العرف: ١٦١.

المبحث الثاني : اتفاق لفظي في الأفعال

١- مجيء الفعل على صورة واحدة من أوزان مختلفة

قد تتحد صورة الفعل رغم أنه من وزنين مختلفين أو أكثر . ومن أمثلة ذلك :

أ- إذا أريد بناء الفعل للمجهول وكان على وزن فَيْعَلَ أو فَوْعَل أو فاعَلَ فصورته واحدة :

وذلك مثل : بَيْطَرَ و باطَرَ. يقال فيهما عند البناء للمجهول :بُوطِر. قال سيبويه : "ألا ترى أنك تقول:بيطرت فتقول: بُوطِرَ فتَمُدّ كما كنت مادّاً لو قلت باطرت. وتقول: صَوْمَعتُ فتجريها مجرى صامعتُ لو تكلمتَ بها "[١]. والمثال الأخير افتراضي ، يقصد سيبويه أن صَوْمَعَ وصامَعَ (على فرضية وجوده) عند بنائهما للمجهول يقال : صُومِع ، بلفظ واحد لكليهما.

ب- اتفاق الصورة اللفظية للفعل الأجوف إذا كان على وزن فَعَّل أو فَوْعَلَ أو فَعْوَل لو بُني – مثلا- من الفعل (قال) على مثال فَعَّل أو فَوْعَلَ أو فَعْوَل فإن اللفظ سيكون واحدا وهو : (قَوَّلَ) . وكذلك لو بني (باع) على الأوزان السابقة فستتحد الصورة اللفظية (بَيَّعَ). ونوضّح سبب هذا التماثل اللفظي بين (فَعّل) والوزنين الآخرين على النحو الآتي :

الفعل	الوزن (فَوْعَلَ)	التغيير	الوزن (فَعْوَل)	التغيير
باع	بَوْيَعَ= بَيّعَ	اجتمعت الواو والياء وكان السابق منهما ساكنا. فقلبت الواو ياءً وأدغمت في الياء. والسابق هنا هو الواو	بَيْوَعَ= بَيّعَ	اجتمعت الواو والياء وكان السابق منهما ساكنا. فقلبت الواو ياءً وأدغمت في الياء. والسابق هنا هو الياء الذي هو عين الكلمة.
قال	قَوْوَلَ=قَوّلَ	اجتمع مثلان أولهما ساكن فأدغم فيما بعده.والواو الأولى هنا هي واو صيغة(فَوعل) ، والواو الثانية هي عين الفعل.	قَوْوَلَ=قَوّلَ	اجتمع مثلان أولهما ساكن فأدغم فيما بعده.والواو الأولى هنا هي عين الفعل. والواو الثانية هي واو صيغة(فَوعل).

---

(١) الكتاب : ٤ /٢٧٢.

ونلحظ أن السبب مختلف هنا، ففي الأجوف اليائي(باع) سبب التوافق هو الإعلال حيث قلبت الواو ياء، أما في الأجوف الواوي (قال) فالسبب يرجع إلى حدوث الإدغام حيث التقى مثلان(الواو) أولهما ساكن فأدغمت الواو في الواو. ويوضّح ابن جني هذا التوافق بقوله: "قال أبو عثمان: وإذا بنيت (فَعْوَل)من البيع قلت: بَيّعَ أيضًا، والأصل بَيْوَع، فقلبت الواو ياء للياء الساكنة التي قبلها، وهي[فَعْوَل] من قلت: قَوّلَ، يستوي لفظها ولفظ (فَوْعَلَ) من البيع والقول.

قال أبو الفتح: "قد تقدم قولنا في اتفاق الألفاظ، واختلاف الأمثلة المجاورة، وسيأتيك أشباه هذا في باقي الكتاب، فإذا ورد فلا تستنكره، فإنه من كلام العرب" [1].

ومثل هذا التوافق يحدث أيضا مع المزيد بالتاء من الأوزان السابقة (تفعّل و تفَوْعَلَ وتفَعْوَل) فيقال: تبيّع وتقوّل بلفظ واحد من الثلاثة.

٢- اتفاق الصورة اللفظية للمضارع عند إسناده للضمائر.

عندما يسند الفعل المضارع للضمائر يكون بلفظ واحد فيما يأتي:

أ- الفعل الناقص المسند إلى ياء المخاطبة أو نون النسوة:

إذا أسند الفعل الناقص المضارع إلى ياء المخاطبة أو نون النسوة فإنه يكون بلفظ واحد في كلتا الحالتين فـ"يستوي لفظ المفردة المؤنثة في الخطاب ولفظ جمع المؤنث السالم في الخطاب.. في كل مضارع مكسور العين أو مفتوحها، نحو: يقضي ويهتدي ويسترضي وينادي ويسعى ويتمطى ويتصابى. تقول للمخاطبة المؤنثة: أنتِ تقضين وتهتدين وتسترضين وتنادين وترضَين وتسعَين وتتمطَين وتتصابَين. وتقول في مخاطبة جمع الإناث: أنتن تقضِين وتهتدين وتسترضين وتنادين وترضَين وتسعَين وتتمطَين وتتصابَين" [2].

ومع اتفاق الصور اللفظية إلا أن التقدير مختلف من عدة أوجه[3]:

---

(١) المنصف: ٢/ ٢٤.

(٢) المغني في تصريف الأفعال: ص: ١٩٤.

(٣) انظر السابق، وجامع الدروس العربية: ١/ ١٦٩.

الأول: أن النون مع جمع الإناث ضمير ويعرب فاعلا . أما مع المفردة فهي حرفٌ علامةٌ للرفع.

الثاني: أن الياء مع جمع الإناث لام الكلمة . ووزن الفعل (تَفْعَلن أوتفْعِلن) . أما مع المفردة فإن لام الكلمة محذوفة ، ووزن الفعل : (تَفْعَين أو تَفْعِين).

الثالث : أن النون مع جمع الإناث ثابتة في كل حال ، بينما تحذف مع المفردة إذا دخل على الفعل ناصب أو جازم.

ب- الفعل الناقص الذي آخره واو المسند إلى واو الجماعة أو نون النسوة:

عند إسناد الفعل المضارع إلى واو الجماعة أو نون النسوة تكون صورته اللفظية واحدة .وذلك إذا كان الفعل معتل الآخر بالواو . مثل : يدعو. وتعفو. فـ"تقول: الرجالُ يعفون،والنساء يعفون. فاللفظ واحد والتقدير مختلف.ففعل الرجال حُذِفت منه اللامُ لسكونها وسكون وواو الضمير بعدها.كما حذفت الياء من يرمون. والنون علامة الرفع. وفعل النساء لم يحذف منه شيء،لأنه مبني"[1].

فالصورة واحدة إلا أن التقدير مختلف من أربعة أوجه[2] :

الأول: أن لام الكلمة محذوفة مع جمع الذكور وذلك للتخلص من التقاء الساكنين، وهي ثابتةٌ مع جمع الإناث.

الثاني : أن النون مع جمع الذكور علامة الرفع. ومع جمع الإناث ضمير وهي فاعل.

الثالث: أن الواو مع جمع الذكور ضمير وهي كلمة مستقلة بذاتها. أما مع جمع الإناث فهي جزء من الكلمة.

الرابع : أن النون مع جمع الذكور تسقط إذا دخل على الفعل ناصب أو جازم . أما مع جمع الإناث فلا تسقط بحال.

٣- اتفاق صورة الماضي والأمر.

تكون صورة الماضي والأمر واحدة فيما يأتي[3] :

---

(١) اللباب في علل البناء والإعراب ٢/ ٢٩.

(٢) حاشية محمد محيي الدين عبد الحميد على أوضح المسالك : ١ / ٧٥.

(٣) ينظر في هذا : جامع الدروس العربية : ١ /١٥٦ وما بعدها ، اللباب من تصريف الأفعال : ٥٥.٦٥، وبحث (احتمال الصورة اللفظية لغير وزن) ص: ١٢ وما بعدها .

١- الفعل الناقص المبدوء بتاء إذا اتصلت به ألف الاثنين أو واو الجماعة أو نون النسوة . مثل : ترضّى وتصابى . يقال مثلاً :هما ترضَّيا على الصحابة . ويا رجلان ترضَّيا على الصحابة .هم ترضوا على الصحابة . ويا رجال ترضَّوا على الصحابة . وهنّ ترضَّين على الصحابة. ويا نساء ترضَّين على الصحابة.

٢-الفعل المضعّف مفتوح العين في المضارع إذا لم يفك إدغامه في الأمر . مثل : عَضّ . غضّ. مَلّ (إذا كان مضارعه يَمَل)[1] . اشتدّ . انقضّ . يصلح كل واحد منها أن يكون فعلا ماضيا أو فعلَ أمر، وذلك أن فعل الأمر المضعّف يجوز في آخره الفتح والكسر وإتباع لامه لفائه. فيقال في الأمر: غُضَّ و غُضِّ وغُضُّ .وفي المفصّل : "وقد حركوا في نحو: رُدّ ولم يَرُدّ بالحركات الثلاث"[2]. وقال صاحب التصريح عن فعل الأمر المضعف : "فإن لم تتصل بالفعل هاء الغائبة أو هاء الغائب أو الساكن ففيه ثلاث لغات، الفتح مطلقًا نحو: ردَّ، وغَضَّ، وفِرَّ.. . والكسر مطلقًا نحو:(رُدِّ، وغُضِّ، وفِرِّ)...والإتباع لحركة الفاء"[3].

وقد رويت هذه الأوجه الثلاثة (٤)في قول جرير :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِن نُمَيْرٍ فَلاَ كَعْبًا بَلَغتَ وَلاَ كِلاَبَا

وعليه فإن التوافق بين الماضي وفعل الأمر يكون في الوجه الأول وهو فتح آخر فعل الأمر دون الوجهين الآخرين. لكن رغم هذا التوافق اللفظي يكون الوزن مختلفا . فمثلاً : (ملّ) إذا كان ماضيا فوزنه (فَعِلَ) وإذا كان فعلَ أمرٍ فوزنه : (افْعَلْ) والأصل : امْلَلْ. ووزن (اشتدّ) ماضيا هو : افتعَلَ . ووزنه فعلَ أمرٍ هو : افتعِل ، الأصل: اشتدِدْ.

---

(١) لأن الأمر يتبع حركة عين مضارعه ، فيقال : (مَلّ يَمَل مَلّ) بمعنى الضجر من الشيء والسأم منه ، وفي كتاب (فتح المتعال على القصيدة المسماة بلامية الأفعال)ص: ٢٠٨ ما نصه : ((وأمّا (مَلَّه) بمعنى ضجر منه فمضارعه (يَمَلّه) بالفتح، لأنّه من باب (فَعِلَ) المكسور)) . وحينئذ يكون هناك اتفاق تام بين لفظ الماضي والأمر ، اما إن كان مضارعه (يمل) بمعنى الأخذ بالمِلَّة ، أو كان مضارعه (يَمُل) بمعنى وضع الشيء في الجمر ، فساعتئذٍ لا يكون هناك توافق لفظي . (ينظر ضبط الفعل المضارع من(مَلّ) : لسان العرب (م ل ل) و بشكل أوضح (المعجم الوسيط (م ل ل) .

(٢) المفصل في صنعة الإعراب: ٤٩٤.

(٣) التصريح على التوضيح : ٢/ ٧٦٤

(٤)المقتضب :١/ ١٨٥.

٣- الفعل الأجوف إذا اتصلت به نون النسوة . مثل : قُلْنَ . بِعْنَ . يصلحان للماضي وللأمر

ووزنهما: فُلْنَ وفِلْنَ للماضي وللأمر معاً . وكذلك ما أشبههما من أفعال ، ويكون التمييز بينهما بالقرائن . فيقال مثلاً : النساء قُلن خيراً . فيكون ماضيًا. ويقال: يا نساء قلن خيرًا. فيكون أمرًا.

٤- الفعل الثلاثي المضعّف الآخر إذا بني للمجهول وكانت عين مضارعه مضمومة . فيحدث توافق بين الماضي والأمر. مثل : خَصّ . شَدّ .مَدّ. رَدّ . فلو جيء بفعل الأمر منها لقيل: خُصَّ . شُدَّ. مُدَّ .رُدَّ ، وكذلك لو بنيت للفعل المبني للمجهول ماضيًا يكون اللفظ واحدا.

وسبب توافق الأمر مع الماضي المبني للمجهول هو أنه "في الأمر تنقل حركة الأول من المثلين إلى الساكن قبله ، فتحذف همزة الوصل . ويسكن أول المثلين ، فيدغمان ، ثم يحرك آخر الفعل بالفتح تخلصًا من التقاء الساكنين. فيقال : رُدَّ وشُدَّ ، فتحتمل الصيغة أن تكون فعلًا مبنيًا للمجهول وأن تكون فعلَ أمرٍ . والسياق والقرائن ونظام الجملة هو الذي يُعَيّن أحدَهما"[1].

ومع اتفاق الصورة اللفظية في الحالين،إلا أن الوزن التصريفي مختلف. فإذا كان الفعل مراداً به الأمر فوزنه (افعَل) بفك التضعيف والأصل :اخصُصْ . اشْدُدْ... وإذا كان الفعل ماضياً مبنيا للمجهول فوزنه(فُعِلَ).

٤- الاتفاق في صورة لفظية واحدة للمبني للمعلوم والمبني للمجهول.

ويكون ذلك في :

أ- الفعل الأجوفَ المتصل بضمير رفع متحرك.مثل : خاف .يقال للمعلوم وللمجهول: خِفتُ وخِفنا . والنساء خِفْنَ . وهذا على اللغة المشهورة . قال ابن جني متحدثاً عن هذا اللبس بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول : "أهل هذه اللغة جَرَوا على ضرب من القياس، ولم يلتفوا إلى الالتباس. وذلك أنهم أخذوا بأصل هذا الباب؛ لأن أصله وأكثر ما جاءت به العرب إخلاص الكسرة، وذلك بِيْع وخِيف.ثم إنهم أسكنوا اللام

---

(١) احتمال الصورة اللفظية لغير وزن : ١٣-١٤.

لاتصالها بالضمير، فالتقى ساكنان: العين، واللام ،فحذفت العين، وبقيت الكسرة في الفاء بحالها، ولم يعبئوا بالالتباس ؛لأنهم قد يصلون إلى إبانة أغراضهم بما يصحبونه الكلامَ مما يتقدّم قبله أو يتأخّر بعده وبما تدل عليه الحال" [1].

ويزيد أبو البقاء العكبري الأمر توضيحا بقوله : "فإن جعلت هذا الفعل [قال وباع] لِما لم يُسمَّ فاعله . واتصلت به تاء الفاعل كان لفظه كلفظ ما سُمّي فاعله . كقولك : بِعتَ يا عبدُ . وخِفتَ يا سلطانُ . بمعنى : باعَك غيرُك، وخافَك سواك" [2].

ونظراً لهذا التوافق وما ينتج عنه من إلباس "ادّعى ابن مالك امتناع ما ألبس من كسر كخِفتُ وبِعتُ أو ضم كعُقتُ . وأصل المسألة (خافني زيدٌ) و (باعني لعمرو) و(عاقني عن كذا) ثم بنيتهن للمفعول . فلو قلت : خِفتُ وبِعتُ –بالكسر – وعُقتُ – بالضم –لتُوُهِّمَ أنهن فِعْلُ وفاعِلُ" [3]. وردّ ابن هشام على ذلك بقوله: "ولم يلتفت سيبويه للإلباس لحصوله في نحو : مُختار ، وتُضار" [4].

والذي أرجحه أن الأمر جائز وسائغ . وقد مضى جملة من الأمثلة التي يحصل فيها لبس في الصورة اللفظية لكن السياق وقرائن الأحول تجلي الأمر . وكذلك وروده في المشترك اللفظي . مثل : عين . للباصرة وللدافقة وللجاسوس.

ب – مضارع (فاعَلَ)مضعف الآخر:

إذا كان مضارع (فاعَلَ) مضعفاً ولم يفك إدغامه (لغة بني تميم) فإن بناءه للمعلوم وللمجهول واحد . مثل : يُضارّ ،يضامّ ونحوهما؛وذلك لأن العين تدغم في اللام وتختفي حركة العين فإن كان للمعلوم فهي كسرة والأصل : يُضارِرُ . ويُضامِمُ. وإن كان للمجهول فهي فتحة والأصل: يُضارَرَ ،ويضامَمُ . وقد ورد هذا الاحتمال في قول الله تعالى:

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾[البقرة : ٢٣٣]

---

(١)المنصف :١/٥٥٢.

(٢) اللباب في علل البناء والإعراب:٢/٣٩٢.

(٣) أوضح المسالك : ٢/١٥٧.

(٤) السابق الصفحة نفسها .

فإن (تضارّ) "تحتمل أن تكون الراء الأولى مفتوحة فيكون الفعل مبنياً للمفعول، وتكون (والدة) مفعولا لما لم يُسمّ فاعله، وحُذف الفاعل للعلم به.. وأن تكون مكسورة فيكون الفعل مبنيا للفاعل. وتكون (والدة) حينئذ فاعلا به"[1].

وعلى أن الفعل مبني للعلوم يكون المفعول به محذوفاً تقديره: لاتضارِر والدةٌ زوجَها بسبب ولدها بما لا يقدر عليه، ويجوز أن يكون تضار بمعنى (تَضرّ) فلا يحتاج إلى مفعول به والتقدير: لا تَضرّ والدةٌ بولدها فتسيء غذاءه[2].

* * *

---

(١) الدر المصون ٢/ ٤٦٨.

(٢) السابق ٢/ ٤٦٨-٤٦٩.

الخاتمة:

اتضح لنا من خلال هذا البحث أن في العربية تماثلا لفظيا بين أبنية صرفية مختلفة . أي أن الصورة اللفظية يشترك فيها أكثر من بناء صرفي . كاشتراك اسم الفاعل واسم المفعول في (مُختار). واشتراك (عمر وعمرو) في صيغة تصغيرية واحدة .وهذه الظاهرة تشير إلى أن قولهم : (الصرف يُعنى بالكلمة مفردة . والنحو يعنى بالكلمة مركبة في سياق) ربما يكون فيه تجوّز؛ لأن السياق والتركيب مهم لبعض الصيغ الصرفية كما ظهر جلياً في هذا البحث.

وهذا التشابه يحدث في الأسماء والأفعال . وإن كان في الأسماء أكثر وأظهر.

ومما توصل له هذا البحث ما يأتي :

- أهمية السياق في بعض الأبنية الصرفية التي تشترك في صيغة واحدة.
- حصول الالتباس في بعض الصيغ وتسامح العرب في ذلك اتكاءً على السياق.
- يحدث اللبس في الصيغ الاسمية أكثر من الصيغة الفعلية كما ظهر جلياً في هذا البحث.

* * *

أهم المصادر والمراجع:

- احتمال الصورة اللفظية لغير وزن. بحث للدكتور : سليمان العايد . مجلة جامعة أم القرى . السنة الثانية. العدد الثالث. ١٤١٠هـ ص: ٩٦-١٤٤.

- أسرار العربية. لأبي البركات عبد الرحمن الأنباري .نشر: دار الأرقم بن أبي الأرقم.الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

- أوضح المسالك لابن هشام . تعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد.المكتبة العصرية -بيروت.

- البحر المحيط لابن حيان.دار إحياء التراث العربي.بيروت.الطبعة الثانية . ١٤١١هـ/١٩٩١م.

- البيان في روائع القرآن. د / تمام حسان. عالم الكتب. القاهرة . الطبعة الأولى . ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

-التبيان في إعراب القرآن.لأبي البقاء العكبري.تحقيق :د / علي محمد البجاوي.نشر : عيسى البابي الحلبي. مصر - القاهرة (بدون تاريخ).

-التبيان في تصريف الأسماء .د / أحمد حسن كحيل . دار أصداء المجتمع . القصيم -بريدة.الطبعة الثامنة. ١٤٢٤هـ.

-التحرير والتنوير . محمد بن عاشور التونسي. الدار التونسية للنشر - تونس. ١٩٨٤هـ.

- التصريح على التوضيح .خالد بن عبد الله الأزهري.دار الكتب العلمية -بيروت.الطبعة الأولى ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.

- التطبيق الصرفي.د / عبده الراجحي .دار النهضة العربية . بيروت. الطبعة الأولى .١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

- تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن.لأبي عبد الله محمد القرطبي. تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش.الناشر : دار الكتب المصرية - القاهرة.الطبعة الثانية . ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .

- توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك.لحسن بن قاسم المرادي.تحقيق :د/ عبد الرحمن علي سليمان . دار الفكر العربي. القاهرة .الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م.

- جامع الدروس العربية . مصطفى الغلاييني .المكتبة العصرية. بيروت. ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

- الخصائص لابن جني .الهيئة المصرية العامة للكتاب.الطبعة الرابعة.

- دراسات لأسلوب القرآن الكريم للدكتور: محمد عبد الخالق عضيمة .دار الحديث. القاهرة.

- الدر المصون للسمين الحلبي.تحقيق: د /أحمد الخراط.دار القلم. دمشق.الطبعة الأولى .١٤٠٦هـ /١٩٨٦م.

- روح المعاني (تفسير الألوسي) لشهاب الدين محمود الألوسي.تحقيق: علي عبد الباري عطية

دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

– شذا العرف في فن الصرف للحملاوي . اعتنى به : د / عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الخامسة. ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

–شرح الأشموني لألفية ابن مالك مع حاشيته للصبان .دار الفكر. بيروت (بدون تاريخ).

–شرح شافية ابن الحاجب لرضي الدين الأستراباذي، تحقيق: محمد نور، محمد الزفزاف،محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

–العمدة في محاسن الشعر وآدابه،لابن رشيق القيرواني ،تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل.

الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

–الكامل في اللغة والأدب،للمبرد. تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم،دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة الثالثة. ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

– الكتاب لسيبويه. تحقيق: عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية .١٤٠٣هـ /١٩٨٣م.

– اللباب في علل البناء والإعراب لأبي البقاء العكبري، الجزء الثاني . تحقيق : د / عبد الإله نبهان . دار الفكر المعاصر . بيروت . الطبعة الأولى . ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.

– اللباب من تصريف الأفعال: : د / محمد عبد الخالق عضيمة .دار الحديث.

– لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت.

– اللغة العربية معناها ومبناها ، د / تمام حسان . دار الثقافة . المغرب – الدار البيضاء . ١٩٩٤م.

– المحرر الوجيز(تفسير ابن عطية). تحقيق: عبد السلام عبد الشافي . دار الكتب العلمية . بيروت الطبعة الأولى. ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

– مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب ، تحقيق: د /حاتم صالح الضامن ،مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

– معاني القراءات للأزهري،مركز البحوث في كلية الآداب – جامعة الملك سعود،الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ – ١٩٩١م.

– المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة،المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر . تركيا– استانبول، الطبعة الثانية . ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

-المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري. تحقيق: د / علي بو ملحم.مكتبة الهلال – بيروت.الطبعة الأولى.١٤١٣هـ / ١٩٩٣.

– المغني في تصريف الأفعال : د / محمد عبد الخالق عضيمة .دار الحديث.

– الممتع في التصريف: لابن عصفور الإشبيلي . تحقيق: د / فخر الدين قباوة . دار المعرفة. بيروت . الطبعة الأولى . ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

– المنصف لابن جني ، تحقيق: إبراهيم مصطفى . وعبد الله أمين .وزارة المعارف العمومية المصرية ، الطبعة الأولى .١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م.

– النحو الوافي . عباس حسن . دار المعارف بمصر. الطبعة الخامسة . ١٩٧٥م.

* * *

الجاحظ وفلسفة المعنى

د.أحمد بن الطيب الودرني
-قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي - كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة

الجاحظ وفلسفة المعنى

د.أحمد بن الطيب الودرني
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي – كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة

ملخص البحث:

"يروم هذا البحث تركيز النّظر على الجاحظ / المتكلّم أكثر من التّركيز على الجاحظ / النّاقد. لذلك انعقدت العناية على لفيف من القضايا الكلاميّة التي تمثّل في نظرنا المهاد الفلسفيّ الّذي تناول في إطاره أبو عثمان مسألة المعنى. إنّ غضّ الطّرف عن مثل تلك القضايا من شأنه أن يحول بيننا وبين الرّؤية الصّحيحة لمسألة المعنى عند العرب القدامى ويروّج في المقابل لشبهة **الفصل** بين اللفظ والمعنى ممّا فهمه بعض القدامى خطأً عن الجاحظ. وتبعهم في ذلك بعض المعاصرين الّذين احتفوا بتلك الشّبهة وأرادوا ترسيخها انطلاقا ممّا تيسّر لهم فهمه من اللّسانيّات الحديثة حول العلامة اللّغويّة. مسقطين ذلك على أطروحة الجاحظ دون مراعاة للسّياق الفلسفيّ والكلاميّ الّذي كان يحضن آراء أبي عثمان."

إنّ اهتمامَنا بالجاحظ / النّاقد كان غالبًا على اهتمامنا بالجاحظ / المتكلّم لذلك نروم في هذا المقام تسليط النّظر على بعض القضايا الكلاميّة التي تمثّل في نظرنا المهاد الفلسفي الذي تناولَ الجاحظ في إطاره مسألة المعنى. إنّ غضّ الطّرف عن مثل تلك القضايا من شأنه أن يحول بيننا وبين الرّؤية الصّحيحة ويوقعَنا في إصدار أحكام مبنيّة على بعض الأقوال المنزوعة عن سياقها كتلك القولة الشّهيرة (المعاني مطروحة في الطّريق...) التي استهلكَها القدماء فولّدوا منها مجازات كرّست مقولة الفصل حتى شاع عن النّقّاد القدامى جميعهم أنّهم يفصلون في تفكيرهم بين المعاني والألفاظ، ووجَد المعاصرون في ذلك السّانحة لإلصاق شُبهة الفصل بين اللّفظ والمعنى بالجاحظ نفسه وبالنّقد القديم بوجه عام. ويرجع سوء الفهم هذا إلى عدم فهم طائفة من القدماء للجاحظ وإلى اتّباع المعاصرين من النّقّاد لهم في سوء الفهم ذاك بسبب بتر مسألة المعنى عند الجاحظ عن امتداداتها الفلسفيّة / الكلاميّة التي لا يمكن أن يُنظَرَ إلى المعنى في ضوئها على أنّه مجرّد مقولة لغويّة تتّصل بجانب المدلول في العلامة اللّغويّة وإنّما يُنظَر إليه في ضوئها على أنّه مقولة فلسفيّة موصولة بقضايا الخلق والإرادة والإنسان...وهي في معظمها إشكاليّات كَونيّة ولكن من وجهة نظر كلاميّة / اعتزاليّة / دينيّة، لذلك سنقف عند إشكاليّتين كبريين تختصران جملةً من المسائل الكلاميّة الفرعيّة هما إشكاليّة الخَلق وإشكاليّة الجوهر والعرَض.

إشكاليّة الخَلق:

ترتبط هذه الإشكاليّة بإشكاليّة القدَر والمتّصلة بأفعال الإنسان أهو خالقُها أم مُجبَرٌ عليها، وهي "من المشاكل الرّئيسيّة الّتي بدأت بها المباحث الكلاميّة في الإسلام"[1] ولكنّ النّصّ القرآنيّ لا يبوح برأيٍ حاسمٍ فمن الآيات ما يؤكّد أنّه لا فاعلَ إلاّ اللّه ومنها ما يُقرّر أنّ الإنسانَ مختار[2]، وقد اختلفت الفِرَق الإسلاميّة بين مُثبِتٍ للجَبريّة وبين مُقرٍّ للاستطاعة بمعنى أنّ للإنسان "قوّةً واستطاعةً بها يفعل ما اختار فعلَه"[3].لكنّ الخلاف

---

١ عبد الرّحمان بدوي: مذاهب الإسلاميّين بيروت / دار العلم للملايين ط٢ ١٩٧٩، ص٩٧

٢ نفسه ص٩٨-٩٩-١٠٠

٣ نفسه ص١٠١

قائم أيضا حول الاستطاعة بين طائفة تقول بأنّ الاستطاعة التي يكون بها الفعل لا تكون إلاّ مع الفعل ولا تتقدّمه البتّة. وهذا رأيُ بعضِ المتكلّمين ومَن وافقهم كالنّجار والأشعريّ... وبين طائفةٍ أخرى تُقرّ بأنّ الاستطاعة التي يكون بها الفعل هي قبْل الفعل موجودة في الإنسان. وهذا قولُ المعتزلة[1]. إنّ هذه الاستطاعة مهما اتّسعَ مداها تظلّ جزءًا موجودًا في الإنسان الكائن المخلوق. معنى ذلك أنّ الاستطاعة ذاتَها مخلوقة وليست خالقة بمعنى أنّ اللّه خَلَقَ الإنسانَ مستطيعًا إلى حدٍّ ما حسَبَ المعتزلة: "لم يزل (=اللّه) أوّلا سابِقًا للمحدَثات. موجودًا قبل المخلوقات"[2] فأسْبقيّة الخالق على مخلوقه لا تعني –عند المعتزلة– نفْي الاستطاعة عنه وإنّما تعني حصْر إرادة الإنسان في حدود الإرادة الإلهيّة المتحكّمة في كلّ شيء فاللّه هو الخالق القديم الواحد الباعث للأشياء من عدَمٍ القادر على خلْق ما يُريد: "وإنّه القديم وحده ولا قديم غيره ولا إله سواه ولا شريك له في مُلْكه ولا وزير له في سلطانه ولا مُعينَ على إنشاء ما أنشأ وخَلْق ما خَلَق. لم يخلق الخلْقَ على مثالٍ سبَق وليس خلْقُ شيءٍ بأهونَ عليه مِن خَلْق شيءٍ آخر ولا بأصْعبَ عليه منه"[3]. وينضوي تحت هذه المظلّة العقائديّة/الدّينيّة كلُّ العرب القدماء مهما تعدّدت أطْيافهم المذهبيّة. فالاختلافات ناشبة تحت هذه المظلّة وليس خارجَها كالاختلاف القائم بينهم حول قضيّة خلْق القرآن. فالكلام عند أهل الاعتزال مخلوق فهو "حرف وصوت كتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه"[4] لذلك اتّفقوا على أنّ القرآنَ "محدَث مخلوق في مَحَلّ"[5] فهو "مخلوق للّه لم يكن ثمّ كان"[6] فالجامع بين كلام الإنسان وكلام اللّه هو الحروف لذلك يذهب كثير من المعتزلة إلى أنّ "كلام الإنسان

---

١ نفسه

٢ أبو الحسَن الأشعريّ: كتاب مقالات الإسلاميّين واختلاف المصلّين. تصحيح هلموت ريتر–قيسباداان/دار فرانز شتايز ط٣ ١٩٨٠ ص١٥٦

٣ نفسه

٤ أبو الفتح الشهرستاني: الملل والنّحل. بيروت/مؤسّسة ناصر للثّقافة ط١ ١٩٨١ ص٢١

٥ نفسه

٦ أبو الحسَن الأشعريّ: كتاب مقالات الإسلاميّين واختلاف المصلّين ص٥٨٢

حروف وكذلك كلام الله"[1] على أساس أنّ "الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى"[2]. فهل يخلق الإنسان كلامه في نطاق ما له من استطاعة أم أنّ إرادته أضعف من أن تحقّق له ذلك المطمح؟

ترتبط القضيّة بقضيّة أخرى هي مدى قدرة الإنسان على خَلْق أفعال نفسه وهل الأفعال المتولّدة من فعل الإنسان تُنْسَب إليه؟ فإذا رمى الإنسان حجَرًا في الماء فتولّدتْ منه دوائر. هل تُنْسَب إليه صناعةُ تلك الدّوائر؟ وإذا أشعلَ عودًا فأحْرقَ البيت، وتولّد عن الإحراق موتُ أشخاصٍ. هل يُنْسَبُ ذلك إليه؟[3]. لقد كان ثمامةُ بن الأشرس (ت ٢١٣هـ)- وهو من أعلام المعتزلة- يرى أنّ "الأفعال المتولّدة لا فاعلَ لها إذ لم يمكنْه إضافتُها إلى فاعلِ أسبابها حتى يلزمه أن يضيفَ الفعل إلى ميّتٍ. مثل ما إذا فعلَ السّبب ومات ووجد المتولّد بعده ولم يمكنْه إضافتَها إلى اللّه تعالى لأنّه يؤدّي إلى فعلِ القبيح وذلك محال. فتحيّر فيه وقال المتولّدات أفعال لا فاعل لها"[4]. إنّ الإنسان عندما يتكلّم يتولّد عن كلامه معانٍ ليس هو خالقَها وإن كان متسبّبًا في خلْقِها. ويبدو أنّ الجاحظ استساغ مقولة (المتولّدات) التي نادى بها ثُمامة ممّا أدّاه إلى القول "بأنّ المعارفَ ليستْ من فعل الإنسان لأنّها متولّدة إمّا من اتّجاه الحواسّ أو من اتّجاه النّظر. ولذلك قال إنّ الإنسان في تحْصيل معارفه ليس له إلاّ توجيه الإرادة. وما يحدث بعد ذلك فاضطرار وطبيعة"[5]. فهو إذن يوجّه إرادته نحو الكلام بأسماء تُفضي إلى الكشْف عن معانٍ اضطراريّة ليست هي من خلْقه أي ليست كَسْبيّة. فحسْبُه أن يكتشفَ منها ما يستطيع فكرُه اكتشافَه: "فإذا أنتَ فتحْتَ عينَك فأدركْتَ أنّ هذا الشيء أحمر. وهذا أصفر. وأنّ هذا أكبر من ذاك. ففتْحُكَ لعيْنكَ عمل إراديّ اختياريّ كسْبيّ، وأمّا المعارف الّتي تحصل منه. أو بعبارة أخرى تتولّد منه. فاضطراريّة. وكذلك الشّأن في توجيه الفكر إلى البحث واستعراض البرهان. فتوجيه النّظر عمل إراديّ. ولكن اقتناع النّاظر أو عدم اقتناعه وتحْصيل العلْم به عمل

---

[1] نفسه ص ٦٠٤

[2] نفسه

[3] أحمد أمين: ضحى الإسلام بيروت /دار الكتاب العربيّ ط ١٠ (دت) ج٣ ص١٣٢

[4] أبو الفتح الشهرستاني: الملل والنّحل ص٣١

[5] أحمد أمين: ضحى الإسلام ج٣ ص١٣٢-١٣٣

ضروريّ أو اضطراريّ لا كسْبي"[1]. إنّها فلسفة إدراك الظّواهر والأشياء تتّضح في ظلّها نظريّة الجاحظ في المعرفة والقائمة على القول بالمعارف الضّروريّة لا الكَسْبيّة، بذلك تنكشف حدود إرادة الإنسان في خَلْق أفعاله ومن بينها خلْق المعنى. فالإنسان لا يخلق المعنى بمجرّد استعمال اللّفظ وإنّما تتّجه إرادتُه في استعمال اللّفظ نحو اكتشاف معانٍ ضروريّة وطبيعيّة يسْبحُ فيها الكون. إنّ الإنسان مكتشِفٌ للمعاني وليس صانعًا لها، ويلخِّص الشهرستاني نظريّة الجاحظ هذه بقوله: "إنّ المعارف كلّها ضروريّة طباع. وليس شيء من ذلك من أفعال العباد. وليس للعبْد كسْبٌ سوى الإرادة. وتحصل أفعالُه منه طباعًا كما قال ثُمامة"[2].

هكذا يتّضح أنّ تعمّقَ نظريّة المعرفة عند الجاحظ –وقد اشتهر بها أكثرَ من غيرها[3]– هي السّبيل القويم إلى إحْكام فهْم قضيّة العلاقة بين الألفاظ الموجّهة من إرادة الإنسان وبين المعاني الّتي تحصل للإنسان ضمن ما يحصل له من معارف طبيعيّة لأنّ الإنسان خُلِقَ مهيّأً لتحصيل تلك المعاني والمعارف مثلما خُلِقَ مهيّأً لالتقام الثّدي والإحساس بالألم أو الفرح: "فإذا نما عقله طبيعيّا نمت معارفه طبيعيّة. فبدأ يدرك أنّ الكلّ أكبر من الجزء وأنّ الجسْم الواحد لا يكون في مكانيْن. وهو بطبْعه يتطلّب الفكر والنّظر. وهو بطبْعه يقبل ما صحّ لديه من برهان ويرفض ما لم يصحّ عنده"[4] فمساحةُ إدراك المعاني شاسعة مبسوطة أمّا الألفاظ فهي أداة توجِّهها إرادة الإنسان نحو اقتحام تلك المساحة لاكتشاف بعضٍ من أنحائها أو زواياها.

مثلما أنارتْ لنا نظريّة المعرفة عند الجاحظ دروبًا في فلسفة المعنى في صلتها بقضيّتيْ الخلْق والإرادة. فإنّ إشكاليّة الجوهر والعَرَض من شأنها أنْ تسلِّط لنا هي

---

١ نفسه

٢ أبو الفتح الشهرستاني: الملل والنِّحل ص٣١–٣٢

٣ أحمد أبو زيد: المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن. الرّباط /مكتبة المعارف للنّشر والتّوزيع ط١ ١٩٨٦ ص٧٩ . نبّه الباحث إلى أهميّة نظريّة المعرفة عند الجاحظ وساق كلام بعض القدماء عليها لكنّه مرّ عليها مرور الكرام ولم يبحثْ في انعكاساتها على فلسفة المعنى عند الجاحظ والمعتزلة.

٤ أحمد أمين: ضحى الإسلام ج٣ ص١٣٣

الأخرى الضّوء على تلك الفلسفة التي آلينا على أنفسنا أن نوثّق صلتها بالتّربة الكلاميّة التي نشأت فيها.

إشكاليّة الجوهر والعَرَض:

أشار حمّادي صمّود إلى هذه الإشكاليّة من خلال قوله في معرض كلامه على مطابقة الصّورة للموجود: "...لأنّ التّعقّلَ تحويلٌ واشتقاقٌ وفي المشتقّ نحتفظ بالأصول والجواهر ونهمل الأعراض"[1]، لكنّها إشارة خاطفة كُنّا نتوقّع من صاحبها أن يتوقّف عندها ولم يفعل، وذلك لما لتلك الإشكاليّة من دور فعّال في كشف تصوّر العرب القدماء-من خلال المعتزلة- للعالَم والإنسان الّذي يتفاعل بعقله وإرادته مع ظواهر هذا العالَم. وليس مِن الغرابة في شيء أن يتطابقَ معنى (الجوهر) في اللّغة: "وجوهرُ كلِّ شيءٍ ما خُلقت عليه جِبِلّته"[2] ورأي الجاحظ الّذي قال "بإثبات الطّبائع للأجسام كما قال الطّبيعيّون من الفلاسفة، وأثبتَ لها أفعالاً مخصوصةً بها، وقال باستحالة عدَم الجواهر، فالأعراض تتبدّل والجواهر لا يجوز أن تفنى"[3]؛ فالثّلاثيّة المركزيّة إذن هي الجسم/الجوهر/العرَض ممّا هو موصول بالطّبيعيّات الّتي لم يخضْ فيها المتكلّمون- الجاحظ وغيره- "بقصد التّفلسف أو النّظر العقليّ المجرّد بُغيةَ الوصول إلى تفسيرٍ طبيعيّ للكون على غرار ما يفعله الفلاسفة. وإنّما كان خوضهم في الطّبيعيّات لغرضٍ دينيّ. وهو إثبات أنّ كلّ ما في العالَم من الجواهر والأجسام والأعراض محدَث مخلوق ومِن ثَمّ فلا بُدّ من مُحْدِثٍ أي من خالقٍ هو اللّه تعالى فيكون هذا دليلا على وجود اللّه معتمدا على العقل بجانب الأدلّة المعتمدة على النّقل في إثبات الخَلْق والخالق"[4] عِلْمًا أنّ

---

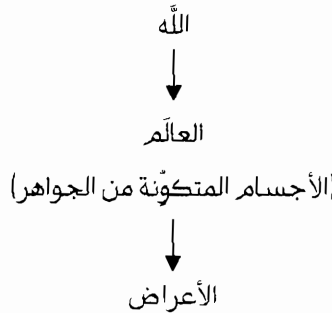
١ حمّادي صمّود: نظريّة المعنى في التّراث العربيّ وأثرها في فهم وظيفة الصّورة ضمن كتاب "في نظريّة الأدب عند العرب" المملكة العربيّة السّعوديّة/النّادي الأدبيّ الثّقافيّ بجدّة ط١ ١٩٩٠ ص٢٢

٢ ابن منظور: لسان العرب.تصحيح أمين محمّد عبد الوهّاب ومحمد الصّادق العبيدي بيروت/دار إحياء التراث العربي ط٢ ١٩٩٧ ج٢ ص٣٦٩

٣ أبو الفتح الشهرستاني: الملل والنّحل ص٣٢

٤ محمّد صالح محمد السيّد: مدخل إلى عِلم الكلام. القاهرة/دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع ٢٠٠١ ص٢٧٩

ما يعنينا من مسألة الخالق والمخلوق هو التّصوّر في حدّ ذاته: تصوّر العالَم وطريقة الإنسان في إدراك ظواهره وما وراء ظواهره ممّا يمكن تحصيله باللّفظ وبغير اللّفظ:



فاللّه خلَق العالَم في شكل أجسامٍ تتكوّن من جواهر تتجلّى من خلال أعراضٍ هي صفاتٌ لها: "ومِن ثَمّ فإنّ العالَم مكوّن من أجسامٍ وأعراضٍ تلحقها"[1]. إنّ الجاحظ إذ يقول باستحالة عدم الجواهر فإنّما يُثبتُ قيامَ الجواهر وثباتَها باعتبارها موصولةً بما دعاه ابن منظور (جِبِلّة) ليؤكّد في المقابل تبدُّل الأعراض وتحوّلَها. فالجوهر ثابت والعرَض متحوّل. أمّا الأجسام فتحصل عند المتكلّمين من الجواهر الفردة الّتي يُعتبَر أبو الهذيل العلاّف (ت ٢٢٦ هـ؟) المعتزليّ المعروف أوّلَ مَن بسطَ القول فيها في تاريخ علم الكلام الإسلامي[2]. إنّ الجوهر الفرد هو الواحد الّذي لا ينقسم أي الجزء الّذي لا يتجزّأ الّذي تتكوّن منه الأجسام. ويُجمع المعتزلة بصريّون وبغداديّون[3] على أنّ أقلّ الأجسام جُزءان[4]. ولكنّ العالَم مليء بالأجسام والأشياء والجواهر والأعراض المعدومة في حُكم الموجودة: "ولم يزل اللّه يعلم أشياء وجواهر وأعراضا لم تكن ولا تكون"[5]، فما هو قابلٌ للإدراك في العالَم معدومُه أكثر مِن معلومِه وما لمْ يَعلَم مِن هذا المعلوم أكثرُ بكثيرٍ ممّا عُلِمَ. هذا فضلا عن اختباء كثير من الأشياء ومعانيها في النّفس "مستورةً

---

١ نفسه ص٢٨٢

٢ نفسه وراجع حول أبي الهذيل العلاّف: عبد الرّحمان بدوي: مذاهب الإسلاميّين ص١٢١ وما بعدها

٣ عبد الرّحمان بدوي: مذاهب الإسلاميّين ص٤٥-٤٦

٤ محمّد صالح محمد السيّد: مدخل إلى عِلْم الكلام ص٢٨٧

٥ الأشعري: مقالات الإسلاميّين ص١٦٢

خفيّةً وبعيدةً وحشيّةً ومحجوبةً مكنونةً وموجودةً في معنى معدومة"[1]. هكذا تزول الحدود بين (الموجود) و(المعدوم) فتصبح هناك موجودات في حُكْم معدومات ومعدومات في حُكْم موجودات ممّا يعني أنّ عِلْمَ اللّه واسع يحتوي ما قبلَ كينونة الأجسام وما بعدها: "لم يزل اللّه يعلم أجْساماً لم تكن ولا تكون"[2]. وفي المقابل يظهر الإنسان مقْصورَ العلم على الأعراض الحادثة /الظّاهرة التي تتبدّل. إنّ الأعراضَ "تدلّ على حدوث الجسم"[3] فهي فانية خلافا للجواهر التي لا يجوز أن تفنى كما أكّد الجاحظ. وتشمل الأعراض عند المتكلّمين "الحركة والسّكون، القيام والقعود. والاجتماع والافتراق والطّول والعَرْض والألوان والعلوم والأرايج والأصوات والكلام والسّكون والطّاعة والمعصية والكفر والإيمان وسائر أفعال الإنسان والبرودة والرّطوبة واليبوسة واللّين والخشونة"[4]. فالكلامُ إذن من الأعراض: "كلامُ الخلْق عرَض وهو حركة لأنّه لا عرَضَ عندهم إلاّ الحركة"[5]. ولكنّ هذا العرَض يظلّ صفةً للجسْم الّذي هو "صوتٌ مقطّعٌ مؤلّفٌ مسموعٌ"[6]. إنّ ذلك الجسْم هو عبارة عن حروف وألفاظ مؤلّفة تشكّل نقطةَ عبور باتِّجاه المعاني التي هي صُوَر للأشياء. لكنْ من هذه الأشياء والمعاني ما هو كامن لا يطاله اللّفظ ولا الوسْم: ككمون الزّبد في اللّبن وكالدّهن في السّمسم على حدّ عبارة الجاحظ. فللكمون صُوَر متعدِّدة لخّصَها محمّد صالح محمّد السيّد في أربع: كمون الاختناق "مثل كمون الدّهن في السّمسم والزّيت في الزّيتون والدّم في الإنسان والعصير في العنب. وهو كمون طبيعي" وكمون العناصر المتضادّة "وهو كمون عناصر متضادّة في الجسْم الواحد. مثل كمون النّار والهواء والماء والتّراب في عود الحطب مثلا" وكمون ماهو بالقوّة "مثل كمون النّخلة في النّواة" وكمون الذر "أي وجود ذرّية آدم في صلبه على

---

١ الجاحظ: البيان والتّبيين تحقيق عبد السّلام محمّد هارون بيروت دار الجيل (دت) ج١ ص٧٥

٢ الأشعري: مقالات الإسلاميّين ص١٦٣

٣ نفسه ص٢٢٧

٤ محمّد صالح محمد السيّد: مدخل إلى عِلْم الكلام ص ٢٩٦

٥ الأشعري: مقالات الإسلاميّين ص١٩١

٦ نفسه

هيئة الذر"[1]. هكذا يتشكّل مفهوم الكمون عند المتكلّمين فلسفةً موصولةً بقضيّة حدوث العالم وهيئات الموجودات. وهي فلسفةٌ ترسلُ ضوءًا ساطعًا على إشكاليّة الإدراك بقطع النَّظر عن الرّؤية التي يتميّز بها المسلمون في فهم ذلك الحدوث وتَوصيفِه. ليست الأجسام في العالَم إذن متجلّيةً على الدّوام فمنها المحجوبُ/المكنون الموجود في معنى المعدوم. هي كُتَلٌ مِن المدرَكات تأتلف جواهرَ ضمن أجسام تتشكّل من خلال الأعراض/الصِّفات لتنعكسَ في الذّهن وتنزلَ في القلْب وتغوص في النَّفس. لذلك يسعى الإنسان ما أمكنَه إلى الإفضاء بها أو ببعضها إلى غيره. كما يسعى هذا الغير إلى فهْمها ما استطاعَ إلى ذلك سبيلاً. ولعلَّ وقفةً متأنِّيةً عند كلام الجاحظ هي السَّبيلَ القويم إلى كشْف أبعاد فلسفة الكمون الكلاميّة في علاقتها بقضيّة الإدراك ونظريّة المعنى بوجهٍ عامّ:

النّصّ: يقول الجاحظ:

"قال بعض جهابذة الألفاظ ونُقّاد المعاني: المعاني القائمة في صدور النّاس المتصوَّرة في أذهانهم، والمتخلّجة في نفوسهم، والمتَّصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكَرهم، مستورة خفيَّة، وبعيدة وحشيّة، ومحْجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضميرَ صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلاّ بغيره. وإنّما يَحيى تلك المعانيَ ذكرْهم لها، وإخْبارُهم عنها واستعمالُهم إيَّاها. وهذه الخصال هي التي تقرّبها من الفهم وتجلّيها للعقل وتجعل الخفيَّ منها ظاهرًا والغائبَ شاهدًا والبعيدَ قريبًا. وهي الّتي تلخّص الملتبس وتحلّ المنعقد وتجعل المهمل مقيّدًا والمقيَّد مطلَقًا والمجهولَ معروفًا والوحشيَّ مألوفًا والغُفْلَ موسومًا والموسومَ معْلومًا. وعلى قدْر وضوح الدَّلالة وصواب الإشارة وحُسْن الاختصار ودقّة المدخل، يكون إظهار المعنى. وكلّما كانت الدَّلالةُ أوْضح وأفْصَحَ، وكانت الإشارةُ أبْينَ وأنورَ، كان أنفعَ وأنْجعَ. والدّلالة الظَّاهرة على

---

١ محمّد صالح محمد السّيّد: مدخل إلى علم الكلام ص٣٠٨

المعنى الخفيّ هو البيانُ الّذي سمعتَ اللّه عزَّ وجلَّ يمدحُه ويدعو إليه ويحثّ عليه. بذلك نطقَ القرآن. وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصنافُ العجَم"[1].

لقد ميّزَ العرب القدماء بين الوجود الأوّل الّذي تمثّله (الأشياء) والوجود الثّاني الّذي تمثّله (المعاني) والوجود الثّالث الّذي تمثّله (الألفاظ) والوجود الرّابع الّذي تمثّله (الكتابة) أو (الرّسْم)[2] ممّا يعني أنّ هناك وسائط متعدّدة تفصل بين الشيء ومعناه.فالمعنى صورة عن الشيء واللّفظ صورة عن المعنى والرّسْم صورة عن اللّفظ. إنّ التّوصيفَ يبدأ في نصّ الجاحظ من الوجود الثاني للأشياء باتّجاه تحقيق البيان: من المعاني باعتبارها صُوَرًا للأشياء في الأذهان أي في صلتها بالذّات المدْركة التي تسخّر من الوسائل ما به يُتاح لها إظهار ما يمكن إظهارُه من المُدرَكات. لذلك اعتبَر الجاحظ المعاني التي تظلّ قيْد (الأذهان) أو (الصّدور) أو (النّفوس) أو (الخواطر) أو (الفكَر) "موجودةً في معنى معدومة" ما لمْ يقعْ بَعثُها بكافّة أشكال الوَسْم الّذي يحوّلها إلى موجودة. إنّه وجود يتشكّل وفقَ مقاييس ألمَّ الجاحظ بمعظمها لينتهي في الآخر إلى الكلام على البيان تعْريفًا ومنزلةً في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة.

إنّ بنية النّصّ بنيةٌ ثلاثيّة:

- □ المعاني في حُكم المعدومة: "قال بعضُ... ← إلاّ بغيره..."
- □ المعاني موجودةٌ: "وإنّما يُحيي...←والموْسوم معْلومًا."
- □ تحقّق البيان وفضْله: "وعلى قدْر وضوح الدَّلالة← أصْنافُ العَجَم"

١) المعاني في حُكْم المعدومة:

*فضاء المعاني: الصّدور/الأذهان/النّفوس/الخواطر. يتعلّق الأمر إذن بفضاءات معظمها مجرّد وكلّها مغلَق:

---

١ الجاحظ: البيان والتّبيين ج١ ص٧٥

٢ حمّادي صمّود: نظريّة المعنى في التراث العربيّ وأثرها في فهم وظيفة الصّورة ص٢٦ وما بعدها

الصّدر	"والصّدرُ واحد الصّدور وهو مذكّر (...). وقوله عزّ وجلّ « ولكن تعمى القلوبُ الّتي في الصّدور» (الحجّ/٤٦) والقلبُ لا يكون إلاّ في الصّدر انّما جَرى هذا على التّوكيد"[1]
الذّهن	"الذّهن الفَهْمُ والعقلُ. والذّهن أيضا: حِفظُ القلْبِ وجمْعهما أذهان(...) الجوهري: الذّهَن مثل الذِّهْن وهو الفطنة والحفظ"[2]
النّفس	"النّفسُ الرّوحُ (...) النّفسُ (...) الغَيْبُ (...) لأنّ النّفسَ لمّا كانت غائبة أُوقِعَتْ على الغَيْب (...) لكلِّ إنسانٍ نفسان: إحداهما نفْسُ العَقل الّذي يكون به التّمييز والأخرى نفْس الرّوح الّذي به الحياة"[3]
الخاطر	"الخَاطِرُ ما يَخْطُر في القلْبِ مِن تدْبيرٍ أو أمرٍ. ابن سيده: الخاطر الهاجسُ. والجمع الخواطر وقد خَطَرَ بباله(...) خُطوراً إذا ذكرَه بعد نسيانٍ"[4]

نلاحظ في البدْء أنّ الفضاءات الّتي اعتبرَها الجاحظ مواطنَ للمعاني تتوزّع على صعيدي المحسوس والمجرّد:

◄ على الصّعيد المحسوس: ويتجلّى هذا الصّعيد من خلال عبارة الجاحظ: "المعاني القائمة في صدور النّاس" والصّدور جمْع (صَدْر) وهو العضو الّذي يضمُّ (القَلْب) في معناه الجسَديّ أي باعتباره "مُضْغَةٌ من الفؤاد معَلّقةٌ بالنِّياط"[5]. والصَّدْرُ عند العرب فضاءٌ يضيق ويتّسع:

- "وضَائقٌ بهِ صدرُكَ". هود/١٢
- "يَضيقُ صدرُكَ". الحجر/٩٧
- "ومَنْ يُرِدْ أنْ يُضِلَّهُ يجعل صدرَه ضيِّقًا حَرجًا". الأنعام/١٢٥

---

١ ابن منظور: لسان العرب ج٧ ص ٢٩٩

٢ نفسه ج٥ ص٦٨

٣ نفسه ج١٤ ٢٣٣-٢٣٤

٤ نفسه ج٤ ص١٣٦

٥ نفسه ج١١ ص٢٧١

- "ويَضيقُ صدري". الشّعراء/ ١٣

- "ألمْ نشرحْ لكَ صدْركَ". الشّرح/ ٠١

فبالإضافةِ إلى متصوّر (المساحة) الّتي تتقلّص أو تنفسح يوجَد متصوّر (الخفاء) فالصّدرُ يرتبط بمعنى الإضمار بخلاف اللّسان الموصول بمعنى الإظهار. وقد وضّح ذلك الزّمخشري عندما عرضَ لقوله تعالى: "...إنّ اللّهَ عليمٌ بذاتِ الصّدور" (آل عمران/ ١١٩) فقال: "...قلْ لهم يا محمّدُ ولا تتعجّب مِنْ إطلاعي إيّاكَ على ما يُسِرّونَ فإنّي أعلمُ ما هو أخفى مِن ذلك وهو ما أضمروه في صدورهمْ ولمْ يُظهروه بألسِنتِهم"[١].

◄ على الصّعيد المجرّد: وقد أشار الجاحظ إلى ذلك بـ (الذّهن) و(النّفس) و(الخاطِر). والقاسِم المشترَك بينها جميعًا (العَقْل): مَلَكة الفهْم والتّمييز. ويعبِّر العرب عن هذه المَلَكة أيضا بـ(القلْب)لا بالمعنى العضويّ وإنّما بمعنى (العَقل): "قال الفرّاء في قوله تعالى: "إنّ في ذلك لَذكْرَى لِمَنْ كانَ له قلْبٌ" (ق/ ٣٧) أي عقلٌ"[٢]. فالقلب هو إذنْ أداةُ الوعْي والفهْم والتّدبّر.

إنّ المعاني خفيّةٌ ما لمْ تفْضِ بها الذّاتُ المدْركة لذلك تظلُّ قيدَ صدورِ النّاس متمنّعةً عن الوجود العينيّ. لقد أطلقَ الجاحظ -في إطار قول المعتزلة بالكمون في مقابل الحدوث[٣]- وابلاً من الصّفات في قوالب اسميّة متتابعة (مستورة، خفيّة، بعيدة، وحشيّة، محجوبة، مكْنونة، معدومة) ليؤكّد أنّ المعانيَ لا يمكن إدراكُها مادامتْ خارجَ سيطرة اللّسان والبيان. وهذان يقتضيان ضرورةَ الاجتماع الإنسانيّ وقد تجلّى ذلك في النّصّ من خلال تواتر قرائن النّفي المندرجة ضمن بنية الحصْر (لا يعرف...ولا حاجة...ولا معنى...إلاّ بغيْره) فهناك إذن تراهن بين التّواصل -لغويًا كان أم غير لغويّ- والجانب الاجتماعيّ[٤]. هكذا تتجاوز الذّات المدركة دائرة إضمار المعاني في

---

١ الزّمخشري: الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل. تحقيق مصطفى حسن أحمد. دار الكتاب العربي ١٩٤٧ ج١ ص٤٠٧

٢ ابن منظور: لسان العرب ج١١ ص٢٧١

٣ محمّد صالح محمّد السّيد: مدخل إلى علم الكلام ص٣٠٨

٤ André Martinet: Eléments de linguistique générale .Librairie Armand Colin, Paris ١٩٨٠ p٨-٩ "On est tenté, dans ces conditions, de placer le langage parmi les institutions humaines" qui "résultent de la vie en société; c'est bien le cas du langage qui se conçoit comme un instrument de communication"

الصّدر إلى دائرة إظهارها بوسائط سيتكلّم الجاحظ عليها، ولكنّه يكتفي في هذا المستوى بالتّنبيه إلى أهمّيّة التّواصل[1] في تبادل المعاني بين الإنسان و(غيْره) الّذي عبّر عنه بـ(الصّاحب) و(الأخ والخليط) و(الشّريك والمعاون)، وتلك المعاني هي (الحاجات) بتعبير الجاحظ: حاجات النّفس وحاجات الغيْر[2].

*حدوث المعاني: وقد عبّر عنه الجاحظ بقوله: "...والحادِثة عن فِكَرِهم" فالمعنى إذن هو وليدُ الفكْرة أي الفِكر: "والفِكْرَةُ كالفِكْر" وهو "إعْمالُ الخاطر في الشّيء"[3]. وقد رأينا فيما مرّ أنّ (الخاطر) هو ما يخطر في القلْب/العقْل من تدبير أو أمر ممّا يعني أنّ الفكرة هي إعمالُ العقْل في الشّيء فتكون النّتيجة حدوث المعنى. فالجاحظ يوصّف عمليّة الإدراك بدْءًا بتسليط العقْل أو القلب بتعبير القدماء على الظّواهر/الأشياء ووصولا إلى المعاني الحاصلة عن تلك الأشياء في الأذهان. والعمليّة كلّها تقع في نطاق الفِكْر لا علاقة لها إلى حدّ الآن بقضيّة التّعبير. هكذا يتّجه الجاحظ من العامّ (وصْف وضعيّة المعاني وهي قائمة في صدور النّاس) إلى الخاصّ من خلال التّركيز على (وصْف حدوث المعاني) عبْر التّفاعل الحاصل بين الذّات العاقلة والعالَم بأجسامه وجواهره وأعراضه بتعبير فلاسفة الاعتزال. يطرحُ الجاحظ إذن قضيّة الفكْر قبل اللّغة أو الفكْر بلا لغة la pensée sans langage[4]. إنّ الجاحظ يهتمّ في هذا الصّدد بالمعنى معقْولاً intelligible دون أن يكون بالضّرورة مقُولاً verbalisé.

---

[1] راجع حول مفهوم (التّواصل) communication:

Georges Mounin: Linguistique et philosophie. Ed PUF ١٩٧٥ p١٥-١٦

[2] -"...la pression de besoins divers..." (André Martinet: Eléments de linguistique générale p٩)

-"...si toute langue se modifie au cours du temps, c'est essentiellement pour s'adapter de la façon la plus économique à la satisfaction des besoins de communication de la communauté qui la parle."(Ibid)

-"...le rythme de son adaptation aux besoins changeants de la communauté" (Georges Mounin: Linguistique et philosophie p١٦-١٧)

[3] ابن منظور: لسان العرب ج١٠ ٣٠٧

[4] Georges Mounin: Linguistique et philosophie p١٢٩-→p١٣٢

إنّ كلام أبي عثمان على المعاني الخفيّة /الموجودة في معنى معدومة لَيدلّ على إدراكه الدّقيق، وهو الفيلسوف /المتكلّم، لملابسات تبلور المعاني بدءًا بالتقاطها من أجسام العالَم وأعراضه إلى حصولها في الأذهان وبقائها خارج نطاق التّعبير إلى أن تخرجَ عن صدور أصحابها ليُفضوا بها إلى غيرهم، بذلك تنتقل المعاني من العدم إلى الوجود ومن الفرد إلى الجماعة، وهو ما يمثّل مدار القسم الثّاني من النّصّ.

٢) المعاني موجودة:

يبدأ مع الفعل "يُحْيي" الانتقال إلى الكلام على المعاني /الحيّة، وتتجسّم حياة المعاني عند الجاحظ من خلال ثلاثة مصادر ساقَها: (الذِّكر /الإخْبار /الاستعمال)

يظلّ الفهم اللّساني لهذه القضيّة في تقديرنا قاصراً ولا يقود إلى نتائج تذكَر لذلك فإنّ كلامًا من قبيل: "إنّ الفكر ليس مادّةً يمكن أن تعِدَّ لها اللّغة شكلاً بما أنّه لا يمكن بأيّة حال أن يتصوّر هذا "الشّكل" بمعزلٍ عن "مضمونه" ولا أن يكون "المضمون" مستقلاً عن "شكله"" (Emile Benveniste: Problèmes de linguistique générale.Ed Gallimard, Paris ١٩٦٦ p٦٤) لم يعدْ يفيد في معالجة قضيّة المعنى باعتباره فلسفةً. لقد نتجَ عن تغييب البُعد الفلسفي للمعنى إلصاق بعض الدّارسين –من ذوي المرجعيّات اللّسانيّة الوصفيّة تحديدا– شُبْهة فصْل القدماء بين اللّفظ والمعنى ومن بينهم الجاحظ، وغاب عنهم أنّ قضيّة (الفكر بمعزل عن اللّغة) قضيّة باتتْ مطروحة بحدّة في مجال علم النّفس التّجريبيّ الّذي بيّن أنّه لدى حديثي السّنّ من الصّمّ البُكم الّذين لم يتعلّموا بعدُ أبنيةً من الأشكال العمليّة des schèmes opératoires الّتي تكشف عن تحليلات للحقيقة وعن قوالب مستبطَنة ثابتة للسّلوكات القائمة انطلاقا من هذه التّحليلات المرتبطة بالذّهن وبالفكر الّذي لم يُصبحْ بعد موضوعاً non encore objectivé ولا محفوظًا بواسطة أداة قوليّة لسانيّة أو بواسطة شكلٍ آخر من العلامات. وتوفّر كذلك مدرسة بياجي Piaget أمثلة عديدة مشابهة كما عند الأحداث من الأطفال العاديّين. فقبل تعلّم اللّسان يظهر لدى الحدث العاديّ إنتاج القوالب الحسيّة /المحرّكة التي تكوّن أنماطا من السّلوك العمليّ المنطقيّ المنبثق بلا واسطة لغويّة. فاللّساني يجد نفسه أمام أدلّة يحضر فيها الفكر دون اللّغة. وهذا لا يعني أنّ قضيّة الفكر بمعزل عن اللّغة قد لقيتْ حظّها من البحث ولكنّها تنهض على أسُسٍ صلبة. فلا محيد للسانيّ عن البحث في منعطفات هذه القضيّة في اختصاصات مجاورة. ولكنّ كلّ هذا لا يعني أنّ هناك قطيعة بين الفكر بمعزل عن اللّغة pensée sans langage والفكر المَقول pensée verbalisée ولكن الأمر هو عبارة عن عبور من درجة إلى أخرى. إنّه العبور من اللاّمعبّر عنه l'inexprimé إلى المعبَّر l'exprimé أي من المعيش الفرديّ الّذي يجلّ عن الوصف إلى المعيش ذاته ولكنّه مَقول verbalisé فهو إذن قابل للطّابع الاجتماعيّ socialisable.

وسمّاها (الخِصال) والخصْلةُ هنا بمعنى "حالات الأمور" كما روى صاحب اللّسان[1]. والأمور هنا هي (المعاني). يتجسّم وجود المعاني إذن عبرَ حالين: المعاني مستعْملةً والمعاني مَخْبَرًا عنها:

◄ المعاني مستعْملةً: يقع تداولها بين أفراد المجموعة اللّغويّة من خلال ما يتواضعون عليه فيما بينهم من أنظمة دالّة فيحلُّ الإظهارُ بدلَ الإضمار والشّاهد عوضًا عن الغائب. والمقصود- أساسًا- بالمعاني المستعملة هو المعاني اللّغويّة التي وسمَها الجاحظ في قولته الشّهيرة بـ (المطروحة في الطّريق...) باعتبارها منخرطةً ضمن رصيد المجموعة اللّغويّ الشّائع بينها في شكْل "موادّ أوّليّة" للمعنى يعرفها القاصي والدّاني.

◄ المعاني مَخْبَرًا عنها: وهي بهذا المعنى تعني الأشياء الّتي تُصوِّرها تلك المعاني باعتبارها سِماتٍ لها مثلما أنّ الألفاظ سمات للمعاني. فالسِّمة هنا تحيل على الموسوم. وعلى قدْر الإخبار عن الشّيء أو الأشياء يكون المعنى[2] وقد عرضَ الجاحظ لحال المعاني قبل الوسْم وبعده من خلال توظيفه المُحْكَم لظاهرة الطِّباق الّذي جسّم عمْقَ الفارق بين المعاني وهي قيْدَ الصّدور شبه معدومة وبين المعاني وقد تحوّلت مِن باطنة مكْنونة إلى ظاهرة موجودة:

المعاني في معنى معدومة	المعاني موجودة
خفيّة	ظاهرة
غائبة	شاهدة
بعيدة	قريبة

---

[1] ابن منظور: لسان العرب ج٤ ص١١٢

[2] Georges Mounin: Linguistique et philosophie p٢٨: "Le glissement peut-être le plus sensible et le plus périlleux, très vite, a concerné le terme information lui-même. Par tout son usage antérieur, il est synonyme d'acquisition de renseignements, de connaissances. Il était donc tentant d'assimiler de façon plus ou moins consciente de la notion de quantité d'information, créée par la théorie, avec la vieille notion de signification d'un mot: son sens, ce serait la quantité d'information qu'il véhicule et qu'il transmet. La théorie de l'information, par là, procurerait un instrument de travail bien utile à la sémantique ou science des significations, qui s'en trouvait jusqu'ici passablement dépourvue"

ملتبسة	ملخّصة
منعقدة	محلولة
مهملة	مقيّدة ← مطلقة
مجهولة	معروفة
وحشيّة	مألوفة
الغفل منها	موسوم ← معلوم

يردّنا الحال الأوّل للمعاني- أي قبلَ حصول الرّابط بينها وبين العلامات- إلى حال الفكر بمعزل عن الشّكل وهي حال وسمَها الجاحظ بالخفاء والغياب والبُعد والالتباس والتّعقيد والإهمال والمجهول والتّوحّش...وقد رأينا فيما مرّ من هذا العمل أنّ دي سوسير نفسَه وسَمَ الفكر قبل انخراطه في العلامة أو العلامات بأنّه كتلة غامضة une nébuleuse ممتدّة إلى غير نهاية فهو بمعزلٍ عن اللّغة مَحْضٌ سَديم[1]. أمّا المعاني فتجسّم، بعد أن تنزل في علاماتها. الفكرَ في ائتلافه مع الشّكل أو الكلمة على وجه التّحديد. إنّه المعنى الظّاهر المجسّم المكشوف المفهوم المشهور الموسوم المعلوم بما يعنيه كلّ ذلك من وجودٍ ماديٍّ قابل للملاحظة والرّصد بقطع النّظر عن طبيعة ذلك الوجود للمعنى أهو وجود علاميّ عامّ أم وجود لغويّ خاصّ. بذلك يتحقّق الكلام المُبين.

٣) تحقّق البيان وفضْلُه:

ينهض هذا القسم الأخير من النّصّ على بنيتين: تلازميّة واسميّة تقريريّة.

□ البنية التّلازميّة: [وعلى قدْر وضوح الدّلالة...يكون إظهار المعنى /وكلّما كانت...كان أنفع وأنجع]. فإظهار المعنى موقوف على مدى وضوح الدّلالة مثلما أنّ نفْع المعنى ونجاعته مرتهنان بوضوح الدّلالة وفصاحتها. إنّهما إذن متصوّران مركزيّان في نظريّة المعنى عند القدماء: الإظهار والنّفع.

*المعنى الظّاهر: إنّ رهانَ مستعملِ اللّغةِ أو أيّ نظامٍ تواصليٍّ آخر هو النّجاح في الخروج بالفكر أي بالمعاني من "التّوحّش" إلى "الألفة"، من صعيد الفرد الّذي يكتمها في

---

1. de Saussure: Cours de linguistique générale Payot. Paris ١٩٨٣ p١٥٥-١٥٦

صدره إلى صعيد الجماعة التي تقاسمُه إيَّاها عن طريق أنظمة تواصليّة شتّى أبرزَها اللّغة.

إنَّ لإظهار المعنى عند الجاحظ شروطًا قام عليها التّركيب التّلازميّ الأوّل:

←وضوح الدَّلالة: "وَضَحَ الشَّيءُ يَضِحُ وَضوحًا (...) أي بانَ"[1] والدَّلَالَةُ في لسان العرب موصولة بالدَّليل والمَحَجَّة "لأنَّ لفظ الدَّليل يدلّ على الدَّلالة" ويقالُ (دلَلتَ به) بمعنى "أدَلّ دَلالةً وأدلَلتَ بالطَّريق إدْلالاً والدَّليلةُ المحجَّةُ البيضاء"[2]. فالدَّلالة إذن هي بمعنى الدَّليل على المعاني التي تسبح في عالَم رحْبٍ وسيع. إنَّ الدَّليل إذا ما بانَ هو الّذي يُتيحُ الوصول إلى المعنى.

←صوابُ الإشارة: والصَّوابُ في لسان العرب ضدّ الخطإ[3] والإشارةُ عندهم هي الإيماء يكون بالكَفِّ والعيْن والحاجِب[4]. فكأنَّ المعنى يومَأ إليه بواسطة العلامة أو الكلمة ولكنَّ مربط الفرس في كلِّ ذلك هو مفهوم (الإصابة). هذا المفهوم الّذي خصّه الجاحظ بعناية فائقة في كلامه على المعنى: "وهم يمدحون الحذقَ والرّفق والتّخلّص إلى حَبَّات القلوب وإلى إصابة عيون المعاني. ويقولون أصاب الهدف إذا أصاب الحقّ في الجملة"[5].

←حُسن الاختصار: عنايةُ الجاحظ بمفهوم الإيجاز غنيّة عن التّعريف فهو يعتبره أساس البلاغة وخصّه برسالته المعروفة "رسالة البلاغة والإيجاز". يقول: "درجَت الأرض من العرب والعجم على إيثار الإيجاز وحَمْد الاختصار وذَمّ الإكثار والتّطويل والتّكرار وكلّ ما فضَلَ عن المقدار"[6].

---

١ ابن منظور: لسان العرب ج١٥ ص٣٢٢

٢ نفسه ج٤ ص٣٩٤

٣ نفسه ج٧ ص٤٣٣

٤ نفسه ص٢٣٥

٥ الجاحظ: البيان والتّبيين ج١ ص١٤٧ وراجع: أحمد الودرني: قضيّة اللّفظ والمعنى ونظريّة الشّعر عند العرب من الأصول إلى القرن ٧ هـ/١٣م بيروت /دار الغرب الإسلامي ط١ ٢٠٠٤ ج٢ ص٧٦٣-٧٦٤

٦ الجاحظ: الرّسائل الأدبيّة بيروت /دار ومكتبة الهلال ط٣ ٢٠٠٥: البلاغة والإيجاز ص٢٩٥

←دقّة المدخل: تقول العربُ دقّ الشيءَ يدُقّه إذا أظهرَه. ويقولون في التّهدُّدِ لأدُقَّنَّ شُقُورَكَ أي لأظهِرَنَّ أمُورَكَ[1] وتكلّموا على المَدْخَل–وهو موضع الدّخول–فقالوا دخلْتُ مَدْخلا حسنًا ودخلْتُ مَدْخَلَ صِدْقٍ ومُدْخَلَ صِدْقٍ بضمِّ الميم. ويُقال فلان حسَن المَدْخل والمخْرج أي حسَن الطَّريقة محْمودُها وكذلك هو حسَن المذهب[2]. إنّ الأمر يدور إذن على المسلك الظّاهر البيّن إلى المعنى بعيدًا عن كلّ مظاهر الالتواء والتّعقيد والتّلبيس.

إنّ الأمر يتعلّق إذن باختيار الدّليل الواضح على المعنى والإشارة الصّحيحة إليه والمسلك المحمود إليه في إيجاز واختصار. بذلك يُجْمل الجاحظ مقاييس البلاغة عند العرب: الوضوح وإصابة الحقيقة والإيجاز والمذهب الحَسَن.

*المعنى النّافع: يبدو من خلال التّركيب التّلازميّ الثّاني أنّ للمعنى منافع عديدة لا تقع تحت طائل إحصاء. من هنا تأتي أهمّيّة الدّلالة أو الدّليل –أو الإشارة– في الإحاطة بأقصى ما يمكن من تلك المنافع. فتواتُرُ صِيَغ التّفضيل التي مثّلتْ نسيج التّركيب التّلازميّ الثّاني يؤكّد أنّ تحصيل المعنى ومنافع المعنى فيه تفاوت بين مستعْمِلٍ للأدلّة وآخر:

أوْضح /أفْصح /أبْين /أنْور←أنْفع /أنْجع

فالبيَان إذن هو السّبيل إلى تحقيق المنفعة والنّجاعة لأنّ البلاغة مقترنة عند الجاحظ "بانتفاع المستمع"[3]. إنّ المعاني المحمّلة بالفوائد "إذا صارتْ في الصُّدور عمرتْها وأصْلحتْها من الفساد القديم"[4]. لذلك سيُلحُّ النُّقّاد في مرحلة ما بعد الجاحظ على التّلازم بين المتعة والفائدة في كلامهم على المعنى في الشّعر على وجه التّحديد. بل إنّ بعضهم يشترط الفائدة قبل جَماليّة القول الّتي يمكن أن يُضحّيَ بها أصلاً إذا لزم الأمر كما هو الحال عند ابن قتيبة مثلا. وموقفه من أبيات المعلوط السّعدي[5].

□ البنية الاسميّة التّقريريّة: يصل الجاحظ بعد خوْضه في شروط إبانة المعنى إلى اختصار القضيّة كلّها في تركيب وجيز نعيد ترتيبه على النّحو التّالي: "البيانَ هو الدّلالة

---

1 ابن منظور: لسان العرب ج٤ ص٣٨٠

2 نفسه ص٣٠٧

3 الجاحظ: البيان والتّبيين ج٢ ص٨

4 نفسه ج٤ ص٢٤

5 راجع: أحمد الودرني: قضيّة اللّفظ والمعنى ونظريّة الشّعر عند العرب ج٢ ص٨٢٩ وما بعدها

الظّاهرة على المعنى الخفي" فالأمرُ إذن معقودٌ بين (الدّليل الظّاهر) المتعيِّن و(المعنى الخفِيّ) المجرَّد. ففضْلا عن النّقد الدّاخلي الّذي أجراه الجاحظ لقضيّة المعنى في مرحلتيْ ما قبل التّشكّل وما بعد التّشكّل فإنّه يعمد في آخر النّصّ إلى توخّي ضربٍ من النّقد الخارجي من خلال تتابع الأفعال [نطَق /تفاخرت /تفاضلت] وتدور حول أهمّية (البيان) في منظومة العرب الدّينيّة والاجتماعيّة وصولا إلى المنظومة الكونيّة باعتبار أنّ البيان أداة تواصلٍ بين الإنسان والإنسان في كلِّ عصْرٍ ومصر.

إنّ ما أقرّه الجاحظ لا سيّما في القسم الأخير من هذا النّص حول شروط إبانة المعنى وارتباطه بمفهوميْ المنفعة والنّجاعة هو بمثابة المبادئ الرّئيسيّة الّتي لن يكون لمعظم النّقّاد اللاّحقين إلاّ دورُ تفسيرها وتلخيصها وتدقيق تفاصيلها وصياغتها صياغات متعدّدة حتى إنّنا لا نغالي إذا قلنا إنّ النّقد القديم كلّه يكاد يكون حاشيةً على نصّ الجاحظ هذا باستثناء عبد القاهر الجرجاني الّذي واصل ماكان بدأه الجاحظ. ليس القسم الأخير هو الذي يسترعي انتباهنا في نصّ الجاحظ، فمضمون هذا القسم مشهور جدّا في المصنّفات البلاغيّة والنّقديّة ولكنّ الأهمِّيّة في القسميْن الأوّل أساسًا والثّاني بدرجةٍ أقلّ. فكلام الجاحظ على المعاني وهي في معنى معدومة أي منعزلة عن العلامات واللّغة هو الّذي أهمله القدماء ولم يتعمّقوه. بذلك بتروا آراء الجاحظ عن فلسفته وأصولها الاعتزاليّة والكلاميّة وانصرفوا إلى التّكرار والوصْف والتّقعيد حتى لاحتْ آراؤه المنتزعَة من سياقاتها بمثابة القواعد المتحجِّرة المتّصلة باللّفظ على حدة وبالمعنى على حدة. وفي ذلك غاية التّشويه والاختزال. إنّ الجاحظ لم يقصر كلامه في هذا النّصّ على البيان اللّغويّ بل طرح قضيّة المعنى من وجهة دلائليّة بقطع النّظر عن طبيعة الدّليل أهو لغويّ أم غير لغويّ ليصل في النّهاية إلى أنّ البيان لغة كوْنيّة؛ فحاجات النّاس إلى المعاني أكثر من أن تفي بها العلامات والألفاظ. هذا بالإضافة إلى أنّ الكون مليء بـ"النِّعَم والأعاجيب والصِّفات وما أشبه ذلك. فإنّ كلاّ من هذه الفنون لو وقف عليه رجل رقيق اللّسان صافي الذّهن صحيح الفكر تامّ الأداة لما برح أن تحْسره المعاني وتغمره

الحِكَم"[1]. إنّه كوْن عارمٌ مِن النِّعَم والأعاجيب والحِكَم الموجودة في معنى معدومة تنتظر مَن يقْدحُها: "متى دلَّ الشيء على معنًى فقد أخبرَ عنه وإن كان صامتًا وأشار إليه وإن كان ساكتًا"[2].

لابدَّ إذن من التّمييز بين المعنى مشغلاً لغويًا يعالَج في إطار معالجة العلامة اللّغويّة وبين المعنى مشْغلاً فلسفيًا/كلاميًا موصولاً بقضايا معرفيّة شائكة مثل قضيّة الخلْق وقضيّة الجوهر والعَرَض... بهذا التّمييز وحده يمكننا فهْم قضيّة المعنى عند الجاحظ وفي الفكر القديم عموما. وبهذا التّمييز وحدَه نأمن سوء الفهْم. فاللّسانيّات مثلا لم تعدْ تكفي وحدَها لمعالجة قضيّة المعنى بشهادة بعض اللّسانيّين أنفسهم[3] لذلك لا بدّ من الاستعانة بعلْم النّفس التّجريبي وبفلسفة اللّغة وبكلّ الاختصاصات التي من شأنها أن تقود إلى حَصْر امتدادات قضيّة المعنى. كذلك الشأن بالنّسبة إلى قضيّة المعنى لدى مفكِّر قديم قويّ الشَّكيمة كالجاحظ. إذ لا بدّ من أن نتجاوز التّعامل مع فكره تعاملا مدرسيًا شوَّهه أكثر ممَّا شرحَه ووضَّحه. فزيادةً على كوْنه متكلِّمًا فهو كما رأينا صاحب نظريّة في المعرفة يغذّيها اطِّلاعُه الواسع على الثّقافات الأجنبيّة (اليونانيّة والفارسيّة والهنديّة)؛ ففي إطار هذا التّوجّه المنهجي أردْنا أن نسلِّط الضوء أكثر على الجاحظ الفيلسوف/المعتزليّ/المتكلِّم بدَلَ الجاحظ الأديب/اللّغوي/النَّاقد الّذي سبق أن توقّفنا عنده في دراسة سابقة[4].

إنَّ الجاحظ تكلّم على المعاني في صلتها بالأجسام التي تتألّف من الجواهر ثمّ تبدو في شكْل أعراض هي الظَّواهر بتعبير أصحاب الفينومينولوجيا؛ ومثلما ذهب الجاحظ -وفق فلسفته الكلاميّة- إلى أنَّ الكون مليء بالنِّعَم والأعاجيب التي لا تستوعبُها العلامات والكلمات ذهب هيسّيرل الفينومينولوجيّ الألماني إلى أنّه من

---

١ الجاحظ: الحيوان تحقيق عبد السّلام هارون بيروت/المجمع العلمي العربيّ الإسلامي ط٣ ١٩٦٩ ج١ ص٢١٠

٢ الجاحظ: البيان والتّبيين ج١ ص٨١-٨٢

٣ Georges Mounin: Linguistique et philosophie p١٣٠

٤ أحمد الودرني: قضيّة اللّفظ والمعنى ونظريّة الشّعر عند العرب: القسم الثالث-الفصل الأوّل ص٧٠٧ ←ص٨٢١

الممكن ألاّ نجدَ عند تحليلنا لمضمون أفكارنا إلاّ فيْضًا طارئًا من الظّواهر. بالإضافة إلى أنّ كلام الفينومينولوجيّين على الظّواهر الخالصة أي باعتبارها نظاما من الجواهر الكلّيّة un système d'essences universelles هو غير بعيد عن كلام أهل الاعتزال على قضيّة الجوهر والعرَض وكيف أنّ الجواهر ثابتة والأعراض متبدّلة. لكنْ لنْ يُغرينا كلُّ ذلك بالقول إنّ الجاحظ فيلسوف فينومينولوجيّ في زمانه لأنّ الظّرف التّاريخي الّذي أفرز الفلسفة الفينومينولوجية الألمانيّة –في بداية القرن العشرين بُعيْد الحرب العالميّة الأولى– هو غير الظّرف التّاريخيّ القديم الّذي أفرز علم الكلام الاعتزاليّ. ولكنّ الأهمّ من كلّ ذلك هو أنّ المعنى، باعتباره فلسفةً، يسخّره الجاحظ –وأهل الاعتزال بوجهٍ عامّ– لخدمة مشغلٍ عقائديّ بعينه: فمن المعاني عند الجاحظ ما له أسماء علّمها الله آدمَ ويتداولها النّاس ومن المعاني ما ليس له أسماء: "وقد يكون المعنى ولا اسْم له ولا يكون اسْم إلاّ وله معنى"[1]. ويتنزّل هذا التّمييز في حمْأة أكبر قضيّة شغلتْ المتكلّمين من القدماء معتزلةً وأشاعرةً هي قضيّة الاسم والمسمّى فالأشاعرة يعتبرون "أنّ الاسْمَ هو المُسَمّى نفسه أو صفة متعلّقة به وأنّه غير التّسمية"[2] في حين يذهب المعتزلة إلى أنّ "الاسم غير المسمّى وأنّه قول المسمِّي وتسْميته ما سمّاه"[3] في إطار نَفْيهم لأزليّة الصِّفات الإلهيّة باعتبار أنّ الله لم يكن له في الأزل اسم ولا صفة لذلك أكّدوا أنّ الاسم غير المسمّى ومن ثَمّ فإنّ الصِّفة غير الموصوف. يعكس كلُّ ذلك المدى "الّذي وصلَ إليه المعتزلة في تجريدهم لماهية الألوهيّة"[4]. غير أنّ الّذي يعنينا من كلّ هذه التّداعيات الفلسفيّة/الكلاميّة هو ارتهان كلام الجاحظ على المعنى بعقْلٍ كلاميّ اعتزاليّ يجعل من المعاني المَقولة les sens verbalisés وغير المَقولة les sens non verbalisés مطيّةً لتعميق الإيمان وتثبيته وذلك بقنْص القرائن الدّلاليّة التي تقود إلى اكتشاف عظمة الخالق مثلما صنَعَ في كتاب (الحيوان) حيث وظّف المشغل العلمي/المعرفيّ لخدمة رؤيته الدّينيّة/الرّمزيّة/المذهبيّة. فالجاحظ قدّم الفائدة على المتعة في معالجته للمعنى لأنّ غايته تظلّ دوما خدمةَ العقْل –العقل الاعتزالي الكلاميّ– الّذي مثّل سلطةً تتمركز حولها كلّ المعاني في بُعْدَيْها الفلسفي واللّغويّ. إنّ الكونَ عندما تتحوّل ظواهره

---

١ الجاحظ: رسالة الهزل والجدّ ضمن "الرّسائل الأدبيّة" ص٢٤٨

٢ عبد الرّحمان بدوي: مذاهب الإسلاميّين ج١ ص٦١٠

٣ نفسه

٤ نفسه ص٦٠٩

الصّامتة إلى دوالّ ناطقة بالنِّعَم والأعاجيب الدّالّة على وجود الله، معناه أنّ هناك لوغوس إلهي logos divin[١]: أي عقل إلهي ينبثق عنه كلّ شيء بما في ذلك المعنى الّذي يظلّ وفق هذا المنظور مدلولا متعاليًا signifié transcendantal[٢] بما أنّه يعلو على العلامات وتعجز الكلمات عن الإحاطة به. تكشف إذن العقلانيّة الاعتزاليّة عن فلسفة كلاميّة تغذّيها جُملة من الثّنائيّات التي دافع عنها أهل الاعتزال بنُضْج نظريّ عالٍ في وجه موجات التّشكيك في العقيدة الّتي صاحبتْ عصرَهم[٣]: ومن تلك الثّنائيّات المادّة/الرّوح، اللّفظ/المعنى. المحسوس/المجرّد، الخير/الشّرّ،الأعلى/الأسفل...هكذا رسّخ الجاحظ نظريّة المدلول المتعالي في الفكر العربي القديم الّذي خطا به المعتزلة خطوات هامّة نحو البناء النّظريّ الصّلْب لمثل تلك الثّنائيّات على أرضيّة كلاميّة يعتدّ فيها أصحابُها بالعقل الكلامي الّذي يُفضي بهم إلى أن يستخلصوا من الكون أمارات وجود الخالق من خلال تدبّر مخلوقاته وما تبوح به من أسرار ما ظهَرَ منها وما بطن. فما على الإنسان إذن إلاّ أن يوجّه إرادتَه نحو اكتشافِ معانٍ ضروريّة وطبيعيّة يسبحُ فيها الكون؛ فالإنسان متسبِّب في خلْق المعاني وليس خالقًا لها لأنّ معارفَه -في ضوء الرّؤيةالاعتزاليّة ومن خلال نظريّة المعرفة عند الجاحظ تحديدا- هي معارف ضروريّة لا كَسْبيَّة.فإرادة الإنسان في خلْق أفعاله محدودة، فهو مجرّد سبب. هذا هو مفهوم الإنسان في علاقته بخالقه.

هكذا رسّخ الجاحظ -ومن ورائه سائر المعتزلة- في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة إمبرياليّة العقل الكلامي[٤] وقد وصلت تلك الإمبرياليّة إلى تكْميم الأفواه وترصُّد كلّ مَن لا

---

١ Jacques Derrida: Positions. Ed de Minuit, Paris ١٩٧٢ p٤٨

٢ نفسه ص٤١

٣ محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي: دراسة تحليليّة نقديّة لنُظم المعرفة في الثّقافة العربيّة. بيروت/الدّار البيضاء-المركز الثّقافي العربيّ ط٢ ١٩٩١ ص١٧٧: "وكان من الطّبيعيّ أن يحشدَ المنافحون عن عقيدة التّوحيد القرآنيّة. وكانوا من المعتزلة خاصّة. كلّ جهودهم الفكريّة لإبطال المبدأيْن اللّذيْن يقوم عليهما "الشّرك": مبدأ التّعدّديّة في الألوهيّة ومبدأ الاتّصال بين الله والعالَم، ومن ثمّة إقرار عقيدة "التّوحيد" القرآنيّة المبنيّة على التّنزيه وإلغاء الوسائط".

٤ Jacques Derrida: Positions P ٤٧:l'impérialisme du Logos

يقول بخلق القرآن[1] فما بالك بمَن تحدّثه نفسه أو حدّثته بالدّعوة إلى فرقعة تلك الثّنائيّات الميتافيزيقيّة الّتي مرّ ذكرها أو تفكيكها من أجل تقديم مفهوم آخر للإنسان تتبدّل في ضوئه نظريّة المعرفة ومن ثمّ نظريّة المعنى؟ وقد ظلّ النُّقّاد معظمهم يخشون سطوة ذلك العقل الكلامي وجبروته بالرّغم من تعبير بعضهم الضّمنيّ -ونعني عبد القاهر الجرجاني- عن رغبته في المعاني القائمة على التّخييل والإغراب والخروج عن رسم الحقيقة. ورغم ذلك يختار النّاقد ما أجمعت عليه الأمّة ويقف -ربّما كارهًا- في صفّ العقل: "...هذا ونحوه يمكن أن يتعلّق به في نصرة التّخييل وتفضيله، والعقل بعد على تفضيل القبيل الأوّل وتقديمه وتفخيم قدره وتعظيمه. وما كان العقل ناصره والتّحقيق شاهده فهو العزيز جانبه المنيع مناكبه. وقد قيل الباطل مخصوم وإن قُضي له. والحقّ مُفلج وإن قُضي عليه"[2]. وستكون وقفتنا القادمة إن شاء الله مع عبد القاهر بين إمبرياليّة العقل الكلامي وجماليّة التّخييل.

* * *

---

[1] أحمد أمين: ضحى الإسلام ج٣ ص١٦٤-١٦٥: "وحمل المأمون النّاس على القول بخلق القران سنة ٢١٨ (...) وظلّت هذه المسألة مسألة الدّولة والنّاس من سنة ٢١٨ إلى سنة ٢٣٤". وراجع عن محنة المحدّثين الّذين لم ينصاعوا للقول بخلق القران وأبرزهم أحمد بن حنبل ص ١٧٧ وما بعدها

[2] عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة. تحقيق هـ.ريتر بيروت/دار المسيرة ط٣ ١٩٨٣ ص٢٥١

قائمة المصادر والمراجع

*المصادر:

- الأشعريّ (أبو الحسن): كتاب مقالات الإسلاميّين واختلاف المصلّين. تصحيح هلموت ريتر- قيسباداد /دار فرانز شتايز ط٣ ١٩٨٠

- الجاحظ:

*البيان والتّبيين تحقيق عبد السّلام محمّد هارون بيروت دار الجيل (دت)

* الرّسائل الأدبيّة بيروت /دار ومكتبة الهلال ط٣ د ١٩٩

* الحيوان تحقيق عبد السّلام هارون بيروت /المجمع العلمي العربيّ الإسلامي ط٣ ١٩٦٩

- الجرجاني(عبد القاهر): أسرار البلاغة. تحقيق هـ.ريتر بيروت /دار المسيرة ط٣ ١٩٨٣ ص١د٢

- الزّمخشري: الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل. تحقيق مصطفى حسن أحمد. دار الكتاب العربي ١٩٤٧

- الشهرستاني(أبو الفتح): الملل والنّحل. بيروت /مؤسّسة ناصر للثّقافة ط١١ ١٩٨١

- ابن منظور: لسان العرب.تصحيح أمين محمّد عبد الوهّاب ومحمد الصّادق العبيدي بيروت /دار إحياء التراث العربي ط٢ ١٩٩٧

*المراجع:

العربيّة:

- أمين(أحمد): ضحى الإسلام بيروت /دار الكتاب العربيّ ط ١٠ (دت)

- بدوي (عبد الرّحمان): مذاهب الإسلاميّين بيروت /دار العلم للملايين ط٢ ١٩٧٩

- الجابري(محمد عابد): بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقديّة لنظم المعرفة في الثّقافة العربيّة. بيروت /الدّار البيضاء-المركز الثّقافي العربيّ ط١٢ ١٩٩

- أبو زيد (أحمد): المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن. الرّباط /مكتبة المعارف للنّشر والتّوزيع ط١ ١٩٨٦

- السّيّد(محمّد صالح محمد): مدخل إلى علم الكلام. القاهرة /دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع ٢٠٠١

- صمّود(حمّادي): نظريّة المعنى في التّراث العربيّ وأثرها في فهم وظيفة الصّورة ضمن كتاب "في نظريّة الأدب عند العرب" المملكة العربيّة السّعوديّة /النّادي الادبيّ الثّقافيّ بجدّة ط١ ١٩٩٠

- الودرني (أحمد): قضيّة اللّفظ والمعنى ونظريّة الشّعر عند العرب من الأصول إلى القرن ٧ هـ/١٣م بيروت /دار الغرب الإسلامي ط١ ٢٠٠٤

الأجنبيّة:

- Benveniste(Emile): Problèmes de linguistique générale. Ed Gallimard, Paris ١٩٦٦

-Derrida(Jacques): Positions. Ed de Minuit, Paris ١٩٧٢

-De Saussure (F): Cours de linguistique générale Payot, Paris ١٩٨٣

- Martinet (André): Eléments de linguistique générale. Librairie Armand Colin, Paris ١٩٨٠

-Mounin(Georges): Linguistique et philosophie. Ed PUF ١٩٧٥

* * *

شعر بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم
حتى نهاية القرن الثاني الهجري
دراسته وجمع ما لم يجمع منه وتوثيقه

د. أحمد بن محمد بن إبراهيم اليحيى
كلية المجتمع بالدوادمي - جامعة شقراء

شعر بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم حتى نهاية القرن الثاني الهجري
دراسته وجمع ما لم يجمع منه وتوثيقه

د. أحمد بن محمد بن إبراهيم اليحيى
كلية المجتمع بالدوادمي- جامعة شقراء

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث ما لم يجمع من شعر بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم وتوثيقه، ودراسة شعر هذه القبيلة كلّه.

حيث استطاع الباحث أن يجمع في هذا البحث مائة وخمسة وعشرين شطرَ رجزٍ وثلاثة وعشرين بيتا من الشعر لأحد عشر شاعرا. وقد سبقَ الباحث في جمع أشعار بعض شعراء هذه القبيلة، فأشعارُ علقمة الفحل وحميد الأرقط وغيلان بن حريث جُمعت قبله، إلا أنّ الباحث استدرك بعض مقطوعاتٍ لغيلان بن حريث.

تضمن البحث في بدايته إشارات موجزة عن نسب القبيلة ومنازلها وشيئا من تاريخها خلال المدة الزمنية التي يغطيها البحث وهي نهاية القرن الثاني الهجري.

وألحق الباحث بالشعر المجموع دراسة فنية لشعر هذه القبيلة تجاوزت ما جمعه من أبيات إلى أن غطت الشعر المجموع قبله أيضا وذلك لإعطاء صورة كاملة غير منقوصة عن شعر هذه القبيلة.

المقدمة :

نشطت في السنوات القليلة الماضية حركة جمع شعر القبائل العربية ودراستها وتوثيقها بعد أن كانت غائبة عن المشهد الثقافي ردحا من الزمن.

فعلى الرغم من جهود علمائنا الأوائل في جمع هذا الشعر إلا أنه – وللأسف الشديد – ضاع ذلك الجهد الضخم كله سوى ما وصلنا من شعر (هذيل) الذي جمعه أبو سعيد السكري.

ولو أردنا أن نعدد تلك الجهود الضائعة لطال بنا المقام، لكن يكفي أن نشير إلى أن الدكتور ناصر الدين الأسد تتبَّعَ كتاب (المؤتلف والمختلف للآمدي) فوجد ذكرا لستين ديوانا لشعر القبائل [1]، كما تتبَّعَ ابنَ النديم في (الفهرست) فوجد إشاراتٍ لتسعة وعشرين ديوانا لشعر القبائل، صنعَ أبو سعيد السكري منها ثمانية وعشرين، وصنع هشام بن محمد الكلبي ديوانا واحدا [2].كما ينص ابن النديم على أن أبا عمرو الشيباني جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة [3] .

ولا شك أن هذا الكم الهائل من الكنوز التي فقدها العرب يُحَتّمُ على الغيورين من أبناء هذه الأمة على تراثهم العربي والإسلامي أن يُضافروا الجهود. ويشمروا عن السواعد في سبيل جمع ذلك الشعر وإخراجه للأجيال موثقا، يقول أبو عمرو بن العلاء "ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله. ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير"[4]

هذا وكان لبعض الباحثين جهود موفقة في هذا الميدان فقد جمع الدكتور عبد العزيز بن محمد الفيصل أشعار ثلاث قبائل (عبس وعقيل ونمير) كما كان لجامعة

---

(1) انظر مصادر الشِّعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، د. ناصر الدِّين الأسد. دار الجيل. بيروت. لبنان. الطبعة الثامنة. ١٩٨٨م.ص٣٤٣ – ٥٤٤.

(2) انظر مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ص ٥٤٥ – ٥٤٧ .

(3) الفهرست لأبي الفرج ابن النَّديم. المكتبة التجارية بمصر. لا ط ولا تاريخ ١٠١. وانظر مصادر الشعر الجاهلي ص٥٤٧.

(4) طبقات فحول الشعراء . لمحمد بن سلام الجمحي. قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر. دار المدني. جدة. لا ط. ولا ت. ص ٢٥

الإمام محمد بن سعود الإسلامية – ممثلة بقسم اللغة العربية – الكم الأوفر من الرسائل العلمية التي تناولت شعر القبائل جمعا وتوثيقا ودراسة. ومن جهودها في ذلك :

جمع شعر طيء للدكتور رشيد بن فهد العمرو، وجمع شعر باهلة لراشد القير، وجمع شعر ذبيان للدكتور علي ناصر جماح، وجمع شعر بني عمرو بن تميم لعبدالعزيز آل عبدالله، وجمع شعر مذحج للدكتور محمد عبدالله منور، وجمع شعر بني سعد بن زيد مناة بن تميم للدكتور أحمد اليحيى، وجمع شعر بني مالك بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم للدكتور عبدالله السعيد، وجمع شعر بني يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم للدكتور عبدالسلام بن عبدالله العبد السلام ، وجمع شعر كنانة للدكتور فهد بن صالح الجربوع، وجمع شعر بني أيوب للدكتور حمود بن عبد الله الزنيدي، وجمع شعر قضاعة لعبد العزيز آل عبد الله.

كما أن هناك العديد من الجامعات العربية التي أسهمت في هذا المجال لكنني ذكرت جهود جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية كمثال فقط.

ومما دعاني لدراسة شعر قبيلة بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم هو احتفاءُ الدارسين بأشعار قبيلة بني تميم على اختلاف فروعهم حاشا بني ربيعة بن مالك، فقد جُمع شعر بني عمرو وبني يربوع بن حنظلة وبني مالك بن حنظلة وبني سعد بن زيد مناة ولم يتبقَّ من أشعار بني تميم سوى شعر بني ربيعة بن مالك.

لذا آثرت أن أجمع ما تبقى لنا من شعرهم وأعزوه لمصادره محاولا الإسهامَ بما أستطيعه من الحفاظ على تراثنا الشعري، وإن كنت أجزم أن هذا الشعر لبني ربيعة بن مالك لا يمثل إلا قليلا مما قاله شعراء هذه القبيلة، فكثير من شعرهم لم يصل إلينا وضاع مع ما ضاع من تراث العرب الشعري. ولم تقتصر دراستي لشعر بني ربيعة على الشعر الذي جمعتهُ فحسب، بل تَعدَّت لما جُمِعَ قبلي من شعر شُعرائهم، ذلك أنَّ عدم دراسة الشعر الذي سُبقتُ على جمعه سيضطرُّنا للخروج بنتائج ناقصة لشعر القبيلة عامة.

القسم الأول- القبيلة : النسب والمنازل والتاريخ :

احتلَّ بنو تميم مركزاً مهماً في تاريخ العرب منذ جاهليتهم، وأصبحت القبيلةُ قاعدةً من أوسَعِ قواعد العرب [1]. وكان لها مكان الرِّيادة بين القبائل في العصر الجاهلي، إذ شاركت مشاركة بارزة في صنع تاريخ العرب منذ جاهليته بجميع جوانبه. وذلك عائد لعدة عوامل من أهمها : كثرة القبيلة وتعدُّدِ فروعِها، واتِّساعُ ديارها التي احتلتها. فقد أحرزت تميمُ دُوراً ومياها خاصةً بها.

وبنو ربيعة بن مالك بن زيد مناة هم أحد بني تميم، ولم يكن لهم شأن كبير يُوازي ما أُثِرَ في كتب التاريخ والأدب عن بني عمومتهم كبني حنظلة بن مالك أو سعد بن زيد مناة أو بني عمرو بن تميم.

ويعود ذلك لقلَّة عددهم، ولذا دخلوا في بني نهشل [2].

ولا أدل على ذلك من الشعر القليل الذي تبقى في بطون المصادر مما أُثر عنهم فرغم أني بذلت من الجهد ما أدعي أنه أقصاه فلم أجد سوى شعرٍ لأحد عشر شاعرا منهم. فضلا عن شاعرين اثنين جُمعت أشعارهما وهما : علقمة بن عَبَدَة [3] وحُمَيد الأرقط [4].

وقد هجاهم بالجوع إربد بن ضابئ بن رجاء الكلبي – وكان مجاوراً لهم – بقوله [5] :

---

(1) جمهرة أنساب العرب لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي. مراجعة: لجنة من العلماء. دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الأولى. ١٤٠٣هـ. ص ٢٠٧

(٢) جمهرة النسب لابن الكلبي ١٩٣، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ٢٢٢.

(٣) ديوان علقمة الفحل، بشرح الأعلم الشنتمري. حققه لطفي الصقال ودرية الخطيب. دار الكتاب العربي. حلب ١٩٦٩م وقد تضمن سبعا وعشرين مقطوعة بلغت بيتين ومائتي بيت شعر وثلاثة أشطر رجز.

(٤) أراجيز العرب. جمع وتحقيق: ج. ه. أنتلا، هلسنكي، فنلندا، ١٩٩٦م. وقد كتب عنه الدكتور: محمد أحمد شهاب مقالة في مجلة آفاق الثقافة والتراث عدد ٧١ شهر شوال ١٤٣١هـ بعنوان (حميد الأرقط، حياته وما تبقى من شعره) من ص ١١٨ – ١٣٦ وقد جمع ثمان وسبعين مقطوعة بلغت مائة وتسعة وسبعين شطرا وستة وأربعين بيتا. وجمع مما نُسب له ولغيره خمس مقطوعات بلغت تسعة أشطر رجز وبيتا شعريا واحدا.

(٥) المؤتلف والمختلف ٢٦.

بـسـمنان بـول الجـوع مـسـتنقعاً بـه قـد اصـفرّ مـن طـول الإقامـة حائلـه

ببرقانـــه ثلـــث وبـــالخرت ثلثـــه وبالحـــائط الأعلـــى أقامـــت عيائلـــه

لـــه صـفرة فـــوق العيـــون كأنهـــا بقايـا شـــعاع الأفـــق والليـــل شـــامله

وتُنسبُ هذه القبيلة إلى تميم بن مُرٍّ بن أُدِّ بن طَابخَةَ بن إلياس بن مُضَرَ بن نزار بن مَعَدِّ بن عدنان [١].

وَلَدَ تميمٌ زيدَ مناةَ، وأُمُّهُ: صفيةُ بنت القين بن جَسر [٢].

وكان أبناؤه الكثرة الغالبة وهم خمسة: سعد، ومالك، وعوف، وامرؤ القيس، وعامر وبنوه قليل [٣]

وولدَ مالكٌ حنظلةَ وفيه البيت والعدد وربيعةَ وقيساً ومعاويةَ [٤]

وولدَ ربيعةُ بن مالك كعبا، وكعيبا، وعبيدا، والحارث، وعمرا [٥]

وزاد الوزير المغربي: المجَرّ [٦]

وقد اخطأ ابن دريد فنسبَهُم إلى مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة [٧]

ويقال لبني ربيعة: ربيعة الجوع [٨] للؤمهم [٩]

---

(١) جمهرة النسب لأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، تحقيق: د. ناجي حسن، دار عالم الكتب، بيروت، ط١٤٢٥هـ، صـ ١٨٩ – ١٩١، والمعارف لابن قتيبة، حققه وقدّم له: ثروت عكاشة، منشورات الشريف الرضي، إيران، ص٧٦، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ٢٠٧.

(٢) جمهرة النسب ١٩١.

(٣) جمهرة النسب لابن الكلبي ١٩٢– ١٩٣، والمعارف ٧٦ ولم يذكر منهم عوفا، وجمهرة أنساب العرب ٢١٣

(٤) جمهرة النسب ١٩٣، وجمهرة أنساب العرب ٢٢٢.

(٥) جمهرة النسب ٢٢٨.

(٦) الإيناس في علم الأنساب للوزير المغربي ٦٦.

(٧) الاشتقاق ٢١٨.

(٨) جمهرة النسب ١٩٣، والمعارف ٧٦، والاشتقاق ٦٧.

(٩) الديباج لأبي عبيدة ٥.

وهم أحد الربائع في بني تميم يقول ابن دريد (والرَّبائع من بني تميم: ربيعة بن مالك بن زيد مناة أخو حنظلة وهم ربيعة الجوع، وربيعة بن حَنْظلة الذين منهم أبو بلال مِرداس بن حُدَيْرٍ وابن حبناء الشاعر، وربيعة بن مالك بن حنظلة)[1]

ويقال لهم (ربيعة الكبرى) يقول ابن عبد ربه (في تَميم ربيعة: رَبيعة الكُبرى وهو رَبيعة بن مالك بن زَيْد مَناة ويُلَقب رَبيعة الجوع، وربيعة الوُسْطى وهو رَبيعة بن حَنْظلة بن مالك بن زَيد مَناة، ورَبيعة الصُّغْرى وهو رَبيعة بن مالك بن حَنْظلة وكل واحد منهم عَمُّ الآخر)[2]

ولم يرد في المصادر منازل بعينها لبني ربيعة سوى ما ذكره ياقوت الحموي من أنَّ (سَمنان) شعب لبني ربيعة الجوع بن مالك[3]. وقد يكونُ ذلك عائدا القلَّة عددهم، ونستطيع أن نقول إن منازلهم منازل تميم عامة في العصر الجاهلي شمال الصُّمَّان (حزن بني يربوع) وفَلج الذي يعرف اليوم بـ (حفر الباطن) لبني مجاشع، وبلاد قومِ مالك بن نُويرة غربي القصيم، والمرُّوت في الوشم، وضواحي هَجَر لبني سعد.

ولا بد أن يكون لرجال بني ربيعة مساهمة في الأحداث التي تجري حولهم، إلا أن المصادر تكاد تشح علينا بتلك الأخبار.

ففي يوم (عين أباغ) أعان قوم من تميم المنذرَ بن ماء السماء اللخمي في حربه مع الحارث بن أبي شمر الغساني ملك العرب بالشام في الحرب المشهورة التي انتصر فيها الحارث وقَتَلَ المنذر اللخمي وجمعا كبيرا ممن كان معه، وأسَرَ فيمن أسر سبعين من أشراف تميم منهم شاس بن عبده – أحد بني ربيعة بن مالك – أخا الشاعر علقمة بن عبدة فوفد علقمة إلى الحارث فامتدحه بقصيدته التي مطلعها:

طَحا بِكَ قَلبٌ في الحِسانِ طَروبُ بُعَيدَ الشَبابِ عَصرَ حانَ مَشيبُ

وهي من قلائد أشعار العرب يقول فيها:

وَفي كُلِّ حَيٍّ قَد خَبَطتَ بِنِعمَةٍ فَحُقَّ لِشَأسٍ مِن نَداكَ ذَنوبُ

---

(1) الاشتقاق ٦٧.

(٢) العقد الفريد ٣ / ٣٣١

(٣) معجم البلدان ٣ / ٢٥١. وشعب سمنان يقع شمالي اليمامة.

فأطلق له شأساً مع أسرى تميم [1].

كما يتضح من خلال قصيدةٍ لعلقمة بن عبدة أن بني ربيعة شاركوا تميما في (يوم الكلاب الثاني) حين يقول :

وَدَّ نُفَيْــــرٌ لِلمَكـــــاوِرِ أنَّهُــــــمْ	بِنَجــرانَ فــي شــاءِ الحِجــازِ المُــوقَّرِ
أسَـعياً إلـى نَجـرانَ فـي شَـهرٍ نـاجِرٍ	حُفـاةً وأعيـا كـلُّ أعـيَس مِــسفَرِ
وَقَــرَّت لهــمْ عَينـي بيَـومِ حَذُنَّــة	كـــأنَّهُمُ تَـــذبيحُ شـــاءٍ مُعتَّـــرِ
عَمَـدتُم إلـى شِـلوٍ تُنـوذِرَ قَـبلَكمْ	كَثيـرِ عظـام الـرَّأس ضـخم المُـذمَّر [2]

كما كان لشعراء بني ربيعة مشاركة في الحياة الثقافية من خلال دخول بعضهم في الحرب بين الفرزدق وجرير – وهما تميميان – فقد كان حكيم بن معية ممن يفضل الفرزدق على جرير[3]. كما أعانَ غسانَ السليطي على جرير[4] وذلك عندما استعانت به بنو سليط فقد كان عند حكيم بن معية امرأة من بني سليط – وكان راجزاً – وكان جرير يهجو بني سليط. فقالت بنو سليط لحكيم : قبحك الله من صهر قوم. هذا الغلام يقطع أعراضنا – يعنون جريراً – وأنت راجز بني تميم لا تعين أبا بنتك. فخرج حكيم نحوه وأقبل مع بني سليط. ودون الموقف الذي به جرير والجماعة ونجفة، وهي ما ارتفع من الأرض كالأكمة. قال حكيم : فلما وافيتها سمعته يقول :

لا تحـسبني عــن سـليط غـافلاً	أن تغـــش لـــيلاً بـــسليط نـــازلا
لا تلــق أفراســـاً ولا صـــواهلاً	ولا قـــرى للنـــازلين عـــاجلا
لا يتقـــي حـــولاً ولا حـــواملاً	يتــرك أصــفان الحــصى جلاجــلا

---

(1) التذكرة الحمدونية ٧ / ٣٨٣ – ٣٨٤. والقصيدة في ديوانه ٣٢ – ٤٨.

(2) ديوان علقمة ١٠٦.

(3) أنساب الأشراف ١٢ / ٢٢٢.

(4) الأغاني ٨ / ٢٨ وشرح النقائض ١ / ١٦٢ – ١٦٣.

فنكصت على عقبي. فقالي لي بنو سليط : أين تريد ؟ فقلت : والله لقد جلجل الحصى جلجلة، لا أكون أول من التَبَأ لَبَأَهُ. فعرفت أنه بحر لا ينكش ولا يفثج، فنكصت وانصرفت عنه، وقلت : ايم الله لا جلجلتني اليوم.[1]

كما هجاه وابنه الهدار بقوله[2] :

إذا أَوضَعَ الرُكبانُ غَوراً وَأَنجَدوا | بِها فَارجُزا يا ابنَي مُعَيَّةَ أَو دَعا

كما أعان الدَّلهمسُ – أحد بني ربيعة – الفرزدقَ على جرير فهجاه جرير بقوله [3]:

لقد نفخت منك الوريدين علجة | خبيثة ريح المنكبين قبوع

ولو أنجبت أم الدلهمس لم يعب | فوارسنا لا عاش وهو جميع

أليس ابن حمراء العجان كأنما | ثلاثة غربانٍ عليه وقوع

فلا تدنيا رحل الدلهمس إنه | بصيرٌ بما يأتي اللئام سميع

هو النخبة الخوار ما دون قلبه | حجابٌ ولا حول الحجاب ضلوع

كما هجا جريرٌ هبيرة بن الصلت الربعي لأنه كان يروي شعر الفرزدق بقوله [4] :

يمشي هبيرة بعد مقتل شيخه | مشي المراسل أوذنت بطلاق

ماذا أردت إلى حين تحرقت | ناري وشمر متزري عن ساقي

إن القراف بمنخريك لبينٌ | وسواد وجهك يا ابن أم عفاق

سيروا فرب مسبحين وقائلٍ | هذا شقاً لبني ربيعة باقي

أبني ربيعة قد أخس بحظكم | لؤم الجدود ودقة الأخلاق

---

(1) مجمع الأمثال ٢ / ٢٣٢.

(2) ديوان جرير ١ / ٤٥٨.

(3) الخبر في الأغاني ٨ / ٢٩، وانظر ديوان جرير ١ / ٤٩٧.

(4) الخبر في الأغاني ٨ / ٢٩ – ٣٠، وانظر ديوان جرير ١ / ٤٣٤.

وكان الأسود بن عبس بن أسماء بن وهب بن رياح بن عوذ بن منقذ بن كعب بن ربيعة الجوع بن مالك بن زيد مناة بن تميم وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : جئت لاقترب إلى الله بصحبتك، فسماه المقرب، وصحب النبي صلى الله عليه وسلم وشهد مع علي صفين وروى الطبري أن عمر استعمل الأسود على جند البصرة، وهو صحابي مهاجري[1].

وقد أخطأ ابن حجر حين نسبه لمالك بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم، رغم أنه ذكر أن ابن ربيعة الجوع، وربيعة الجوع هو ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم [2].

القسم الثاني - شعر بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم :

أولا / مصادر شعرهم :

أشَارَ بشر بن أبي خازم إلى " كتاب بني تميم " وأخَذَ عَنه صِفَة الخيول السَّريعة حين قالَ [3]:

وَجَدنا في كِتابِ بَني تَميمٍ   أَحَقُّ الخَيلِ بِالرَكضِ المُعارُ

ويُقَرِّرُ الدكتور ناصر الدِّين الأسد – بعدما ساقَ عدداً من النُّصوصِ والشَّواهدِ – أنَّ " كتاب بني تميم " الذي أخَذَ منه بشر بن أبي خازم صفة الجياد السريعة مثلُ كُتب سائِر القبائل " مجموعات شعريَّة، تَضُمُّ بين دَفَّتَيها قَصَائد كاملة، ومُقطَّعات قصيرة، وأبياتاً متفرقة لِشُعراء تلك القبيلة أو لبعض شُعرائها، ورُبَّما ضَمَّت أكثر شعر هؤلاء الشُّعراء، بل ربما ضمت جميع شعر شاعرٍ منهم وديوانه كاملاً. ثم تضيف إلى ذلك من الأخبار والنسبِ والقصص والأحاديث وما يتَّصل بالشَّاعر نفسه أو ببعضِ أفراد قبيلته، وما يُوضِّح مُناسبات القصائد، ويُفسِّر بعض أبياتها، ويُبَيِّن ما فيها من حَوادِثَ تاريخية. فيجيءُ كتاب القبيلة بذلك سِجلاً لحوادثها ووقائعها، وديواناً لمفاخرها ومناقبها، ومَعرضاً لِشعر شعرائها " [4].

---

(١) الإصابة ١/ ٢٢٧، وانظر جمهرة النسب ٢٢٩.

(٢) الإصابة ١/ ٢٢٧، وانظر جمهرة النسب ٢٢٩.

(٣) ديوان بشر بن أبي خازم، تحقيق د. عزة حسن، دار الثقافة، دمشق، سوريا، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م ص ٧٨

(٤) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ٤ دد – ددد.

ويذكر ابنُ النَّديم أنَّ أبا سعيد السُّكري صَنَعَ سبعة وعشرين ديواناً من دواوين القبائل[1] منها كتاب "أشعار بني تميم". وما من شكٍّ أنَّ في كتاب "أشعار بني تميم" شِعْراً لِشُعراء بني ربيعة بن مالك، لكن للأسف لم تَصِلْنا هذه الدَّواوين.

"إنَّ من أهَمِّ أسبابِ ضَيَاعِ هذا التُّراث الضَّخم من تُراثِنا العربي الاعتمادَ على الرِّوايةِ الشَّفهيَّة للشِّعْر دُونَ الكِتابة. ثُمَّ تَأخُّر تَدْوينِ الأشْعارِ إلى منتصف القرن الثَّاني مما عَرَّضَ كثيراً منها للنسيان من الرُّواة. إضَافةً إلى تَعَرُّضِ التُّرَاثِ الإسلامي لحملاتٍ شَرِسَةٍ من أعداء الإسلام ممَّا أدَّى إلى دَمَارِ المخزون الثقافي الهائل الذي كانت تحويه عاصمة الخلافة العباسية آنذاك"[2].

لقد كان من أهم مصادري في جمع شعر بني ربيعة كتب الأدب والتاريخ واللغة القديمة الأصيلة، وهذا بحد ذاته يُعطي للشعر قيمة أدبية ولغوية كبيرة.

فمن أهم مصادر شعرهم: معجم الشعراء، والمؤتلف والمختلف، والأغاني، وأنساب الأشراف، وشرح نقائض جرير والفرزدق، وفرحة الأديب، والتعازي والمراثي، والكامل في اللغة والأدب، والمعارف، والشعر والشعراء، وخزانة الأدب، والحيوان، واللآلئ في شرح أمالي القالي، والتذكرة الحمدونية، ومجمع الأمثال، والموشح، ومجالس ثعلب، وسمط اللآلئ، وتاج العروس، ولسان العرب، والمحكم، والمحيط الأعظم، والاشتقاق.

وقد وصل إلينا ديوان علقمة بن عبدة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري وحققه لطفي الصقال ودرية الخطيب وألحقا عليه بعض المقطوعات في الذيل حتى تضمن سبعا وعشرين مقطوعة بلغت بيتين ومائتي بيت شعر وثلاثة أشطر رجز. كما أنَّ المستشرق جاكو هاميل أنتلا جمع شعر حُميد الأرقط في كتابه (أراجيز العرب). كما جَمَعَهُ الدكتور: محمد أحمد شهاب في مقالته بمجلة آفاق الثقافة والتراث عدد ٧١ شهر شوال ١٤٣١هـ بعنوان (حميد الأرقط. حياته وما تبقى من شعره) من ص ١١٨ – ١٣٦ وقد جمع ثمان وسبعين مقطوعة بلغت مائة وتسعة وسبعين شطرا وستة وأربعين بيتا.

---

(١) الفهرست، لأبي الفرج محمد بن إسحاق بن النَّديم، المكتبة التجارية، مصر ١٠١

(٢) شعر بني سعد بن زيد مناة بن تميم. د. أحمد اليحيى ١ / ٢٦٥.

وجمع مما نُسب له ولغيره خمس مقطوعات بلغت تسعة أشطر رجز وبيتا شعريا واحدا.

كما جَمَعَ جاكو أنتلا في كتابه (أراجيز العرب) لغيلان بن حُريث ثلاثا وعشرين مقطوعة بلغت مائة وأربعة وسبعين شطرا. وقد استدركتُ على ما جَمَعَه ستَّ مقطوعات بلغت ستين شطرا.

وقد جَمَعتُ في هذا البحث مائة وخمسة وعشرين شطرَ رجزٍ وثلاثة وعشرين بيتا من الشعر لأحد عشر شاعرا.

ثانيا – مَنْهَجُ الجَمْعِ والتَّوثِيق :

سلكت في جمع وتوثيق شعر بني ربيعة بن مالك خطة منهجية تسير على ما يلي :

١ – جمع شِعرِ بني ربيعة بن مالك من المَصَادِرِ التي استَطَعتُ الاطِّلاعَ عليها. وإثْبَاتُ الشِّعْرِ مَضبُوطاً بالشَّكل.

٢ – ذِكر المَناسبة التي قِيلَ فيها الشِّعر إن وَجَدْتُ لَهُ مُنَاسَبة.

٣ – استِقصاء رِوَايَاتِ الشِّعر في المَصَادِرِ التي اطَّلَعتُ عليها وتوضِيحُ هذه المصادر في التَّخريج.

٤ – شرح الألفاظ الصَّعبة، مُعتَمِداً في ذلك على لِسانِ العرب غالباً. ولا أعتَمِدُ في الشَّرح على مَعاجمَ أُخرى إلا نَادِراً. وذلك إذا لم أجِدْ في اللسان تَوضِيحاً وافِياً لما غَمض من الألفاظ.

٥ – توضيح معاني بعض الأبيات الغامِضَة، مستعيناً بشُروح المؤلفين الثِّقات.

٦ – تخريجُ الشِّعر من المصادر.

٧ – توضيحُ الرِّوايات المختلفة بين المصادر التي وَرَدَ فيها الشِّعر.

٨ – كتابةُ ترجمة مُختَصَرَة عن الشَّاعِرِ.

ثالثا : جمع ما لم يجمع من شعرهم وتوثيقه :

(حرف اللام)

(١)

قال جزء بن العلاء : بحر الوافر

١ – لَعَلَّكِ أُمَّ جزءٍ أنْ تَرَيِنِي كَثِيرَ الخَيرِ ذا أهْلٍ وَمَالِ

المناسبة :

قال الشاعر هذا البيت يخاطب به أمّه. (المعارف ٤٢٢).

التخريج :

البيت في المعارف لابن قتيبة ٤٢٢.

الشاعر :

جزء بن العلاء أحد بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم. يُعرف بالمُرَقَّع. أثرى وكَثُرَ ولده حتى قيل : إنهم وصلوا أربعين. وماتوا جميعا بالطاعون. سَابَقَ جبيرَ بن مريض أحد بني ربيعة بن حنظلة – وكان صاحب خيل – فسبق المرقعُ جبيرا. فقال جبير :

لئن لم يكن فيكنَّ ما أتّقي به غداة الرهان مسهب بن مريض

لينقضينْ حَد الرَّبيع وبيننا من البحر لجٌّ لا يُخاض عريض

وجمَّعتُ خيلَ الناس حتى كأنما أرى غنما حَولي بهن ربوض

ومسهب: فرس جبير.

(التعازي والمراثي للمبرد ٢١٠ والمعارف ٤٢٢ وأنساب الأشراف للبلاذري ١٢ / ٢٥٢)

(حرف الميم)

(٢)

قال جزء بن العلاء : بحر الوافر

١ – دَفَنْتُ الدَّافِعِين الضَّيمَ عَنِّي بِرَابِيَةٍ مُجَاوِرَةٍ سَنَامَا

٢ – أقُولُ إذَا ذَكَرْتُهمُ جَمِيعاً بِنَفْسِيَ تلكَ أصْداءٌ وَهَامَا

٣ - فَلَيْـــتَ حِمَــامُهُمُ إذْ فَارَقُونَــا   تَلَقَّــانَا وَكَــانَ لَنَــا حِمَــامَا

٤ - فَلَــمْ أَرَ مِــثْلَهُم هَلَكُــوا جَمِيعــاً   وَلَــمْ أَرَ مِثْــلَ هَــذا العَــامِ عَامَــا

المناسبة :

هرب المرقع بن العلاء من الطاعون، وله اثنا عشر ابنا - ويذكر ابن قتيبة أنهم أربعون - فماتوا جميعاً فدفنهم في سفح جبل سنام ورثاهم بهذه الأبيات .

(التعازي والمراثي للمبرد ٢١٠، والكامل للمبرد ٣ / ١٣٩٨، والمعارف ٤٢٢).

الشرح :

١- الرّابية : كل ما ارتفع من الأرض. لسان العرب (ربا) وسنام : جبل مشرف على البصرة، وهو أيضا جبل في عالية نجد قريب من بلدة الرُّويضة.

التخريج :

الأبيات مثبتة من التعازي والمراثي للمبرد ٢١٠، وهي باختلاف في الترتيب لرجل من البادية في الكامل للمبرد ٣ / ١٣٩٨. وهي سوى الثالث وباختلاف في الترتيب لجزء بن العلاء في المعارف لابن قتيبة ٤٢٢).

اختلاف الرواية :

٢- في الكامل :

أقول إذا ذكرتُ العهدَ منهم   بنفسي تلك أصداءٌ وهاما

٣ - في الكامل :

فليت حمامهم إذ فارقوني   تلقّانا فكان لنا حماما

٤- في الكامل :

فلم أر مثلهم ماتوا جميعاً   ولم أر مثل هذا العام عاما

وفي المعارف :

فلم أر مثلهم دُفنوا جميعاً   ولم أر مثل هذا العام عاما

[حرف الراء]

(١)

قال حُكَيم بن مُعَيَّة : بحر الرجز

١ – أَحْمِـــي قَنَـــاةً صُـــلْبةً مـــا تَنْكَـــسِرْ

٢ – صَـــمَّاءَ تَمَّـــتْ فـــي نِيَـــافٍ مُـــشْمَخِرْ

٣ – حُفَّـــتْ بِـــأطْوَادٍ جِبَـــالٍ وسَـــمُرْ

٤ – فـــي أشِـــبِ العِيْـــصَانِ مُلْتَـــفِّ الحَظِـــرْ

٥ – فِيهَـــا غَيَايِيـــلُ أُسُـــودٍ ونُمُـــرْ

٦ – خَطَّـــارةٌ تُـــدْمِي خَيَاشِـــيمَ النَّعِـــرْ

٧ – إذا الثِّقَـــافُ عَـــضَّهَا لَـــمْ تَنْـــأطِرْ

التخريج :

الأشطر في فُرحة الأديب في الرد على ابن السيرافي للغندجاني ٨٣ . وهي في شرح شواهد شافية ابن الحاجب لعبد القادر البغدادي ٤ / ٣٨٠، والثالث والرابع والخامس في لسان العرب وتاج العروس (عيل) و (نمر).

اختلاف الرواية :

٣ – في لسان العرب (عيل) : حُفَّتْ بأطوادِ جِبالٍ وحُظُرْ

وفي تاج العروس (عيل) : حُفَّتْ بأطوارِ جِبالٍ وحُظُرْ

وفي شرح شواهد شافية ابن الحاجب : حُفَّتْ بأطوادٍ عِظَامٍ وسَمُرْ

٤ – في لسان العرب (عيل) : في أشِبِ الغِيطانِ ملتَفِّ السَّمُرْ

وفي تاج العروس (عيل) : في أَشِبِ الغِيطالِ مُلتَفِّ السَّمُرْ

وفي شرح شواهد شافية ابن الحاجب : في آشِبِ الغيطانِ مُلتَفِّ الحظرْ

٥ – في لسان العرب وتاج العروس (عيل) :

فيها عيابيلَ أُسودٌ ونُمُرْ

وفي شرح شواهد شافية ابن الحاجب : فيها عيائيلَ أُسودٌ ونُمُرْ

الشاعر :

هو حُكَيم بن مُعَيَّة بن أبي صعبة أحدُ بني المُجِرّ بن ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، راجز إسلامي معاصر لجرير والفرزدق والعجاج وحُمَيد الأرقط كانت عنده امرأة من بني سليط، وكان حُكَيم راجزاً، وكان جرير يهجو بني سليط، فقالت بنو سليط لحُكَيم : قبحك الله من صهر قوم، هذا الغلام يقطع أعراضنا – يعنون جريراً – وأنت راجز بني تميم لا تعين أبا بنتك، فخرج حُكَيم نحوه وأقبل مع بني سليط فلما قرب من موقف جرير سمعه يقول :

لا تحسبني عن سليط غافلاً	أن تغش لسيلاً بسليط نازلا
لا تلق أفراساً ولا صواهلاً	ولا قرى للنازلين عاجلا
لا يتقي حولاً ولا حواملاً	يترك أصفان الحصى جلاجلا

فنكص حُكَيم على عقبيه، فقال له بنو سليط : أين تريد ؟ فقال : والله لقد جلجل الحصى جلجلة لا أكون أول من التبأ لبأه، فأرسلت مثلاً.

ومعنى لا أكون أول من التبأ لبأه : لا أعرض نفسي لهجائه ولا أتحكك به.

(شرح شواهد شافية ابن الحاجب ٤ / ٣٨١، مجمع الأمثال للميداني، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر د.ت ١٩٥٥م ٢ / ٢٣٢، والمستقصى في الأمثال للزمخشري، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٩٦٢م ٢ / ٢٥١، وأنساب الأشراف ١٢ / ٢٢٢، وذيل اللآلئ ٣٧ – ٣٨، من اسمه عمرو من الشعراء ترجمة ١٥٨)

(حرف الراء)

(٢)

قال حُكَيم بن مُعَيّة :   بحر الرجز

١ – إنِّي إذا مَا طَارَت الزَّنَابِرْ

٢ – ولقّحت أيديها عَواسـرْ

التخريج :

الرجز في المعاني الكبير في أبيات المعاني لابن قتيبة الدينوري، تحقيق : سالم الكرنكوي، دار النهضة الحديثة، ص ٨١٩ .

(حرف الراء)

(٣)

قال حُكَيم بن مُعَيَّة :   بحر الرجز

١ – تَرْفِدْ فِي الصِّرّ وَإِنْ تُشَاجِرِ

٢ – تَكُنْ مَجَالِيحَ الشّتَاءِ الجَازِرِ

المناسبة :

يَصِفُ حُكَيم إبلا. (مجالس ثعلب، لأبي العباس يحيى بن أحمد ثعلب، تحقيق : عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، ١٩٦٠م ص ٢٩٩)

الشرح :

١– تَرْفِد : تملأ المِرْفَدَ (القَدَح الذي تُحتَلَبُ النَّاقةُ فيه).

٢ – المَجَاليح : النُّوق التي تَدِرُّ في الشّتاء. لسان العرب (جلح)

التخريج :

الرجز في مجالس ثعلب، لأبي العباس يحيى بن أحمد ثعلب، تحقيق : عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، ١٩٦٠م ص ٢٩٩.

(حرف الزاي)

(٤)

قال حُكَيم بن مُعَيَّة :   بحر الرجز

١ – لو ولد الناس أبو أريز

٢ – مَا جَاءَ إلا بامْرِئٍ غَمِيزِ

٣ – مُوَطَّأ العِزِّ لَئِيمِ التُّوزِ

٤ – أبْقَى علَى الذُّلِّ مِن النَّهُوزِ

الشرح :

٢ – الغَمِيز : الضَّعيف المَعِيب. لسان العرب (غمز)

٣ – التُّوز : الطَّبيعة والخُلُق. لسان العرب (توز).

٤ – النَّهُوز : النَّاقة التي لا تَدِرُّ حتى يُضْرَب لَحْياها. لسان العرب (نهز).

التخريج :

الأمالي لمحمد بن العباس اليزيدي. عناية د. محمد نظام الدين. حيدر آباد الدكن. ١٩٤٨م ص ٤٨.

والشطر الأخير في المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده وتاج العروس ولسان العرب (نهز) بلا نسبة.

(حرف العين)

(٥)

قال حُكَيم بن مُعَيَّة : بحر الرجز

١ – إنَّا إذا قَلَّتْ طَخارِيرُ القَزَعْ

٢ – وصَدَرَ الشارِبُ منها عن جُرَعْ

٣ – نَفْحَلُها البِيضَ القَلِيلاتِ الطَّبَعْ

٤ – مِن كلِّ عَرّاضٍ، إذا هُزَّ اهْتَزَعْ

٥ – مِثْلِ قُدامى النَّسْرِ ما مَسَّ بَضَعْ

٦ – يَؤُولُها تَرْعِيَةٌ غيرُ وَرَعْ

٧ – لَيْسَ بِفانٍ كِبَراً ولا ضَرَعْ

٨ - تَـــرى بِرِجْلَيْـــهِ شُـــقُوقاً فـــي كَلَـــعْ

٩ - مِـــن بـــارِئٍ حِـــيصَ ودامٍ مُنْـــسَلِعْ

١٠ - لـــم تَـــرْتَمِ الـــوَحْشُ إلـــى أيـــدي الـــذَّرَعْ

التخريج :

الرجز سوى العاشر في لسان العرب (طبع) لحُكَيم بن مُعَيَّة أو لأبي محمد الفقعسي. والسادس والثامن والعاشر في لسان العرب (قسس) بلا نسبة. ومن السادس وحتى التاسع في لسان العرب (كلع) لحُكَيم. والسادس والثامن في تهذيب اللغة (قص) بلا نسبة. والثامن والتاسع في لسان العرب (سلع) لحُكَيم وكذا في المحكم والمحيط الأعظم (كلع) بلا نسبة وفي تاج العروس (سلع) لحُكَيم أو لأبي محمد الفقعسي وفي شرح أبيات المنطق ٢١٩ لأبي محمد الحذلمي. والتاسع في الصحاح (سلع) لراجز لم يُسَمَّ.

اختلاف الرواية :

٦ - في لسان العرب (قسس) وتهذيب اللغة (قص) :

يَتْبَعُها تَرْعِيَةٌ قَسٌّ وَرَعْ

(حرف العين)

(٦)

قال حُكَيم بن مُعَيَّة : بحر الرجز

١ - ونَسَعَتْ أسْنَانُ عَوْدٍ فانْجَلَعْ

٢ - عُمُورُهَا عَنْ نَاصِلاتٍ لَمْ تَدَعْ

الشرح :

١ - نَسَعَتْ الأسْنَان : إذا طالَتْ واسْتَرْخَتْ حتى تَبْدُو أُصولُها التي كانت تُواريها اللِّثةُ وانْحَسَرَت اللِّثةُ عنها. لسان العرب (نسع).

التخريج :

الرجز لحْكَيم في تهذيب اللغة ولسان العرب وتاج العروس (جلع)، بلا نسبة في لسان العرب وتاج العروس (نسع).

اختلاف الرواية :

٢ - في لسان العرب (نسع) :

عُمُورَهَا عَنْ نَاصِلاتٍ لَمْ يَدَعْ

(حرف الفاء)

(٧)

قال حْكَيم بن مُعَيَّة : بحر الرجز

هَلْ مِنْ فَتًى يَسْقِي لشيخٍ دالِفِ

قد كان في الحياةِ ذا عَــجَارِفِ

الشرح :

١ - الدَّليف : المَشْيُ الرُّوَيد. لسان العرب (دلف).

٢ - العَجرَفَة : السُّرْعَة في المشي. لسان العرب (عجرف).

التخريج :

الرجز في كتاب الأمثال لأبي فيد مؤرج السدوسي، تحقيق : د. رمضان عبد التواب، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٦٢.

حرف القاف

(١)

قال الصَّقْر بن حْكَيم بن مُعَيَّة : بحر الرجز

١- قـــد أقْبَلــــتْ طَوامِيــــاً مِـــن مَـــشْرِقِ

٢ - تَرْكَـــبُ كـــلَّ صَحْـــصَحانٍ أخْـــوَقِ

٣ – يـــا ابــن رُقَيْــعٍ هــل لهـــا مـــن مَغْبَـــقِ

٤ – مـــا شـــــرِبَتْ بعـــــد طَـــويّ القَـــــرْيَقِ

٥ – مـــن قطـــرةٍ غيــــر النَّجـــاءِ الأدْفَـــقِ

٦ – هــل أنْــتَ ســاقِيها سَـــقَاك المُـــسْتَقي

الشرح :

١– الطَّوامي : المرتفعة. وقيل : المسرعة. لسان العرب (طما)

٢ – الصَّحصحان : الأرض المستوية. لسان العرب (صحح) والأخوق : الواسع. لسان العرب (خوق).

٤ – الطَّويُّ : البئرُ المطويَّة بالحجارة. لسان العرب (طوي) والقَرْيَقْ : اسم موضع ذكرَ ياقوت أنَّ أبا عبيدة قال : هو البصرة. معجم البلدان ٤ / ٣٢٠.

٥ – النجاء : السَّحاب أول ما يَنْشأ. لسان العرب (نجا) والأدفق : السَّريع. لسان العرب (دفق).

التخريج :

الأشطر في لسان العرب (قربق) وتاج العروس (قربق) والثالث بلا نسبة في الاشتقاق ٢٧٥ والشطر الثالث والرابع والخامس تنسب كذلك لسالم بن قحفان باختلافٍ في الرواية.

الشاعر :

الصّقر بن حَكيم بن مَعيَّة بن أبي صعبة أحدَ بني المَجرِّ بن ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم.

(لسان العرب (قربق) وتاج العروس (قربق) من اسمه عمرو من الشعراء ترجمة ١٥٨).

[حرف الميم]

(١)

قال علقمة بن سهل الخصي : بحر الوافر

١ – زعمتم أن ناجي بنت جرم عجوزٌ بعد ما بلي السنام

٢ – فإن كانت كذاك فألبسوها فإن الحلي للأنثى تمام

الشرح :

١ – ناجية بنت جرم بن ربان زوجة سامة بن لؤي بن غالب.

التخريج :

البيتان في الأغاني ١٠ / ٢٤٩ .

الشاعر :

عَلقمةُ بن سهْلِ بن عمارة، أحد بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم. يكنى أبا الوضاح. يُقال له : الخصيّ، وسبب خصائه أنه أُسر باليمن في الجاهلية فهرب فظُفر به ثم هرب مرة أخرى، فأُخذ فخصي، فهرب ثالثةً. وكان ذا يسار، شَهِدَ على قدامة بن مظعون عامل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على البحرين بشرب الخمر فحَدَّه عمر. وقال لعمر: أتقبل شهادةَ خصيٍّ ؟ فقال عُمر: أمَّا شهادتُك فنَعَمْ.

يكنى أبا الوضاح وكان له إسلام وقدر وكان شاعراً. مات بالبحرين. وقيل : إن بني الحارث بن كعب نفّروا به بعيره فسقط فمات.

(الشعر والشعراء ١ / ٢٢٠. والمؤتلف والمختلف ١٥٢. والحيوان ١ / ١٢٠، وأنساب الأشراف ١٠ / ٢٦٠ و١٢ / ٥٥٢)

[حرف الياء]

(٢)

قال علقمة بن سهل الخصي : بحر الطويل

١ – يقول رجالٌ من صَديق وحاسِدٍ أراكَ أبا الوَضَّاح أصْبَحْتَ ثاوِيَا

٢ – فلا يَعْدَمِ البانونَ بَيْتاً يُكِنُّهُم ولا يَعْدَمِ الميراثَ مِنّي المَوَاليا

٣ – وجَفَّـتْ عُيـونُ الباكيـاتِ وأَقبَلـوا إلى مـا لِهـم قـد بِنْتُ عنـه وماليَـا

٤ – حَراصاً علـى مـا كُنْتُ أجْمَعُ قَبلَهم هَنِيئاً لهـم جَمْعِي وما كُنْتُ وانِيَـا

٥ – ودُلِّيـتُ فـي زَوْراءَ ثُمَّـتَ أعنَقـوا لِـشأنِهِمُ قَـدْ أفْرَدُونـي وشَانِـيا

٦ – فأصبـح مـالي مـن طَـريفٍ وتالـدٍ لغيري وكانَ المالُ بالأمس ماليا

المناسبة :

قال علقمة هذه الأبيات حين حضرته الوفاة (أنساب الأشراف ١٢ / ٢٥٥)

التخريج :

الأبيات الأربعة الأول في الشعر والشعراء ١ / ٢٢١ والمؤتلف والمختلف ١٥٣ وأنساب الأشراف ١٠ / ٢٦٠ و ١٢ / ٢٥٥. والثاني والرابع والخامس والسادس في الحيوان ١ / ١٢١.

اختلاف الرواية :

١ – في المؤتلف والمختلف :

يقول رجال من صديقٍ وصاحب أراك أبا الوضاح أصبحت ثاويا

وفي أنساب الأشراف ١٠ / ٢٦٠ :

يقول رجال من صديق وحاسد نراك أبا الوضاح أصبحت ثاويا

وكذا في أنساب الأشراف ١٢ / ٢٥٥ :

يقول رجال من صديق وحاسد نراك أبا الوضاح أصبحت باليا

٢ – في الحيوان :

فلن يَعْدَمَ الباقون قبراً لجثَّتي ولن يعدَم الميراثَ منِّي المواليا

وفي أنساب الأشراف ١٠ / ٢٦٠ :

فلا يعدم الباقون بيتاً يكنهم ولا يعدم الميراث بعدي واعيا

وكذا في أنساب الأشراف ١٢ / ٢٥٥ :

فلا يعدم البانون بيتاً يكنهم ولا يعدم الميراث بعدي واعيا

٣ – في المؤتلف والمختلف :

وجفت عيون الباكيات وأقبلوا إلى ما لهم قد بنت عنه بماليا

وفي أنساب الأشراف ١٠ / ٢٦٠ و١٢ / ٢٥٥ :

وجفت عيون الباكيات وأقبلوا ... إلى مالهم إذ بنت منهم وماليا

٤ – في الحيوان :

حِراصٌ على ما كنت أجمعُ قَبْلَه ... هَنِيئاً لهمْ جَمْعِي وما كنتُ والِيا

وفي المؤتلف والمختلف :

حراصاً على ما كنت أجمع قبلهم ... هنيئاً لهم جمعي وما كنت آليا

وفي أنساب الأشراف ١٠ / ٢٦٠ :

حراصاً على ما كنت أجمعه لهم ... هنيئاً لهم جمعي فما كنت واليا

وكذا في أنساب الأشراف ١٢ / ٢٥٥ :

حراصاً على ما كنت أجمعه لهم ... هنيئاً لهم جمعي فما كنت وانيا

(حرف الباء)

(١)

قال عمرو بن حُكَيم بن مُعَيَّة : ... بحر الرجز

١ – هَلْ تَعْرِف الدَّارة مِن أمِّ وَهْبْ

٢ – إذ هي خَودٌ عَجَبٌ من العَجَبْ

٣ – فيما اشْتَهَتْ من خُبْزِ بُرٍّ وَحَلَبْ

٤ – تَقْتُلُ كُلَّ ذي زَوجٍ وَعَزَبْ

الشرح :

٢ – الخَودُ : الفتاة حَسَنة الخَلق الشَّابة. لسان العرب (خود).

٤ – العَزَبُ من الرّجال : مَن لا زوجَ له. لسان العرب (عزب).

التخريج :

الأبيات في مَن اسمه عمرو من الشعراء ترجمة ١٥٨. وهي سوى الثالث في معجم الشعراء ٢٤١.

الشاعر :

عمرو بن حُكَيم بن مُعَيَّة بن أبي صعبة أحدَ بني المُجِرّ بن ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، شاعر إسلامي.

(من اسمه عمرو من الشعراء ترجمة ١٥٨. ومعجم الشعراء ٢٤١)

(حرف العين)

(٢)

قال عمرو بن حُكَيم بن مُعَيَّة : بحر الطويل

١ – خليليَّ أمسى حُبُّ سَمْرَاء ممرِضِي	ففي القلب مني وقدة وصدوعُ
٢ – ولو جاورتنا العام سمراء لم نبل	على جَدْبنا ألا يَصوبَ رَبيعُ
٣ – لقد عَلِمَتْ سَمْراءُ أنَّ حَدِيثَها	نَجِيعٌ كَمَا مَاءُ السَّمَاءِ نَجِيعُ
٤ – إذا آمَرَتْنى العَاذلاتُ بِصَرمِها	هَفَتْ كَبِدٌ عَمَّا يَقُلْنَ صديعُ
د – وكيفَ أُطيعُ العَاذِلاتِ وحُبُّها	يُؤَرِّقُني والعَاذِلاتُ هُجُوعُ

الشرح :

١ – الوَقْدَة : نَفَسُ النَّار. لسان العرب (وقد).

٢ – يقول : لو اتفق في هذا العام معها اجتماع لم نُبَالِ وإن أجْدَبْنَا ألا يقع مطر. إذ كان التبرك بها والاستسعاد الشامل بمكانها يقوم مقام كل خصب. (شرح الحماسة للمرزوقي ٣ / ١٤٢١).

التخريج :

الأبيات في سمط اللآلي ١ / ١٣٣. والثلاثة الأخيرة في الأمالي للقالي ١ / ٢٩. والبيتان الأولان في معجم الشعراء ٢٤١ والتذكرة الحمدونية ٦ / ٨٣ وشرح الحماسة للمرزوقي ٣ / ١٤٢١.

اختلاف الرواية :

١- في معجم الشعراء :

خليليَّ أمسى حبُّ خرقاءَ عامدي   وفي القلبِ منه وقرة وَصُدوعُ

وفي شرح الحماسة للمرزوقي :

خليليَّ أمسى حُبُّ خَرْقاءَ عَامِدِي   ففي القلب منه وقرة وصدوعُ

وفي التذكرة الحمدونية :

خليليَّ أمسى حبُّ خرقاءَ عامدي   ففي القلبِ منه زفرةٌ وَصُدوعُ

٢- في معجم الشعراء وشرح الحماسة للمرزوقي :

ولو جاورتنا العام خرقاءَ لم نُبَلْ   على جَدْبِنَا إلاّ يَصُوب ربيعُ

وفي التذكرة الحمدونية :

ولو جاورتنا الآن خرقاءَ لم نُبَلْ   على جَدْبِنَا إلاّ يَصُوب ربيعُ

حرف اللام

(١)

قال عون بن عمرو بن حُكَيم بن مُعَيَّة :   بحر الطويل

١- وَإنْ يَكُ هَذَا الجرمُ أَرْهَبَ عَنْكُمْ   لِسَانِي فَشَوَّال بِكُمْ شَالَ شَائِلُهْ

المناسبة :

كان أربد بن ضابئ بن رجاء الكلبي مجاوراً لبني ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم فقال يهجوهم بالجوع :

بِسَمْنَانَ بَولِ الجُوعِ مُسْتَنقعاً بِهِ   قَدْ اصْفَرَّ مِنْ طُولِ الإقَامَةِ حَائِلُهْ

بِبرْقَانِهِ ثُلْثٌ وَبِالخَرْتِ ثُلْثُهُ   وَبِالحَائِطِ الأعْلَى أقَامَتْ عَيَائِلُهْ

لَهُ صُفْرَةٌ فَوقَ العُيُونِ كَأنَّهَا   بَقَايَا شُعاع الأفْقِ واللَّيلُ شَامِلُهْ

في أبيات، فَردَّ عليه عون بن عمرو في أبيات لم يصلنا منها سوى هذا البيت.

(المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء ٢٦)

التخريج :

البيت في المؤتلف والمختلف ٢٦.

الشاعر :

عون بن عمرو بن حُكَيم بن مَعَيَّة بن أبي صعبة أحدُ بني المُجِرّ بن ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم. لم أهتدِ إلى معرفة شيء عنه فيما بين يديَّ من المصادر.

(المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء ٢٦. من اسمه عمرو من الشعراء ترجمة ١٥٨).

حرف الراء

(١)

قال غُدَافُ بن بُجْرَة الرَّبَعِيُّ : بحر الرجز

١ – جافِي اليَدَينِ عَنْ مُشاشِ المُهُرِ

الشرح :

١– المُشاشُ : كلُّ عظم لا مُخّ فيه يُمْكنك تتبّعه. لسان العرب (مشش)

والمُهَر : مَفاصِلُ مُتلاحِكَةٌ في الصَّدْر. وقيل : هي غَراضِيفُ الضُّلوع. لسان العرب (مهر).

التخريج :

الشطر في المحكم والمحيط الأعظم (مهر) وبلا نسبة في لسان العرب (مهر) وتاج العروس (مهر) والصحاح (مهر).

الشاعر :

غُدَافُ بن بُجْرَة بن بشير بن حُكَيم بن مُعَيَّة بن أبي صعبة أحدُ بني المُجِرّ بن ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم. لم أهتدِ إلى معرفة شيء عنه فيما بين يديَّ من المصادر.

(تاج العروس (نوك) وأنساب الأشراف ١٢ / ٢٢٢ وشرح ديوان جرير لمحمد بن حبيب ١ / ٤٥٨ من اسمه عمرو من الشعراء ترجمة ١٥٨).

حرف اللام

(٢)

قالَ غُدَافُ بن بُجْرَةَ الرَّبَعِيُّ : بحر الرجز

١ – قُلْـتُ لِقَـومٍ خَـرَجُوا هَـذَالِيلْ

٢ – نَـوْكَى ولا يَنْفَـعُ لِلنَّـوْكَى القِيـلْ

٣ – احتَـذِرُوا لا يُلْفِكـم طَمَالِيـلْ

٤ – قَلِيلَـةٌ أَمْوالُهُـمْ عَـرَازِيلْ

٥ – يَرْمُـونَ رَمْيـاً وَاسِـعَ الأَحالِيـلْ

الشرح :

١ – هَذَالِيلُ : مُتَقَطِّعون.

٢ – نَوكى : حَمقى.

٤ – عَرَازِيلٌ : مجتمعون.

التخريج :

الرجز كاملا في تاج العروس (عرزل) والأربعة الأول بلا نسبة في لسان العرب (عرزل) وفي تاج العروس (نوك) منسوبة له. والأول والثالث بلا نسبة في المحكم والمحيط الأعظم ولسان العرب وتاج العروس (حذر).

اختلاف الرواية :

٣ – في المحكم ولسان العرب (عرزل) : احْتَذِرُوا لا تَلْقَكم طَمَالِيلْ

وفي لسان العرب (حذر) : احْتَذِرُوا لا يَلْقَكُم طَمَالِيلْ

حرف الهاء

(٣)

قال غُدَافُ بن بُجْرَةَ الرَّبَعِيُّ : بحر الرجز

١ – عَنْ مُهْرَةِ الزَّوْرِ وعَنْ رَحاها

الشرح :

١ – المُهْرة : مفرد المُهَر. وهي : مَفاصِلُ مُتلاحِكَةٌ في الصَّدْرِ. وقيل : هي غَراضِيفُ الضُّلوع. لسان العرب (مهر)

الزَّوْرُ: الصَّدْرُ. وقيل : وسط الصدر. وقيل : أعلى الصدر. وقيل : مُلْتَقَى أطراف عظام الصدر حيث اجتمعت. لسان العرب (زور).

التخريج :

الشطر في المحكم والمحيط الأعظم (مهر) ولسان العرب (مهر) وتاج العروس (مهر)

(حرف الباء)

(١)

قالت غَضُوب بنتُ مُعَيَّة : بحر الرجز

١ – بنــــو سبيـــــعٍ زمَـــــع الكـــــلابِ

٢ – ليـــــسوا إلــــى ســــعدٍ ولا الرِّبـــابِ

٣ – ولا إلـــــى القبائـــــل الرِّغـــــابِ

٤ – كــم فــيهم مــن طَفَلَــةٍ كَعَــابِ

٥ – وكُمـــــاءَ ذاتِ رَكَـــــبٍ قَـــــبقَابِ

٦ – خبيثـــة المُـــشعَر فـــي الثيـــابِ

٧ – تتبـــعُ كُـــلَّ عَـــزَبٍ وَثَّـــابِ

المناسبة :

كانت غضوب ناكحا في بني سبيع. فكانت مع زوجها زماناً ثم تزوج عليها امرأة منهم. فأولعت بهم تهجوهم، وقالت هذه الأبيات.

(أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام لمحمد بن حبيب. ضمن كتاب نوادر المخطوطات لعبد السلام هارون ٢ / ٢٩٢)

الشرح :

٤ – الكَعَاب : المرأةُ حينَ يبدو ثديُها للنُّهود. لسان العرب (نهد).

التخريج :

الأبيات في أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام لمحمد بن حبيب ضمن كتاب نوادر المخطوطات لعبد السلام هارون ٢ / ٢٩٢

الشاعرة :

غَضُوب بنت مُعَيَّة بن أبي صعبة أحدُ بني المُجِرّ بن ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، أخت الشاعر حُكَيم بن مُعَيَّة، شاعرة قال عنها محمد بن حبيب (شاعرة بَذِيَّة) وكان زوجها في بني سبيع فكانت مع زوجها زماناً ثم تزوج عليها امرأة منهم فَهَجَتْ قومَه. فأوعدها رجال منهم شخص يُقالُ له : مربع بن سُبيع. وبنو وقدان وبنو سيار وبنو مجمع. فتَعَقَّبوها فَضَرَبها مِربع فقتلها وقال :

شفيتُ الغليلَ من غضوبَ فأصبحت	لها إرم في رأس علياء عاقلِ
سأنقم منها جهلها وسفاهها	وإيضاعها في كلِّ حقٍّ وباطلِ
ألا لا تُراعوا إنما هي لصَّةٌ	تَسَارَعَ فيها فتيةٌ بمناصلِ

فَعَرَضَ قومُ مربع الدِّيةَ على قومها فأبوا.

وقد هجا جرير بني ربيعة بن مالك بذلك في قوله :

بَني العَبدِ لو كنتم صَريحاً لِمالِكٍ	لَوَرَّعتمُ دونَ الظَعائِنِ مِربَعا
تَدارَكَ مِنهُم مِربَعٌ يَومَ عاقِلٍ	ظَعائِنَ قَد راءى بِهِنَّ وَسَمَّعا
ألا إنَّما كانَت غَضوبُ مُحامِياً	غَداةَ اللِوى لَم يَدفَعِ الشَرَّ مَدفَعا

فِدىً لَكَ إِذ جَدَّعتَ بِالسَيفِ أَنفَها　　　وَأَبدَيتَ مِنها عاسِياً غَيرَ أَجدَعا

(ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب ١ / ٤٥٨، وأسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام لمحمد بن حبيب ضمن كتاب نوادر المخطوطات لعبد السلام هارون ٢ / ٢٩٢ و٢٩٣، وأنساب الأشراف للبلاذري ١٢ / ٢٢٢، وخزانة الأدب الشاهد ٦٦١، من اسمه عمرو من الشعراء ترجمة ١٥٨).

(حرف اللام)

(٢)

قالت غَضوب بنت مُعَيَّة :　　　بحر الرجز

١ – يا مربعاً يا مربعَ الضَّلالِ

٢ – يا فاخرٍ مستقبلِ الشمالِ

٣ – على بعيرٍ غير ذي جلالِ

٤ – يا مربعاً هل حَان من إقبالِ

المناسبة :

قالت غَضوب هذا الرَّجز لما تَوَعَّدها مربع بن سبيع بعدَ هِجائها له ولقومه. وذلك عندما تزوّج عليها زوجُها امرأة منهم.

الشرح :

١ – مربع : هو ابن سبيع هَجَته غَضوب وقومَه فتوعَّدها وقتلها.

التخريج :

الأبيات في أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام لمحمد بن حبيب ضمن كتاب نوادر المخطوطات لعبد السلام هارون ٢ / ٢٩٣.

(حرف التاء)

(١)

قال غَيلانُ بن حريث الربعي :　　　بحر الرجز

١ – يا صَاحِبي أَبْشِر بما مَنَّيتا

٢ – من مَلكٍ لِخَيرِهِ دُعِيتَا

٣ – تُرِيدُ يا بنَ الأرْبَعينَ صِيتا

٤ – في بيتِ مَجْدٍ تَجْمَعُ الشَّتِيتا

٥ – سُمِّيتَ بالزَّائِدِ إذْ سُمِّيتَا

٦ – رَآكَ مَروانُ إذ انْتضَيتا

٧ – أهلاً لِما وُلِّيتَ إذْ وُلِّيتا

٨ – نَقَاوةً كُنْتَ لما انتقيتا

٩ – نُصِرْتَ يومَ العَينِ إذ لقيتا

١٠ – كَنَصْرِ داوودٍ على جَالوتا

١١ – أبْلَيتَ إحْسَاناً فَما نَسِيتا

١٢ – إذ جِئْتَ بالصّراةِ مُسْتَمِيتا

١٣ – جند ابن جمهور بهم أغريتا

١٤ – إذا خَبَتْ نَارُهُمُ حَمِيتا

١٥ – حتى ثَنَوا قَسْراً وما ثنيتا

١٦ – يَقُولُ مَنْ مَرَّ بِهِ خَزِيتا

١٧ – إنْ كُنْتَ عَطْشَاناً فَقَدْ رَوِيتا

المناسبة :

قال غيلانُ هذا الرجز يمدح به يزيد بن عمر بن هبيرة في قتاله للخوارج يوم عين التَّمر وقتلَ المثنى بن عمران العائذي وانهزم منصور بن جمهور ومَنْ معه منهم سنة سبع وعشرين ومائة.

(تاريخ الأمم والملوك للطبري ٤ / ٢٩٠)

الشرح :

١٢ – الصَّرَاة : نهر ينشعب من الفرات ويجري إلى بغداد. معجم ما استعجم ٣ / ٨٢٩.

١٣ – ابن جمهور : هو منصور بن جمهور أحد قادة الخوارج ضد ابن هبيرة.

١٧ – يريد أنَّ منصور بن جمهور وقع في الماء أثناء المعركة ثُمَّ أُخرجَ.

التخريج :

الرجز سوى الشطرين التاسع والعاشر في جمل من أنساب الأشراف ٩ / ٢٧٩ – ٢٨٠. والتاسع والعاشر في تاريخ الأمم والملوك للطبري ٤ / ٢٩٠.

الشاعر :

غيلان بن حُريث أحد بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم. راجز كان له ذكر في فتن البصرة أيام ابن هبيرة والخوارج.

(جمل من أنساب الأشراف ٨ / د٢٣ و ٣٠٤ و ٩ / ٢٧٩. وتاريخ الأمم والملوك للطبري ٤ / ٢٩٠)

(حرف الدال)

(٢)

قال غَيلانُ بن حريث الربعي : بحر الرجز

١ – يا مِسْوَرَ بنَ عُمَرَ بنَ عَبَّاد

٢ – يا سَيّدَ المِصْرَينِ وابنَ الأسيَاد

٣ – وخيرَ مَنْ غَابَ وخَيرِ الشُّهَّاد

٤ – كَمْ فِيكُمُ أبيضَ واري الأزْنَاد

د – مقابل العمِّ كريم الأجداد

٦ – إنكَ يومَ السَّبتِ غيرَ حَيَّاد

٧ – بالسيفِ ضَرّابٍ رُؤوسَ الصُّدَّاد

المناسبة :

قال غيلان هذا الرجز في مدح مِسْور بن عمر بن عبَّاد في فتنة عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان سنة ست وعشرين ومائة.

(جمل من أنساب الأشراف ٨ / د٢٣ و ٣٠٤).

الشرح :

١ – مِسْور بن عمر بن عبَّاد بن الحصين الحبطي من بني تميم، كان على شَرَطِ البصرة لعبد الله بن عمر بن عبد العزيز حصلت بينه وبين سهيل بن عبد العزيز بن مروان

فتنة. ومن المصنّفين مَن ينسب مِسورا لجدّه فيقولون مِسور بن عبَّاد.كان جدُّهُ عبَّاد بن الحُصين أحد فُرسان تميم في الإسلام، وليَ عبَّاد شُرط البصرة أيام ابن الزبير.

التخريج :

الرجز في جمل من أنساب الأشراف ٨ / ٢٤٠

(حرف الراء)

(٣)

قال غَيلانُ بن حريث الربعي : بحر الرجز

١ – لقد جَلَبتَ الخيلَ من مغَارِها

٢ – مِنْ غُوطَةِ الشَّامِ وأقصى دَارِها

٣ – في لجبٍ أرْعَنَ مِنْ جرارِها

٤ – لا يُعْرَفُ البلقُ من اعْتِكارِها

٥ – كأنَّها الرَّاياتِ في أقْمارِها

٦ – عقبان دجن الظلِّ في أقطَارِها

٧ – حتى بَعَثْتَ الخيلَ من مغَارِها

٨ – إلى الصّراةِ وإلى أنْبَارِها

٩ – لِشَيخ شَيبان وأَصْلِ دَارِها

١٠ – وَلِصِّها الدَّاعِي إلى بَوَارِها

المناسبة :

قال غيلانُ هذا الرَّجز في مدح يزيد بن عمر بن هبيرة في قتاله الخوارج.

(جمل من أنساب الأشراف ٩ / ٢٧٩)

الشرح :

٢ – غُوطة الشام : قَصَبة دِمَشق. معجم ما استعجم ٣ / ١٠٠٨.

٩ – شيخ شيبان : يريد الضَّحَّاك بن قيس الشيباني أحد قادة الخوارج.

التخريج :

الأبيات في جمل من أنساب الأشراف ٩ / ٢٧٩.

(حرف الراء)

(٤)

قال غَيلانُ بن حريث الربعي : بحر الرجز

١ – بيضٌ تَعاطى من جنيّ عنبرهْ

٢ – والمسكَ صرفاً شَذَباً مُكسَّرهْ

٣ – يا رُبَّ خودٍ طَفْلةٍ معطَّرهْ

٤ – تميسُ في أثوابها المشهَّرهْ

٥ – إنْ زُرْتَهَا محجوبةٌ مُخَدَّرهْ

٦ – وجدتَ من خلفِ الجدارِ الخَمَرهْ

التخريج :

الأبيات في المحب والمحبوب والمشموم والمشروب للسَّريّ بن أحمد الرَّفَّاء. تحقيق : مصباح غلاونجي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق. ١٩٨٦م ٣ / ١٧٤، والأربعة الأبيات الأخيرة في الكتاب نفسِهِ ٤ / ٢٢ بلا نسبة.

اختلاف الرواية :

٤ – في المحب والمحبوب والمشموم والمشروب ٤ / ٢٢ :

مُعجَبَةٌ بِحُسْنِها مُشَمِّرهْ

٥ – في المحب والمحبوب والمشموم والمشروب ٤ / ٢٢ :

إنْ جِئْتَهَا محجوبةٌ مُخَدَّرهْ

(حرف الفاء)

(٥)

قال غَيلانُ بن حُرَيث الربعي : بحر الرجز

١ – لمَّا رأيتُ الملحِدِين أسرفُوا

٢ – وَقَادَهُم للحين دينٌ أحنَفٌ

٣ – رَمَيتَهُم بذي دهَاءٍ تَزحَفٌ

٤ – قَوَاعِدُ الأرضِ له وتَرْجفُ

٥ – عَمْراً أصابوا والمُثَنَّى أتْلَفوا

٦ – وأمَّ كردوسٍ نَسَاهَا يَنْطِفُ

٧ – وَيَومَ رَوحَاء العذيب ذَفَّفوا

٨ – على ابن مَوروقٍ فأضْحَى يَنْزِفُ

٩ – وَهَرَبَ المجدول رَكضاً يَزْحَفُ

المناسبة :

قال غيلان هذا الرجز في قتالِ يزيد بن عمر بن هبيرة للخوارج يوم روحاء العُذَيب بعد انتصارهِ عليهم يوم عين التَّمر سنة سبع وعشرين ومائة.

(تاريخ الأمم والملوك للطبري ٤ / ٢٩٠)

الشرح :

٥ – عمرو : أحد رجال الضَّحَّاك بن قيس الشيباني. والمثنى : هو ابن عمران العائذي قرشيٌّ من الخوارج ولاَّه الضَّحَّاك الكوفة.

٦ – أمُّ كردوس : زوجة عُبيدة بن سوار التغلبي خارجيٌّ، أحدُ رجال الضَّحَّاك بن قيس. والنَّسا : عِرقٌ من الورك إلى الكعب. لسان العرب (نسا).

ويَنطِفُ : يَقْطُرُ. لسان العرب (نطف).

٧ – العُذيب : موضعٌ من الكوفة على مرحلة من ناحية نجد. بلاد العرب للأصفهاني ٣٣٧، وفيه يومٌ ليزيد بن عمر بن هبيرة على الخوارج بقيادة منصور بن جمهور سنة سبع وعشرين ومائة.

والذَّفُّ : الإجْهازُ على الجَريح. لسان العرب (ذفف)

٨ – هو البرذون بن موروق الشيباني أحدُ الخوارج وكان في جُند منصور بن جمهور، وهو في تاريخ الأمم والملوك البرذون بن مرزوق.

٩ – المجدول : يريد منصور بن جمهور قائد الخوارج يوم روحاء العُذيب.

التخريج :

الرجز كاملا في جمل من أنساب الأشراف ٩ / ٢٨٠ والسابع والثامن في تاريخ الأمم والملوك للطبري ٤ / ٢٩٠.

اختلاف الرواية :

٧ – في تاريخ الأمم والملوك : دفَّفوا .

٨ – في تاريخ الأمم والملوك : على ابن مرزوقٍ سمامٌ مُزْعِفُ

(حرف اللام)

(٦)

قال غَيلانُ بن حريث الربعي : بحر الرجز

١ – أمَا وَرَبِّ الكَعْبَةِ المفَضَّلة

٢ – عَلَى البُيُوتِ كُلِّها المُؤثَّلـه

٣ – إنَّ بني الأعَزِّ أعْنِي حَنْظَلَة

٤ – وآلَ عَمْرو ألحَمُوا فِي المَنْزِلَه

٥ – بِمَأزِقٍ يُخَافُ فِيهِ المَقْتَلَه

٦ – ضَنْكٍ تَرَى أبْطَالَهُ مُجَدَّلَه

٧ – تَميمِيُّونَ حَولَ التُّرجُمَانِ قنبله

٨ – حَولَ أغَرَّ لَمْ يَكُن يُزَمِّلُه

٩ – مِنْ آلِ سُفْيَانَ كَرِيمِ المَعْدَلَه

١٠ – مُرْتَفِعِ الطَّرْفِ طَوِيلِ المَحْمَلَه

١١ –يَضْرِبُ في الغَمَّا لُيُوثَ الغَيطَلَه

التخريج :

الأبيات في جمل من أنساب الأشراف ٨ / ٢٤٠.

حرف الباء

(١)

قال كُناز بن نفيع الربعي : بحر الطويل

١ – غَضِبْتَ علينا أن عَلاك ابن غالب فهَلاَّ على جَدَّيك في ذاك تَغضَبُ

٢ - هما حينَ يَسْعَى المَرْءُ مَسعاةَ أَهْلِهِ   أناخا فشَدّاكَ العِقالَ المُؤَرَّبُ

٣ - وما يُجْعَلُ البَحْرُ الخِضَمُّ إذا طما   كَجُدٍّ ظَنُونٍ ماؤُه يُتَرقَّبُ

٤ - أَلَسْتَ كُلَيْبِيّاً لألأَمِ والِدٍ   وألأمِ أُمٍّ فَرَّجَتْ بكَ أو أَبُ

المناسبة :

قال كُنّاز هذه الأبيات في الحرب بين جرير والفرزدق. فقد كان حَكيم بن مُعَيَّة أو الدلهمس – وهو أحد بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم – ممن كان يُفضِّل الفرزدقَ على جرير. فهجاه جرير في أبيات منها :

لقد نفخت منك الوريدين علجةٌ   خبيثة ريح المنكبين قبوع

فانتصرَ الشاعر له على جرير وقال هذه الأبيات.

(الأغاني ٨ / ٢٩ وأنساب الأشراف ١٢ / ٢٢٣ ومعجم الشعراء ٣٥٢ ولسان العرب (أهل)

الشرح :

١ – ابن غالب : يعني به الفرزدق (همام بن غالب).

٢ – يريد : أن سيرة آبائك وأجدادك لِسَوْئِهَا لم تترك لك سبيلا للسعي في سبيل المجد.

التخريج :

الأبيات في لسان العرب (أهل) والثلاثة الأول في أنساب الأشراف ١٢ / ٢٢٣ له أو لأخيه ربعي بن نفيع أو للدلهمس. والأول والثاني في معجم الشعراء ٣٥٣ له أو لأخيه ربعي. وكذا هما في تاج العروس ولسان العرب (أرب) وفي الأغاني ٨ / ٢٩ لقبضة الكلب.

اختلاف الرواية :

١ – في معجم الشعراء :

غضبت علينا يا ضلال ابن غالب   فهلا على جديك في ذاك تغضب

٢ – في الأغاني : هما إذ علا بالمرء مسعاة قومه   أناخا فشداك العقال المؤرب

وفي معجم الشعراء ولسان العرب وتاج العروس :

هما حين يسعى المرء مسعاة جده أناخا فشداك العقال المؤرب

وفي أنساب الأشراف : هما إذ سَمَت بالمرء مسعاة قومه أناخا فَشَدّاً بالعقال المؤدّب

٣ – في أنساب الأشراف : ومن يَجْعَل البَحْر العظيم إذا طما كَحد ظَنُونٍ ماؤه يُتَرقّبْ

الشاعر:

كُناز بن نفيع الرِّبعي أحد بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم. كان معاصرا لجرير، له أخ يدعى ربعي بن نفيع (أنساب الأشراف ١٢ / ٢٢٣، ومعجم الشعراء ٣٥٣)

حرف الفاء

(١)

قال الهَدّار بن حَكَيم بن مُعَيَّة : بحر الرجز

١ – مَــنْ غَــالَ أو أقــرَفَ بَعْــضَ الإقْــرَافْ

٢ – فَخَــصَّهُ اللّه بحمــى قرْقَــافْ

٣ – وَبِحَمِيــمٍ مُحْــرِقٍ لِلأَجْــوَافْ

٤ – والزَّمْهَرِيــرِ بَعْــدَ ذَاكَ الزفْــزَافْ

٥ – وَكَبَّــهُ فــي هــوَّةِ ابــنِ الوَصَّــافْ

٦ – حتــى يُعَــدَّ قَبْــرُهُ فــي الأجْــدَافْ

٧ – مَالَــكَ عِنــدِي كَــدَرٌ ولا صَــافْ

٨ – إلا دُعَــاءَ اللّه غَيْــرَ مُجْتَــافْ

٩ – هُــوَ الــذِي يَخْلُــقُ مَــا فــي الأضْـعَافْ

١٠– وعَلَّــمَ الخَــطَّ بِمِــيمٍ أو كَــافْ

المناسبة :

قال الهدّار هذا الرجز يدعو به على رجل يقال له : مقرف أو قرف.

(فرحة الأديب للأسود الغندجاني ٩٨ . ومعجم البلدان (هوّة ابن الوصّاف).

الشرح :

١ – غال : أتى أمرا منكرا. لسان العرب (غول) وأقرف : رمى بالذنب وكذب. لسان العرب (قرف).

٤ – الزمهرير الزفزاف :الريح شديدة البرودة ولها صوت. لسان العرب (زمهر و زفف)

٥ – هوة ابن الوصاف : دحلٌ بالحزن لبني الوصاف من بني عجل. والوصاف : مالك بن عامر بن كعب بن سعد بن ضبيعة بن عجل بن لجيم. وهوة الوصاف : مثل في العرب يستعملونه في الدعاء على الإنسان. يقال :كبّه الله في هُوَّة ابن الوصّاف (فرحة الأديب ٩٧)

التخريج :

الأبيات في فرحة الأديب في الرد على ابن السيرافي للأسود الغندجاني ٩٨، والأبيات الستة الأولى في معجم البلدان (هوّة ابن الوصّاف) وهو عنده : الهدّاد بن حكيم.

الشاعر :

الهَدّار بن حُكَيم بن مُعَيَّة بن أبي صعبة أحد بني المُجِرّ بن ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، راجز إسلامي، لكني لم أجد له فيما بين يدي من المصادر سوى هذه الأشطر، هجاه جرير هو وأباه حُكَيم بقوله :

إذا أوضَعَ الرُّكبانُ غَوراً وَأَنجَدوا بِها فَارجُزا يا ابنَي مُعَيَّة أو دَعا

(ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب ١ / ٤٥٨ ومن اسمه عمرو من الشعراء ترجمة ١٥٨)

القسم الثالث - شعر بني ربيعة: دراسة فنية وموضوعية

توطئة :

ترتكز هذه الدراسة على بعض المفاهيم المستقرة في الذاكرة الأدبية والنقدية، منطلقة منها لاستلهام بعض الرؤى الجديدة نسبيا والتي لا تسعى إلى مزاحمة تلك المستقرة، بل إلى مجاورتها ضمن الخارطة الأدبية والنقدية المعاصرة، كما تسعى إلى إعادة بعض الحقوق المسلوبة من خلال الاستقراء الصائب والاستنباط العلمي والرؤية المغايرة، مع محاولة اتشاحها بالمنهج العلمي الموضوعي.

ومن الملاحظ أن ثمة حركية بنيوية ترتكز بشكل جلي على تموقع المتلقي ذي الثقافات المتباينة من البنى النصية - الجزئية والكلية - التي يتفاعل معها وهو بصدد تلقي - ومن ثم إعادة إنتاج - النص الشعري وما ينضح به من المعاني والدلالات، والتي تلتحم بطرائق متباينة بشتى العناصر الفنية المسهمة في تشكيل البنية النصية الشعرية الكبرى، ومن هنا فإنه يعي ما آل إليه من مهام، بما يخول له إمكانية تغيير وضعية أي من هذه الدلالات الشعرية، إن هذه المهام تأتت من خلال المحاكاة الشعرية؛ إذ إن "المعنى الذي تقدمه المحاكاة إلى المتلقي هو معنى متميز، مرتبط أصلا بموقف المبدع وغايته، وبالتالي فإن تأثر المتلقي بهذا المعنى إنما هو استجابة مرتبطة بموقف المبدع من العالم، ومرتبطة بالكيفية التي انتقلت بها الموجودات إلى هذا المتلقي من خلال المحاكاة"[1].

يثير مصطلح الشعر كثيرا من المشاعر والأحاسيس في النفس، وربما يبدو هذا طبيعيا لأسباب عدة، منها ارتباطه بالشعور وبكل ما هو داخلي في النفس البشرية، ومنها تغلغله في شتى مناحي الحياة التي يتفاعل الإنسان معها على مدار مراحله الحياتية.

وإذا خصصنا مصطلح الشعر بصفة العربي وكنا بصدد الحديث عن الشعر العربي، فإن فورة من المشاعر المرهفة، والإرهاصات الوجدانية تأخذ في الظهور بصورة أكثر وضوحا وتركيزا، وربما يزعم البعض أن مرد هذه المكانة المرموقة التي احتلها الشعر

---

(1) جابر عصفور: مفهوم الشعر.. دراسة في التراث النقدي، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ٢٤٤.

في المجتمع العربي هو الطبيعة اللغوية للشعر، والمتمثلة في الموسيقى والوزن والقافية، بما يؤهله للارتكاز في الذاكرة وضعف إمكانية انسلاته منها بسهولة، لكن بمزيد من التمعن يردف بالطبيعة اللغوية كثير من الأمور، من أهمها المعنى ذلك الجوهر الذي يمثل النواة التي تستقطب شتى الخصائص والظواهر، وشتى عناصر العملية الإبداعية. فالمبدع يضع المعنى نصب عينيه ويحاول تقديمه دون تعريته للمتلقي بشكل جذاب.

ثم يأتي كل من الناقد والدارس الأدبي والباحث السوسيولوجي محاولين قدر استطاعتهم قراءة هذه النصوص الشعرية بآليات متباينة بتباين توجهاتهم الثقافية والأيديولوجية. كل منهم يظل منساقا بتلك الروح التي تسري في كيان الشعر؛ حيث المعنى يمثل المحرك الحقيقي لأطراف العملية الإبداعية جميعها، داخل النص الشعري وخارجه.

لذا فإن المعنى في الشعر العربي يتمحور حول عناصر متعددة يقوم فيها الشاعر بوظيفة لا تزيد عن الوظائف التي تقوم بها العناصر الأخرى التي لا يتشكل المعنى إلا بهم، ووفق أدائهم مهامهم المحددة سلفا، والتي يمكن أن يتبادلوها فيما بينهم عن تراض منهم، أو تبعا لتفوق عنصر على آخر، كما تتطلب طبيعة هذا النص أو ذاك.

إن مهام الشاعر تتمثل في إنتاج هذه الدلالة الشعرية - التي ربما لم يكتشف أسرارها كلية، سواء عن عمد أو دون إرادة منه - المتمثلة في القصيدة أو البيت الشعري، أو لنقل النص الشعري. وبانتهاء الشاعر من قصيدته لن تكتمل العملية الإبداعية دون طرف أو عنصر أساسي. إنه المتلقي الذي عليه أن يخترق هذه اللعبة الشعرية، يمارسها محاولا فك شفراتها وطلاسمها مستمتعا ما أمكن بها، وربما يلعبها مرارا وتكرارا، وفي كل مرة يزداد خبرة في ممارستها وتزداد ألفته بها، وحينئذ تتحول من لعبة إلى مجال خصب للذة والمتعة اللتين تقترنان آنئذ بالنص الشعري برمته، بغض النظر عن منتج هذا النص، وربما يستفيد متلق من آخر خاض غمار لعبة شعرية ما، وهنا يتم تبادل الخبرات، أو المباهاة بين اللاعبين حول تمكن أي منهم من لعبته الشعرية.

نحن بذلك أمام عناصر ثلاثة: الشاعر - النص الشعري - المتلقي، وأيضا لا تكتمل العملية الإبداعية بهذه العناصر فحسب، بل ثمة عناصر أخرى لا يمكن إغفالها، بعضها يقع في صلب النص الشعري، والآخر يغلف هذه العناصر كلها، إنه السياق بكل ما تشمله

هذه الكلمة من معان ودلالات. لذا فإنه من الضروري النظر في شتى السياقات التي يتولد النص دلاليا في رحابها. وبالطبع ليس المقصود هنا السياق الذي أبدع فيه الشاعر نصه، وإن كان هذا مهما، لكنه لا يشكل أهمية تجعله في صدارة السياقات الكلية التي لا تؤطر النص فقط، بل العملية الإبداعية برمتها. إنني أرى أن السياق الذي يحوي عملية تلقي النص الشعري ذاته من أجدر السياقات بالدراسة، وأكثرها مقدرة على التأثير في عملية التلقي التي تتطابق في كثير من الأحيان مع عملية الإبداع ذاتها. إن عملية التلقي هي بالفعل عملية تولد المعاني والدلالات التي يتشكل النص الشعري منها وبها.

إن علاقة المبدع بالنص الذي أنتجه تنتهي بمجرد إتمامه، والمقصود هنا علاقته السلطوية أو علاقة الأبوة. إنه لم يعد يمتلك أية سلطة عليه، وعلاقته آنئذ تتشابه كثيرا مع علاقة أي متلق آخر.

وأخيرا.. سوف أحاول قدر الإمكان الإفادة من معظم المناهج والرؤى النقدية؛ لأن أي منهج "لا يمتلك كفاية إجرائية مطلقة، وما هو إلا أداة يتوسل بها الباحث لتحقيق الأهداف المحددة"[1]، فقد تعددت المناهج والمذاهب النقدية في الآونة الأخيرة تعددا لافتا، ويسعى أنصار كل منهج أو مذهب إلى استقطاب أكبر عدد من المؤيدين، من خلال عرض مزايا منهجهم، أو من خلال دحض آراء المناهج النقدية الأخرى وتفنيدها.

وإذا كان هذا ينطبق بدرجة كبيرة على شتى الأنماط والأشكال والأنواع الأدبية الحديثة، أو الحداثية - كما يروق للبعض تسميتها - فإن الأمر يبدو مختلفا حينما نكون إزاء الأدب العربي القديم بعصوره المختلفة، ذلك لأسباب عدة، منها: اتساع الهوة الزمنية بين عصور إبداع هذه النصوص، وعصر تلقيها الحالي، أي وقت إبداعها ووقت تلقيها. وكذلك اختلاف المعجم اللغوي، والشعري بوجه عام، والمستخدم في نسج هذه النصوص عن المعجم المستخدم في النصوص الإبداعية الحديثة، والواقع الذي نحياه، وأخيرا عدم نقاء تلقي تلك النصوص الأدبية التراثية، بمعنى أن المتلقي قلما يتلقاها منفردة نقية دون ما كتب حولها من دراسات وأبحاث قديمة أو حديثة تحاول إضاءة

---

(١) عبد العالي بو طيب: إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث، عالم الفكر، الكويت، مجلد ٢٣، ١٩٩٤م، ص٤٦٤.

النص من وجهة نظرها. أو تكبيله وقصره على وجهة نظر أحادية، بغض النظر عن مدى صحتها، لكنها بشكل من الأشكال تقيد المتلقي الحالي، أو على الأقل تجعله مترددا إلى حد ما لتبني وجهة نظر مغايرة، ارتكازا على مقولة: ليس في الإمكان أحسن مما كان.

وعليه فإنني بذلك لن أقتفي آثار غيري من الدارسين الذين عمدوا إلى محاولة استقصاء مثالب من سبقوهم، لا لشيء إلا لإثبات ريادتهم، وسلب أية فائدة لغيرهم، إنني أحترم آراء كل من سبقني . ومن يتلوني . أو لنقل أحترم كل القراءات السابقة واللاحقة، لأنه من حق أي إنسان أن يتلقى أي نص إبداعي من زاويته الخاصة، ومن حقه كذلك محاولة إثبات صحتها وجدواها واتساقها مع غيرها من الرؤى، أو تفردها وجدتها، بما لا يقلص من قيمة عمله بأي حال من الأحوال. ولكن ما ليس من حقه هو محاولة تسييج من يتلوه من متلقين، بأن يرسم لهم طريقا محددا يجب ألا يحيدوا عنه.

ربما تبدو جدة هذه الدراسة في فكرتها، أو فيما تطرحه من فرضيات أو آراء أو تصورات، لكن التحاور العلمي هو السبيل الأرقى لمزيد من تولد الرؤى، سواء وافقت أم عارضت رؤانا... وعزاؤنا أنّا أخلصنا الدرس واجتهدنا قدر الاستطاعة. والله تعالى نسأله التوفيق والسداد.

شعر بني ربيعة، الماهية والأغراض الشعرية :

من الشائع أن "معرفة الجو العام الذي يحيط بالقصيدة والظرف الذي قيلت فيه تسهم في تصور الفكرة التي أريد نقلها إلينا، وطبيعة الشعور الذي صاحب الفكرة". لكن بهذا يتم تحديد الأفكار والمعاني بشكل آلي تبع لمعرفة الجو العام أو المناسبة التي قيل فيها النص الشعري؛ مما يضعف وظيفة المتلقي إلى حد ما في الإعلان عن رأيه، ومدى نجاح الشاعر في إيصال ما أراده للمتلقي.

وإذا كان ثمة من يرى أن "الأفكار والمعاني التي تشيع في القصيدة لا تخرج في الغالب عن إطار المناسبة والغرض الذي قيلت فيه مدحا أو هجاء أو رثاء"[١]، فإنني أرى أن الأمر يبدو معكوسا، بمعنى أن بعض الرواة أو مؤرخي الأدب استقوا أو حددوا المناسبة

---

(١) حمد بن ناصر الدخيل: شعر شواعر بني حنيفة في الجاهلية والإسلام، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد ٢٢، شوال ١٤٢١هـ ص ٣٨٣.

التي قيل فيها النص الشعري ارتكازا على الأفكار والمعاني التي يتضمنها النص، والتي نجحوا هم في استنباطها. ومن هنا تصبح هذه المناسبة عبارة عن وجهة نظر قرائية معينة، مما يضر إلى حد ما بالنص الشعري ويجعله أحادي المعنى. من خلال إحاطة النص بسياج شائكة تفرض على المتلقين تبني الرؤية النقدية المحددة.

وقد دَرَسَ البحث شِعْرَ ثلاثة عشر شاعرا ينتمون إلى بني ربيعة، وهم :

١. جزء بن العلاء.

٢. حُكَيم بن مُعَيَّة .

٣. حُمَيد الأرقط (سبق جمع شعره).

٤. الصَّقر بن حُكَيم بن مُعَيَّة.

٥. علقمة بن سهل الخَصِيّ .

٦. علقمة بن عبدة الفحل (سبق جمع شعره) .

٧. عمرو بن حُكَيم بن حُكَيم بن مُعَيَّة.

٨. عون بن عمرو بن حُكَيم بن مُعَيَّة.

٩. غداف بن بجرة الربعي.

١٠. غضوب بنت مُعَيَّة .

١١. غيلان بن حريث الربعي.

١٢. كَناز بن نفيع الربعي.

١٣. الهَدَّار بن مُعَيَّة .

وثمة تفاوت واضح من زاوية كَمِّ الإنتاج الشعري لهؤلاء الشعراء، فكان نصيب أحدهم بيتا شعريا واحدا فقط، وهو عون بن عمرو بن حكيم بن معية، وكان نصيب آخر أربعة أبيات شعرية فقط، وهو كناز بن نفيع الربعي، بينما كان أكثرهم إنتاجا للشعر علقمة بن عبدة الفحل، إذ كان نصيبه بيتين ومائتي بيت شعر وثلاثة أشطر رجز. وحُميد الأرقط، إذ كان نصيبه سبعا وأربعين بيتا ومائة وثمانية وثمانين شطرا من الرجز. وكان كلهم من الرجال عدا شاعرة واحدة فقط، هي غضوب بنت مُعَيَّة.

وسوف أعرض الآن دراسة موضوعية وفنية لشعر بني ربيعة، بغية إضاءة مضامين أشعارهم، وما تحتويه من قيم جمالية وفنية وبلاغية، مع مراعاة أن الشعر المجموع قابل للإثراء والزيادة.

أمكن توزيع شعر بني ربيعة محل الدِّراسة ـ مائتين واثنين وسبعين بيتا شعريا (٢٧٢) وأربعمائة وثلاثين شطرَ رجز (٤٣٠) ـ على خمسة أغراض شعرية، وثمة وعي لدينا بتداخل معظم الأغراض الشعرية من جانب، وكذلك عدم نقائها من جانب آخر[1]. فعلى سبيل المثال ثمة تداخل بين غرضي المدح والفخر؛ فكثيرا ما يجد الشاعر نفسه وهو في حالة مدح أحد الأشخاص مضطرا إلى التفاخر به، وعرض خصاله الحميدة ومآثره... وهكذا، وأيضا إذا عمد إلى بناء نص شعري يندرج ضمن غرض الفخر، فهو غالبا ما يمدح، بل ربما يهجو أعداء هذا الممدوح ممن تغلب عليهم، أو حاولوا النيل منه دون جدوى؛ بما يسلم إلى تداخل آخر بين غرضي المدح والهجاء، كما أن غرض الغزل ما هو إلا ضرب من المدح، لكنه مخصص لمدح المرأة المحبوبة أو المعجب بها، سواء أكان هذا الغزل عفيفا أو صريحا.

إنني عمدت في تصنيفي هذا إلى أكثر الأغراض الشعرية وضوحا في الشعر العربي عامة، وأكثرها وجودا في تاريخ الأدب العربي، وهي أغراض: الرثاء ـ الغزل ـ الفخر ـ المدح ـ الهجاء، لكن ثمة أغراض أخرى اختلف كثيرا حول وجودها وفق آلية محددة، مثل أغراض: الاستغاثة ـ الحرب ـ الحكمة ـ الوصف.... وبالطبع توجد نصوص شعرية ـ سواء أكانت عبارة عن أبيات قليلة العدد، أو قصائد طويلة أو قصيرة ـ قد يجد المتلقي صعوبة ما في تحديد الغرض الشعري الصائب الذي تمثله، ومعظم هذه النصوص قد نتردد بالفعل في وصفها بالنص، كون النص يعرف بأنه "القول اللغوي المكتفي بذاته والمكتمل في دلالته"[2]، ولكن ثمة كثيرا من الأبيات التي ظهرت في كتب اللغة والبلاغة والأدب من خلال بترها من نصها؛ إذ يغلب الظن أنها لبنة من نص شعري ما كان يتضمنها، من هنا

---

(١) حول عدم نقاء النمط أو الغرض، انظر: توماشفسكي: نظرية الأغراض، ضمن: نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلانيين الروس، ترجمة: إبراهيم الخطيب، ط. مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الأولى، ١٩٨٢م، ص٢١٧.

(٢) سعيد بحيري: علم لغة النص الأدبي، ط. لونجمان، القاهرة، ص٣٢.

رأيتُ جَمْعَ مثل هذه الأغراض البينية ـ كونها متلونة قد تصلح للاندراج ضمن أكثر من غرض ـ أو الخادمة التابعة ـ كونها تتبع غالبا غرضا ما لخدمته، بل ثمة من لا يعدها من الأغراض الشعرية المستقلة، رأيتُ جمعها معا فيما يمكن تسميته الغرض الموقفي، بمعنى أن معظم النصوص الشعرية المندرجة ضمن هذا الغرض العام المتنوع نتجت ضمن موقف عابر محدد.

فشعر بني ربيعة يتسم بمزيج من المشاعر الإنسانية والأحاسيس البشرية من قبيل الحزن، فيظهر غرضا الرثاء والهجاء، وكذلك الأنفة والكبرياء، فتظهر أغراض الفخر والحرب والمدح، وكذلك الرقة، فيظهر غرضا الغزل والرثاء... وهكذا.

هذا بالطبع مع الوعي بوجود من يسفه من قيمة فكرة الغرض الشعري، فلا يعدها "فكرة واضحة أو دقيقة، بل هي فكرة فضفاضة يلفها الغموض"، على الرغم من مناقضته نفسه باستثناء سبعة أغراض: "إذا استثنينا بعض الأغراض البارزة كثيرة الدوران في الشعر كالأطلال والغزل والمدح والفخر والهجاء والرثاء والحكمة"[1]. إننا بقراءة شعر بني ربيعة نظفر بأغراض شعرية محددة، وفيما يلي جدول يوضحها، وعدد الأبيات الشعرية والأشطر لكل غرض، ونسبتها إلى المجموع الكلي لشعر بني ربيعة، وعدد شعراء كل غرض وأسماءهم:

م	الغرض	عدد الأبيات والأشطر	نسبتها	عدد شعرائه	أسماؤهم
١	الرثاء	٧	١٪	٢	جزء بن العلاء، علقمة الفحل.
٢	الغزل	٥٤	٨٪	٣	علقمة الفحل، عمرو بن حكيم، غيلان بن حريث.
٣	الفخر	٢٨	٤٪	١	علقمة الفحل.

(١) وهب أحمد رومية: شعرنا القديم والنقد الجديد، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٠٧، شوال ١٤١٦هـ ص ١٤٦.

م	الغرض	عدد الأبيات والأشطر	نسبتها	عدد شعرائه	أسماؤهم
٤	المدح	٨١	١٢%	٢	علقمة الفحل، غيلان بن حريث.
٥	الهجاء	٧٣	١٠%	٦	حميد الأرقط، علقمة الفحل، غضوب، غيلان، كناز، الهدار.
٦	الغرض الموقفي	٤٥٩	٦٥%	١٠	جزء، حكيم، حميد، الصقر، علقمة الخصي، علقمة الفحل، عمرو، عون، غداف، غيلان.

وعلى الرغم من الاختلاف حول مفهوم القصيدة والحد الأدنى لعدد أبياتها: فالأخفش يقول "ليست القصيدة إلا ثلاثة أبيات"[1]، ويقول ابن رشيق: "إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة"[2]، فإننا نلحظ في شعر بني ربيعة انتشار المقطعات الشعرية أو القصائد القصيرة والأراجيز، وبقراءتها يتبين لنا اتسامها بالوحدة الشعورية الموضوعية والفكرية، والترابط القوي بين الأبيات، واختصاص كل مقطعة بغرض شعري محدد، وبغض النظر عما يقال حول هذه المقطعات من ارتباطها بحياة بعض الشعراء، سواء أكانوا جاهليين أو مخضرمين أو إسلاميين.... وكذلك بحياة الصحراء المتطلبة - في أغلب الأحيان - التنقل والسرعة، والمرتبطة عند البعض الآخر - كالصعاليك - بحياة الصراع والنهب والمخاطرة.

إن إبداع المقطعات الشعرية لا يقلل من القيمة الفنية للشعر ذاته، ومن ثم لشعرائه، بل إن هذه المقطعات شكلت عادة شعرية، ونمطا إبداعيا خاصا يبدو أكثر التحاما بالحياة المعيشة ذات الطابع الخاص.

وسأحاول بيان طبيعة كل غرض من هذه الأغراض، من خلال النظر إلى شعر بني ربيعة كله، مع التركيز النسبي على شعر علقمة بن عبدة الفحل، كونه يعد من أكثر

---

(١) اللسان، مادة "قصد".

(٢) ابن رشيق القيرواني: العمدة، ١/ ١٨٩.

شعراء بني ربيعة نظما للشعر، إذ ثبت له سبعة وعشرون نصا شعريا : ثلاث قصائد طوال، مثلت مائة وتسعة وثلاثين بيتا شعريا: خمسة وخمسين بيتا ـ خمسة وأربعين بيتا ـ تسعة وثلاثين بيتا. وأربع وعشرون مقطوعة شعرية، مثلت ثلاثة وستين بيتا وثلاثة أشطر شعرية. كما يتسم ديوان علقمة الفحل ـ عَلَمِ شعراء بني ربيعة ومؤشر نبوغهم الشعري والفني والإبداعي بوجه عام ـ بالتنوع على أصعدة عدة، ومن أشهرها الأغراض الشعرية، حيث أنتج أشعارا تندرج ضمن أغراض: الغزل، والفخر، والمدح، والهجاء، وغيرها من الأغراض البينية، مثل: الاستغاثة، والوصف.

١ – الغزل:

يعد الغزل أشد الشعر وقعا في النفوس لدى شعراء بني ربيعة الذين اهتموا بوصف الجمال وبالتغزل في المحبوبة. وينتشر هذا الغرض في معظم النصوص الشعرية خاصة القصائد الطوال، وانعكس على ظهور المقدمة الغزلية التي زاحمت المقدمة الطللية وتفوقت عليها في أحيان كثيرة، فعلى الرغم من أن المعلقة قد "رسمت المنهج العام للمقدمات الطللية في الشعر العربي، ووضعت التخطيط الفني لها، وحددت معالم الطريق"[1]، لكن تلك المقدمات لم تكن الوحيدة في تاريخ القصيدة العربية.

وغرض الغزل ظهر في سبعة نصوص شعرية، مثلت هذه النصوص ثمانية وأربعين بيتا، وستة أشطر، وشكلت ٨ % من العدد الكلي لأبيات شعر بني ربيعة. أنتج هذه النصوص ثلاثة شعراء، هم: علقمة بن عبدة الفحل (خمسة نصوص / ثلاثة وأربعون بيتا، مثلت ٨٠ % من شعر الغزل)، وعمرو بن حكيم (نص واحد / خمسة أبيات، مثل ٩ % من شعر الغزل)، وغيلان بن حريث الربعي (نص واحد / ستة أشطر رجز، مثل ١١ % من شعر الغزل). أي أن نسبة تواتر هذا الغرض في شعراء بني ربيعة تمثّل ثلاثا وعشرين في المائة (٢٣ %) من العدد الكلي للشعراء. ويمكن عرض ما سبق في الجدول الإحصائي التالي:

---

(١) يوسف خليف: دراسات في الشعر الجاهلي، دار غريب، القاهرة، د. ت، ص ١٢٨.

الغرض	عدد النصوص	عدد الأبيات والأشطر	نسبتها	عدد الشعراء	نسبة عددهم
الغزل	٧	٤د	٨ %	٣	٢٣ %

أسماء شعراء غرض الغزل من بني ربيعة	عدد الأبيات والأشطر	نسبة أشعارهم
علقمة بن عبدة الفحل	٤٣ بيتا	٨٠ %
عمرو بن حكيم	د أبيات	٩ %
غيلان بن حريث الربعي	٦ أشطر	١١ %

ظهر الغزل لدى علقمة الفحل في خمسة نصوص، واحتل ثلاثة وأربعين بيتا شعريا (٨٠ %). ويعد أكثر الأغراض الشعرية توظيفا لدى علقمة الفحل بعد الغرض الموقفي المتوزع على عدة أغراض بينية، إذ مثّل إحدى وعشرين في المائة من شعره (٢١ %).

ويلاحظ أن مقدمات القصائد الثلاث الطوال لعلقمة الفحل تبدأ جميعها بمقدمات غزلية. حيث لم يتحدث عن أطلال الحبيبة، بل تحدث عن الحبيبة نفسها، وتدور تلك المقدمات الغزلية حول وصف الحبيبة وصفا حسيا ومعنويا. كما تغنى بجمالها الجسدي والنفسي، إضافة إلى تصوير عواطفه ومشاعره.

ومن أشهر الأمثلة للمقدمات الغزلية المقدمة التالية التي تصدرت قصيدته الطويلة التي مدح فيها الحارث بن جبلة بن أبي شمر الغساني، والذي كان أسر أخاه شأسا فرحل إليه يطلبه فيه، يقول[(١)]:

طَحا بِكَ قَلبٌ في الحِسانِ طَروبُ ... بُعَيدَ الشَبابِ عَصرَ حانَ مَشيبُ

تُكَلِّفُني لَيلى وَقَد شَطَّ وَلْيُها ... وَعادَت عَوادٍ بَينَنا وَخُطوبُ

(١)ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري ٣٢ – ٣٤.

مُنَعَّمَــــــةٌ لا يُــــــسْتَطاعُ كَلامُـــــها عَلَـى بابِهـا مِـن أن تُـزارَ رَقيـبُ

ذا غـابَ عَنهـا البَعـلُ لَـم تُفـشِ سِـرَّهُ وَتُرضي إِيابَ البَعلِ حينَ يَؤوبُ

فَـــلا تَعـــدِلي بَينـــي وَبَـــينَ مُغَـــمَّرٍ سَقَتكِ رَوايا المُزنِ حَيثُ تَصوبُ

سَـــقاكِ يَمـــانٍ ذو حَبِـــيٍّ وَعـــارِضٍ تَـروحُ بِـهِ جُـنحَ العَـشِيِّ جَنـوبُ

وَمـــا أَنـــتَ أَم مـــا ذِكرُهـــا رَبَعِـــيَّةً يُخَـطُّ لَهـا مِـن ثَرمَـداءَ قَليـبُ

إن الأبيات الشعرية الغزلية المبثوثة ضمن النصوص الشعرية لبني ربيعة، سواء أكانت قصائد طوالا أم مقطعات قصيرة، تفيض بالمشاعر والأحاسيس الصادقة التي يشعر بها الشاعر/المبدع. كما أن هذه الأبيات الشعرية التي تمثل بنية جزئية تسهم في البنية الشعرية الكلية للنص، إضافة إلى كونها حافزا حركيا يسهم في تغيير وضعية مستقرة في بعض الأحيان، تؤكد أن "غاية الشعر هي التأثير، والتأثير يعني تغيرا في الاتجاه وتحولا في السلوك"[1].

٢ – الهجاء :

يعد الهجاء من أنجع الوسائل التي تستخدمها القبيلة العربية ـ خاصة الجاهلية ـ في مواجهة خصومها، وهنا يكون الهجاء قبليا، لكن هذا لا ينفي اندراجه ضمن الشعر الذاتي في بعض الأحيان، حينما يذكر على الصعيد الفردي/الشخصي.

وبالنظر في شعر بني ربيعة نلحظ تواجد نمطي الهجاء القبلي والفردي. ومثّل عامة ١٠% من الحجم الكلي لشعر بني ربيعة، وجاء في ثمانية عشر بيتا شعريا، وخمسة وخمسين شطر رجز، أنتجها ستة شعراء، هم: علقمة الفحل ـ كناز ـ غضوب ـ غيلان ـ الهدار ـ الأرقط. أي أن نسبة تواتر هذا الغرض في شعراء بني ربيعة تمثّل ستا وأربعين في المائة (٤٦ %) من العدد الكلي للشعراء.

ويمكن عرض ما سبق في الجدول الإحصائي التالي:

(١) جابر عصفور: مفهوم الشعر.. دراسة في التراث النقدي، ص ٧ د.

الغرض	عدد الأبيات والأشطر	نسبتها	عدد الشعراء	نسبة عددهم
الهجاء	٧٢	١٠٪	٦	٤٦٪

أسماء شعراء غرض الهجاء من بني ربيعة	عدد الأبيات	نسبة أشعارهم
١. حميد الأرقط	٢٤	٤٧٪
٢. علقمة بن عبدة الفحل	٤	٥٪
٣. غضوب	١١	١٥٪
٤. غيلان بن حريث الربعي	١٠	١٤٪
٥. كناز بن نفيع الربعي	٤	٥٪
٦. الهدار بن حكيم	١٠	١٤٪

ومن نماذج الهجاء الفردي هجاء حميد بن الأرقط لضيفه، في قوله:

يخر على الأطنابِ من جذلِ بيتنا ... هجفٌ لمخزونِ التَّحيَّةِ باذلْ

يقولُ وقد ألقى المراسيَّ للقرى ... أبن ليَ ما الحجَّاجُ بالنَّاسِ فاعِلُ

فقلتُ: لَعَمري ما لهذا طَرَقْتَنا ... فَكُلْ وَدَعِ الأخبارَ ما أنت آكلْ

تُدَبِّرُ كَفَّاهُ ويحدرُ حَلقه ... إلى الصَّدْرِ ما حَازَتْ عليه الأناملْ

أتانَا ولم يَعدِلْهُ سَحْبَانَ وائلٍ ... بَيَاناً وعِلْماً بالذي هُوَ قائلْ

فَمَا زَالَ عَنْه اللقم حتى كأنَّهُ ... من العَيِّ لمَّا أنْ تَكَلَّمَ بَاقِلُ

ونلحظ اختلاط شعر الأرقط بروح الفكاهة والسخرية المتولدة من خلال المفارقة لما عهد عن العربي من سعيه الحثيث للاتصاف بالكرم.

أما الهجاء القبلي فمن نماذجه هجاء غضوب لبني سبيع في قولها:

بنو سبيع زمَعُ الكلابِ	ليسوا إلى سعدٍ ولا الرّبابِ
ولا إلى القبائل الرّغابِ	كم فيهم من طفلةٍ كعابِ
وكْماءَ ذاتِ ركبٍ قبابِ	خبيثة المُشعَر في الثيابِ

تتبعُ كُلَّ عزبٍ وثاب

٣ – الفخر:

يعد الفخر والحماسة من الأغراض الشعرية القوية التي يرتكز عليها شاعر بني ربيعة بما يتواءم مع عاطفته وإعجابه بنفسه وقومه وترفعه على غيره بشكل مباشر أو ضمني.

وظهر هذا الغرض في خمسة نصوص مثلت كلها مقطعات شعرية، شكلت ثمانية وعشرين بيتا. وظهر هذا الغرض لدى شاعر واحد فقط، هو علقمة الفحل. أي أن نسبة تواتر هذا الغرض في شعراء بني ربيعة تمثل (٨ %) من العدد الكلي للشعراء. كما احتل المرتبة الرابعة لدى علقمة بعد الغرض الموقفي. والمدح والغزل؛ إذ مثل أربع عشرة في المائة من شعره (١٤%).

ويمكن عرض ما سبق في الجدول الإحصائي التالي:

الغرض	عدد النصوص	عدد الأبيات	نسبتها	عدد الشعراء	نسبة عددهم
الفخر	٥	٢٨	٤ %	١	٨ %
أسماء شعراء غرض الفخر من بني ربيعة				نسبة أشعارهم	
علقمة بن عبدة الفحل				١٠٠%	

وقد يفخر شاعر بني ربيعة بقبيلته، مثل قول علقمة الفحل[1]:

وَدَّ نُفَيرٌ لِلمَكاوِرِ أَنَّهُم	بِنَجرانَ في شاءِ الحِجازِ المُوَقَّرِ
أَسَعياً إِلى نَجرانَ في شَهرِ ناجِرٍ	حُفاةً وَأَعيا كُلُّ أَعيَسَ مِسفَرِ
وَقَرَّت لَهُم عَيني بِيَومِ حَذُنَّةٍ	كَأَنَّهُمُ تَذبيحُ شاءٍ مُعتَّرِ
عَمَدتُم إِلى شِلوٍ تَنوذِرَ قَبلَكُم	كَثيرِ عِظامِ الرَأسِ ضَخمِ المُذَمَّرِ

وقد يفخر بنفسه، مثل قول علقمة الفحل[2]:

وَأَخي مُحافَظَةٍ طَليقٍ وَجهُهُ	هَشٍ جَرَرتُ لَهُ الشِواءَ بِمِسعَرِ
مِن بازِلٍ ضُرِبَت بِأَبيَضَ باتِرٍ	بِيَدَي أَغَرَّ يَجُرُّ فَضلَ المِئزَرِ
وَرَفَعتُ راحِلَةً كَأَنَّ ضُلوعَها	مِن نَصِّ راكِبِها سَقائِفُ عَرعَرِ
حَرَجاً إِذا هاجَ السَرابُ عَلى الصُوى	وَاستَنَّ في أُفُقِ السَماءِ الأَغبَرِ

٤ – الرثاء :

وغرض الرثاء يعد مثالا على شدة توهج عاطفة الشاعر الفطرية، فهو كما إذا أحب صرح وأعلن أو صبر وأضمر، فهو أيضا إذا حزن فبكاء ونحيب حتى يملأ الدنيا عويلا، وكلما جفت الدموع من عينيه استحثها لمزيد من البكاء أملا في السلوى، من خلال التأسف على الميت وذكر مناقبه ومحاسنه.

ويعد الرثاء أقل الأغراض الشعرية ظهورا في شعر بني ربيعة؛ إذ ظهر في نصين شعريين شكلا سبعة أبيات، ومثلا نسبة ١% من مجموع أشعار بني ربيعة، وكان لكل من جزء بن العلاء الذي يعرف بالمرقع (أربعة أبيات)، وعلقمة الفحل (ثلاثة أبيات)، أي أن نسبة تواتر هذا الغرض في شعراء بني ربيعة تمثل (١٥%) من العدد الكلي للشعراء.

ويمكن عرض ما سبق في الجدول الإحصائي التالي:

---

(١)ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري ١٠٦.

(٢)ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري ١٠٧ – ١٠٨.

الغرض	عدد النصوص	عدد الأبيات والأشطر	نسبتها	عدد الشعراء	نسبة عددهم
الرثاء	٢	٧	١%	٢	١٥%

أسماء شعراء غرض الرثاء من بني ربيعة	نسبة أشعارهم
جزء بن العلاء	٥٦ %
علقمة الفحل	٤٣ %

يقول جزء بن العلاء في رثاء بنيه:

دَفَنْتُ الدّافعين الضَّيمَ عنّي ... بِرابِيَةٍ مجاورةٍ سَنَامَا

أقولُ إذا ذكَرْتُهُمُ جَميعاً ... بِنَفْسِيَ تلكَ أصداءٌ وَهَامَا

فَلَيتَ حِمامهُمْ إذ فارَقُونا ... تَلَقّانا وَكانَ لَنا حِمَاما

فَلَمْ أرَ مِثْلَهُمْ هَلَكُوا جَميعاً ... وَلَمْ أرَ مِثْلَ هَذا العَامِ عَامَا

٥ – المدح :

يعد المدح من أكثر الأغراض الشعرية شهرة في الشعر العربي القديم عامة، والجاهلي خاصة. لكنه في شعر بني ربيعة لم يظهر إلا من خلال شاعرين فقط. هما علقمة بن عبدة الفحل، وغيلان. أي أن نسبة تواتر هذا الغرض في شعراء بني ربيعة تمثل (١٥%) من العدد الكلي للشعراء.

وكان نصيب الأبيات الشعرية لبني ربيعة (علقمة الفحل، وغيلان) سبعة وأربعين بيتا شعريا، وأربعة وثلاثين شطر رجز، شكلت أربع عشرة في المائة (١٢%) من العدد الكلي للأبيات الشعرية.

ويمكن عرض ما سبق في الجدول الإحصائي التالي:

الغرض	عدد النصوص	عدد الأبيات والأشطر	نسبتها	عدد الشعراء	نسبة عددهم
المدح	٦	٨١	١٢%	٢	١٥%

أسماء شعراء غرض المدح من بني ربيعة	نسبة أشعارهم
علقمة بن عبدة الفحل	٥٨%
غيلان	٤٢%

وظهر غرض المدح في ثلاثة نصوص لعلقمة الفحل: قصيدة واحدة ومقطعتين. ومثّل المرتبة الثانية لدى علقمة بعد الغرض الموقفي، إذ مثّل ثلاثا وعشرين في المائة من شعره (٢٣%). ومن الملاحظ أن غرض المدح من الأغراض الرتيسة التي ربما تعجز عن القيام منفردة؛ لذا تعمد من خلال شاعرها إلى توظيف بعض الأغراض البينية الأخرى، والتي يتم مزجها بفنية واضحة معا، بحيث تشكل كل الأغراض والأبيات نسيجا شعريا متوائما بدرجة واضحة.

وإذا علَت في الآونة الأخيرة بعض الأصوات المنادية بالاهتمام بالنص الأدبي بشكل مركز، ومن ثم "ينبغي أن تكون دراسة شعرنا الجاهلي بصفته نصوصا، سواء أكانت هذه النصوص قصائد أم مقطعات، لا بصفته أغراضا"[1]. فهذا أمر تفرضه الطبيعة الخاصة بالنص الشعري. فعلى سبيل المثال تظهر قصيدة علقمة الفحل المندرجة تحت غرض المدح، والمتكونة من تسعة وثلاثين بيتا شعريا، والتي مدح فيها الحارث بن جبلة بن شمر الغساني، تتشكل هذه القصيدة من أغراض: الغزل، والحكمة، والوصف، والمدح الذي يعد الغرض الرئيس من القصيدة. ومن مدح علقمة الحارث بن أبي شمر الغساني قوله[2]:

---

(١) وهب أحمد رومية: شعرنا القديم والنقد الجديد، ص ١٤٧، ١٤٨.

(٢) ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري ٣٦ – ٤٠.

لــى الحـــارِثِ الوَهّـــابِ أعمَلــتُ نـــاقَتي ... لِكَلكَلِهـــا وَالقُـــصرَيَينِ وَجيـــبُ

لِتُبلِغَنـــــي دارَ امــــرِئٍ كــــانَ نائِـــيا ... فَقَـــد قَرَّبَتنـــي مِـــن نَـــداكَ قَـــروبُ

إِلَيــكَ أَبَيــتَ اللَعــنَ كــانَ وَجيفُـــها ... بِمُـــشتَبِهاتٍ هَـــولُهُنَّ مَهـــيبُ

تَتَبَّـــعَ أَفيـــــاءَ الظِــــلالِ عَـــشِيَّةً ... عَلـــى طُـــرُقٍ كَـــأَنَّهُنَّ سَبـــوبُ

هَـــداني إِلَيـــكَ الفَرقَـــدانِ وَلاحِـــبٌ ... لَـــهُ فَـــوقَ أَصـــواءِ المِتـــانِ عَلـــوبُ

بِهـــا جِيَـــفُ الحَـــسرى فَأَمّـــا عِظامُـــها ... فَبِـــيضٌ وَأَمّـــا جِلـــدُها فَـــصَليبُ

فَأَورَدتُهــــا مــــاءً كَـــأَنَّ جِمامَـــهُ ... مِـــنَ الأَجـــنِ حِنّـــاءٌ مَعـــاً وَصَـــبيبُ

تُـــرادُ عَلـــى دِمـــنِ الحِيـــاضِ فَـــإِن تَعَـــف ... فَـــإِنَّ المُنَـــدّى رِحلَـــةٌ فَرَكـــوبُ

وَأَنـــتَ اِمـــرُؤٌ أَفـــضَت إِلَيـــكَ أَمـــانَتي ... وَقَبلَـــكَ رَبَّتنـــي فَـــضِعتُ رُبـــوبُ

فَـــأَدَّت بَنـــو عَـــوفِ بـــنِ كَعـــبٍ رَبيبَهـــا ... وَغـــودِرَ فـــي بَعـــضِ الجُنـــودِ رَبيـــبُ

٦ – الغرض الموقفي (الأغراض البينية) :

والجدول الإحصائي التالي يوضح البيانات الخاصة بالغرض الموقفي:

الغرض	عدد الأبيات والأشطر	نسبتها	عدد الشعراء	نسبة عددهم
الموقفي	٤٥٩	٦٥ %	١٠	٧٧ %
أسماء شعراء الغرض الموقفي من بني ربيعة				
١. جزء بن العلاء				
٢. حكيم بن معية التميمي				
٣. حميد الأرقط				

الغرض	عدد الأبيات والأشطر	نسبتها	عدد الشعراء	نسبة عددهم
٤. الصقر بن حكيم				
٥. علقمة بن سهل الخصي				
٦. علقمة بن عبدة الفحل				
٧. عمرو بن حكيم				
٨. عون بن عمرو بن حكيم				
٩. غداف بن بجرة الربعي				
١٠. غيلان بن حريث الربعي				

ومن نماذج الأغراض البينية غرض الحكمة، فثمة أبيات . على سبيل المثال . لعلقمة الفحل تعد أنموذجا فريدا ومتواترا من ناحية الاستشهاد إلى يومنا هذا، وهي[1]:

فَــــإن تَـــسألوني بِالنِـــساءِ فَـــإنَّني ... بَـــصيرٌ بِـــأدواءِ النِـــساءِ طَبيـــبُ

إذا شـــابَ رَأسُ المَـــرءِ أو قَـــلَّ مالُـــهُ ... فَلَـــيسَ لَـــهُ مِـــن وِدِّهِـــنَّ نَـــصيبُ

يُـــرِدنَ ثَـــراءَ المَـــالِ حَيـــثُ عَلِمنَـــهُ ... وَشَـــرخُ الـــشَبابِ عِنـــدَهُنَّ عَجيـــبُ

لكن تلك الأبيات التي تمثل حكمة بكل وضوح، وربما دون اختلاف حولها، تندرج ضمن قصيدة شعرية متكاملة تمثل غرضا محددا هو المدح، وإن كان علقمة نسج هذه القصيدة محكمة البناء من خلال أغراض بينية عدة، منها الحكمة، وأيضا الغزل والوصف والاستعطاف أو الاستغاثة... حيث بدت فكرة القصيدة ذاتها جديرة بجمع أكثر من غرض شعري، مما يلغي ما كان يتردد . ويتردد الآن أحيانا . حول تفكك القصيدة العربية

(١)ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري د ٣٥.

القديمة. لكن يبدو الغرض الرئيس / المدح أجدر الأغراض جذبا للقصيدة بوصفها بنية نصية كلية غير قابلة للتجزؤ أو التفكيك بصورة تامة ومستمرة، إذ يعد هذا الغرض السياق النصي الذي نبتت فيه واستقت دلالاتها وصورها ومفرداتها الشعرية وانزياحاتها الدلالية والبلاغية.

إن الرابط بين تلك الأغراض البينية أنها تعد موقفية عابرة. ارتبطت بموقف محدد أبدعت من خلاله، وبغض النظر عن ماهية هذا الموقف العابر أو ذاك. لكنها . أي هذه الأبيات وأغراضها . تتسم بالعفوية الواضحة. وتفتقد في الوقت نفسه إلى السياق العام الذي أفرز غيرها من القصائد الطوال، أو النصوص الشعرية ذات الأبيات القليلة واضحة الغرض الشعري.

ومن الأغراض البينية أيضا غرض الوصف، الذي لا ينحصر في تصوير الأشياء المادية، بل يتصل بكل ما يحيط بالشاعر في بيئته ويتفاعل معه، بما يولد كثيرا من الأحاسيس والمشاعر التي يسجلها بفنية عالية، كوصف الناقة والفرس والصحراء والليل والمطر والغزال إلى غير ذلك من الموصوفات. وقد توزع الوصف على معظم النصوص الشعرية، ومن أوضحها وصف الناقة، والذي تواتر عند علقمة الفحل بشكل لافت.

وشاعر بني ربيعة يتعمد ذكر ما تمنحه إياه الطبيعة. ويصور ما يراه كله بما يملك من الألفاظ تصويرا دقيقا أمينا، بما يتلاءم وطبيعة الحياة البدوية. فالوصف دقيق ولا يترك الشاعر الموصوف حتى يأتي على جميع حالاته. وحيث يتم استقراء جزئيات الصورة جميعها. إضافة إلى أن التشبيهات في الوصف كانت صورا حسية مستمدة غالبا من المحيط البيئي الخارجي.

لقد أحاط شاعر بني ربيعة في أوصافه بشتى المظاهر البيئية، فوصف ما يخطر على باله كله، وما يعتمل في ذاكرته من ظواهر شعورية تدل على خصب المخيلة بشكل لافت.

وكذلك – من الأغراض البينية – غرض الاستغاثة، وظهر هذا الغرض مستقلا في مقطعة واحدة لعلقمة الفحل، تكونت من ستة أبيات شعرية فقط، وهي[1]:

---

(١)ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري ١٣١ – ١٣٢.

مَـن رَجَـلُ أحبـوهُ وَناقَـتي	يُبَلِّغُ عَنّي الشِعرَ إذ ماتَ قائِلُه
نَـذيراً وَمـا يُغـني النَـذيرُ بِشَبوَةٍ	لِمَن شاؤُهُ حَولَ البَدِيّ وَجامِلُه
فَقُـل لِتَمـيمٍ تَجعَـل الرَّمـلَ دونَهـا	وَغَيرُ تَميمٍ في الهَزاهِزِ جاهِلُه
فَـإنَّ أبـا قابـوسَ بَينـي وَبَينـها	بِأرعَنَ يَنفي الطَيرَ حُمرٍ مَناقِلُه
إذا ارتَحلـوا أصَـمَّ كُـلَّ مُؤَيِّـهِ	وَكُلِّ مُهيبٍ نَقرُهُ وَصَواهِلُه
فَـلا أعـرِفَن سَـبياً تُمَـدُّ ثُدِيُّـهُ	إلى مُعرِضٍ عَن صِهرِه لا يُواصِلُه

مما سبق يتضح أن شعر بني ربيعة ـ خاصة علقمة بن عبدة الفحل ـ في شتى أغراضه يبعد عن التكلف والتصنع والابتذال، وإن لم ينل حقه من الدرس والتأمل المتفرد، إضافة إلى احتمال ضياع جزء قل أو كثر من إنتاجه الشعري.

إن شاعر بني ربيعة شاعر مطبوع، لا ينتمي إلى عبيد الشعر، مثل زهير بن أبي سلمى والحطيئة ومن لفَّ لفَّهما الذين "لولا أن الشعر قد كان استعبدهم، واستفرغ مجهودهم، حتى أدخلهم في باب التكلف وأصحاب الصنعة، ومن يلتمس قهر الكلام واغتصاب الألفاظ، لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سهوا ورهوا، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالا"[1].

ويعد علقمة بن عبدة الفحل أكثر شعراء بني ربيعة من زاوية التفات النقاد العرب القدماء ـ والمحدثين ـ إليه، فقد عُدَّ من الطبقة الرابعة لدى فحول الشعراء الجاهليين عند ابن سلام الجمحي مع طرفة بن العبد، وعبيد بن الأبرص، وعدي بن زيد "وهم أربعة رهط فحول شعراء، موضعهم مع الأوائل، وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة"[2]، كما فضله الأصمعي على الأعشى حينما سأله أبو حاتم السجستاني عنهما حينما تحدث له بقوله: "قلت: فالأعشى؟ قال: ليس بفحل، قلت: فعلقمة بن عبدة؟ قال: فحل"[3].

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، ٢/ ١٨.

(٢) طبقات فحول الشعراء، ص ١٣٧.

(٣) فحولة الشعراء، ص ٣٦.

ويمتد إعجاب ابن سلام الجمحي بعلقمة الفحل، باعترافه بأن له "ثلاث روائع جياد لا يفوقهن شعر:

الأولى:

ذَهَبتَ مِنَ الهِجرانِ في غَيرِ مَذهَبٍ ... ولَم يَكُ حَقّاً كُلُّ هَذا التَجَنُّب

والثانية:

طَحا بِكَ قَلبٌ في الحِسانِ طَروبُ ... بُعَيدَ الشَبابِ عَصرَ حانَ مَشيبُ

والثالثة:

هَل ما عَلِمتَ وَما استودعت مَكتومُ ... أَم حَبلُها إِذ نَأَتكَ اليَومَ مَصرومُ

ولا شيء بعدهن يذكر"[١].

ومن خلال العرض النقدي السابق لأغراض النص الشعري ودلالاته، يتبين مدى التداخل بين هذه الأغراض داخل النص الشعري الواحد / القصيدة؛ بما يمثل مجالا خصبا للمتلقي للتنقل كيفما يشاء من غرض إلى آخر، ومن دلالة إلى أخرى، بما يتواءم مع سماته وثقافته وميوله، وأيضا سياقاته المحيطة بعملية التلقي ذاتها.

وهنا وبتنقله هذا، الذي يتباين في طبيعته، ما بين الهدوء والرصانة التي يشعر معها وكأنه يتجول ببطء وحرية، متنزها ومستمتعا بالتقاطه هذه الدلالة أو تلك، وبين السرعة التي قد تجعله وكأنه يقفز ويجري لاهثا دون فقد متعته ولذته في الوقت ذاته. هنا وبتنقله هذا يكون بصدد تفكيك النص الشعري الجامع بشتى عناصره التي تشكله، ثم إعادة تركيبه كي يتحول إلى نص ذي طبيعة خاصة لا تنفصل بقدر اتصالها . بطبيعة المتلقي ذاته، وربما يتشابه هذا النص مع ذاك الذي أبدعه الشاعر / المبدع بداية، وربما يختلف، وبين التشابه والاختلاف درجات بينية لا يمكن حصرها، يقبع كل قارئ أو مجموعة من القراء أو المتلقين داخل إحداها.

إن المتلقي هنا يشعر أنه أمام حجر كريم موشى . وفق وصف رولان بارت للنص [٢]. يشع كثيرا من الألوان الدلالية التي يزيد استمتاعه به وبها بزيادة هذه الألوان وتداخلها، إنه يكون أمام نص منفتح . والانفتاح ذاته له درجات متباينة أيضا . ينأى عن الانغلاق الذي

---

(١) طبقات فحول الشعراء، ص ١٣٦.

(٢) انظر: رولان بارت: لذة النص، ترجمة: منذر عياشي، ط. مركز الإنماء الحضاري، سورية، ط. الاولى، ١٩٩٢ م، ص ٤٦.

من شأنه تقليص الرؤى والدلالات، من بعد تكبيل المتلقي وإجباره لتبني غرض معين، أو لاستنباط معنى محدد، أو لاستلهام دلالة خاصة. هذا المتلقي المتجول داخل النص المنفتح يعد مشاركا في عملية إنتاج النص.

لذا فإن الأغراض والدلالات السابقة - الأساسية والفرعية - والمنبثقة عن النص الشعري لا تمثل شتى الأغراض والدلالات التي يفجرها أي نص شعري، بل إنها عبارة عن بعض النماذج، وهنا يظهر المتلقي الحقيقي للنص الشعري الذي من شأنه إعادة ترتيب الدلالات السابقة وفق توصله إلى أي منها، أو وفق أهميتها بالنسبة إليه، أو التوصل إلى دلالات أخرى... مما يسلمه في النهاية إلى الرسو على شاطئ المعنى آمنا مستقرا، لكن يتواتر هنا تساؤل: هل هذا الاستقرار يمثل حافزا لمزيد من القراءة /الإنتاج، أم على النقيض من ذلك؟ بوصف الوصول إلى المعنى هو الغاية المنشودة، ومن الواضح أن الإجابة تعول في الأساس على المتلقي ذاته.

مصادر الإبداع الشعري عند بني ربيعة:

إن المتلقي المعاصر للشعر العربي القديم عامة، والجاهلي منه خاصة، يختلف عن متلقيه الحقيقي في عصور إبداعه، اختلافا يرتكز على وجود الناقد الذي يسهم غالبا في توجيه المتلقين أو لفت أنظارهم إلى أمور ربما يجهلونها، أو لا يلتفتون إليها بحكم ثقافاتهم المتباينة أولا، وبحكم تخصص الناقد ثانيا.

كما أن الموضوعات الشعرية عامةً - ومنها موضوعات شعر بني ربيعة - لم تنبع من ظروف البيئة وحدها، أو العرف الشعري وحده، بل إن الشعراء استمدوا موضوعاتهم الشعرية من البيئة ومن الموروث الثقافي الأدبي لديهم، ومن ثم وظفوها للتعبير عما أرادوا في مواقفهم الحياتية.

وبالنظر إلى شعر بني ربيعة يمكن تلمس المصادر التي أفرزت الإبداع الشعري لديهم، وهي تتمثل في الطبيعة بما تحويه من صحراء وما بها من حيوانات متعددة يتفاعل معها الشاعر بطرائق متباينة ويسقط عليها أحاسيسه ومشاعره، فالحيوان

بالنسبة لشاعر بني ربيعة يمكن أن يعد ملاذا للخروج من المآزق التي يمر بها. مثل عبور الصحراء، كما يظهر فيما يلي[1]:

وَقَـد أقطَـعُ الخَـرقَ المَخـوفَ بِـهِ الـرَّدى   بِعَنسٍ كَجَفـنِ الفارِسِـيِّ المُـسَرَّدِ

كَـأَنَّ ذِراعَيهـا عَلـى الخَـلِّ بَعـدَما   وَنـىً ذِراعـا مـاتِحٍ مُتَجَـرِّدِ

وكان لحضور الحيوان أهمية بالغة في حياة الشاعر، سواء وقت الاستقرار، أو بعد رحيل القوم أو المحبوبة؛ وآنئذ لم تبق له إلا الذكريات، وتلك الحيوانات التي رافقته في رحلته، أو التقى بها، أو قطنت هي أطلال الديار الزائلة، ولذا بدا الحيوان قويا وارثا بقاء حياة الإنسان، ويسعى الشاعر من خلاله إلى استعادة ماضيه الجميل.

وقد صور علقمة بن عبدة الفحل الحيوانات في ديوانه وصنفها إلى نوعين، نوع أليف تمثل في الناقة والفرس، وآخر وحشي بري تمثل في الظليم والبقر الوحشي، وارتبط هذا النوع الأخير بالصراع المستمر من أجل البقاء.

ولقد اهتم علقمة الفحل بتصوير فرسه بدقة، ولم يترك جانبا جسديا إلا وصفه، ولم يقف عند وصف المظاهر الجسدية، بل أشار أيضا إلى صفاته المعنوية، بقوله[2]:

وَقَـد أَغتَـدي وَالطَيـرُ فـي وُكُناتِهـا   وَماءُ النَدى يَجري عَلى كُلِّ مِذنَبِ

بِمُنجَـرِدٍ قَيـدِ الأَوابِـدِ لاحَـهُ   طِرادُ الهَـوادي كُـلَّ شَـأوٍ مُغَرِّبِ

بِغَـوجٍ لَبانُـهُ يُـتَمُّ بَريمُـهُ   عَلى نَفثِ راقٍ خَشيَةَ العَينِ مُجلِبِ

كُمَيـتٍ كَلَـونِ الأُرجُـوانِ نَـشَرتَهُ   لِبَيـعِ الرِداءِ فـي الـصُوانِ المُكَعَّـبِ

مُمَـرٌّ كَعَقـدِ الأَنـدَرِيِّ يَزينُـهُ   مَعَ العِتقِ خَلقٌ مُفعَمٌ غَيرُ جَأنَبِ

لَـهُ حُرَّتـانِ تَعـرِفُ العِتـقَ فيهِمـا   كَسامِعَتَي مَذعورَةٍ وَسطَ رَبرَبِ

---

(١)ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري ١٢٢.

(٢)ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري ٨٧ – ٨٩.

وَجَـــوفُ هَـــواءٍ تَحــــتَ مَــــتنٍ كَأَنَّــــهُ   مِنَ الهَضَبَةِ الخَلقاءِ زُحلوقُ مَلعَبِ

قَطــاةٌ كَكُـــردوسِ المَحالَـــةِ أَشــرَفَت   إِلـى سَنَدٍ مِثـلِ الغَبيـطِ المُـذَأَّبِ

إن الشاعر من خلال هذه الأبيات خلق قوة جديدة يافعة تعارض زمن الشيخوخة والشيب، فقد اختار حصانا قويا يمتاز بالحركة والنشاط، يغدو مبكرا. لقد رسم علقمة صورة مثالية لما يرغبه في واقعه المعيش، وكذلك واقعه المتخيل. فحينما لم يحقق أمانيه جعل يتخيلها في عالم الحيوان / عالمه التخيلي. وبذا كان "الفرس - ذلك الإنسان الكامل - صورة لما يتشبث به الشاعر أملا في المستقبل ورغبة في قدر أتم من المناعة والحصانة"[1].

ما سبق يؤكد الحضور القوي للحيوان في شعر بني ربيعة. وبالطبع ليس هذا من قبيل التفرد والريادة، بل من قبيل السير على النهج والدوران في فلك واحد؛ إذ إن توظيف الحيوان وعدّه قطبا يدور حوله كثير من الشعراء سواء أكان عن طريق التشبيهات أو الانزياحات الدلالية بأساليبها المتعددة، يعد سمة من سمات الشعر العربي القديم.

بذا احتل الحيوان في شعر بني ربيعة مكانة خاصة جمالية ودلالية ومرجعية. بغض النظر عن القول بأسطوريته أو رمزيته أو واقعيته، تبعا لاختلاف الرؤى النقدية والتأويلات الفلسفية المتبناة. ودون الخوض في غمار المعارك النقدية التي ربما لا تسعى إلا لإثبات الغلبة والتفوق وتصيد الأخطاء وطمس مزايا الطرف الآخر. مع إضعاف وظيفة المتلقي في قراءة مغايرة محورها مدى الاستمتاع بالنص والإقبال عليه. ومن ثم عرض أسباب هذا الإقبال أو تلمسه.

ولا يعنينا في هذا المقام تقصي الحقائق حول ريادة أي من الشعراء - سواء شعراء بني ربيعة أو غيرهم - في تصوير أحد العناصر. أو توظيف آخر أو توليد صورة جديدة أو إبدال أخرى وهكذا؛ إذ إن التقليد أو المحاكاة أمر لا يمكن تأكيده أو البت فيه.

---

(١) مصطفى ناصف: قراءة ثانية لشعرنا القديم. ط. دار الأندلس، بيروت، د.ت، ص٨٧.

ويعد شعر علقمة بن عبدة الفحل من أوضح الأمثلة على السعي لتوظيف الحيوان توظيفا فنيا متخيلا يرقى على مجرد التوظيف الأسطوري لظهور الحيوان بأصنافه المتعددة في الشعر الجاهلي.

ومن أمثلة الوصف عند علقمة الفحل وصف الفرس في قوله[1]:

وَقَـدْ أقُـودُ أمَـامَ الحَـيِّ سَلْهَـبَةً	يَهْدِي بِها نَسَبٌ في الحيِّ مَعْلُومُ
لاَ فـي شَـظاها ولا أرسـاغِها عَنَـتٌ	ولا السَّنابِكُ أفناهُـنَّ تَقليـمُ
سُـلاءَةٌ كَعَـصَا النَّهـدِيِّ غُـلَّ بهـا	ذو فَيئَـةٍ مِـن نَـوى قُـرَّانَ معجـومُ
تَتبـعُ جُونًـا إذا مـا هُيِّـجَت زَجِلَـتْ	كـأَنَّ دُفًّـا علـى عَليـاءَ مَهـزومُ

وكذلك وصف طريقه في الصحراء في قوله[2]:

بِهـا جِيَـفُ الحَـسرى فَأَمَّـا عِظامُهـا	فَبـيضٌ وَأَمّـا جِلـدُها فَـصَليبُ
فَأَورَدتُـها مـاءً كَـأَنَّ جِمامَـهُ	مِـنَ الأَجـنِ حِنّـاءٌ مَعـاً وَصَـبيبُ
تُـرادُ عَلـى دِمـنِ الحِيـاضِ فَـإِن تَعُـفْ	فَـإِنَّ المُنَـدّى رِحلَـةٌ فَرَكـوبُ

إن شعر بني ربيعة لا يبدو مجرد تصوير دقيق تقريري مباشر . في الأحوال كلها . للعالم الخارجي بشتى مظاهره الطبيعية، فهو وإن كان استقى منه معظم صوره الشعرية. لكنه عمد في كثير من الأحيان إلى تحويرها، كما أن الشاعر عقد صلات بينها وبين ذاته من جانب، وبينها وبين قبيلته من جانب آخر. إضافة إلى أنه كثيرا ما عدت هذه المظاهر بالنسبة لشاعر بني ربيعة معادلا موضوعيا لما يختلج داخله من مشاعر وأحاسيس تسقط . بإرادته أو دونها . على ما يحيط به في واقعه المعيش.

إن النص الأدبي . وضمنه النص الشعري . لا يمكن عزله بأي حال من الأحوال عن شتى الظواهر التي تؤطره. سواء الظواهر الاجتماعية أو الدينية أو الثقافية أو البيئية.. تلك

---

(١)ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري ٧٢ – ٧٤.

(٢)ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري ٣٩ – ٤١

الظواهر التي أسهمت في إفرازه. فالنص ليس شيئا صلبا صامدا لا حياة فيه، إنه كالكائن الحي الذي لا تمنع خصوصيته من التأثر بما حوله من ظواهر، وكذا التأثير فيما حوله.

إضافة إلى ما سبق لم يعدم شعر بني ربيعة التعبير عن مظاهر اللهو والتمتع والشراب، وإن بدا هذا الأمر بشكل يسير، وربما نادر، ولعل هذا يعود في وجه من الوجوه للقلة النسبية لشعر بني ربيعة. وثمة مجموعة من الأبيات الشعرية التي يصف فيها الشاعر علقمة بن عبدة الخمارين بالحوم، أي الطواف حول هذه الخمر. ويشبه وعاء الخمر بالظبي؛ بما يعيد إلى مخيلتنا صورة الخمر المشبه بدم الغزال، فالغزال يحوي الدم الذي منه يستخرج المسك، والخمر رائحتها كالمسك في أشعارهم، والوعاء الذي هو الظبي يحوي هذه الخمر، يقول[1]:

كَأسُ عَزيزٍ مِنَ الأعنابِ عَتَّقَها ... لِبَعضِ أربابِها حانِيَّةٌ حومُ

تَشفي الصُداعَ وَلا يُؤذيكَ صالِبُها ... وَلا يُخالِطُها في الرَأسِ تَدويمُ

عانِيَّةٌ قَرقَفٌ لَم تُطَّلَع سَنَةً ... يُجِنُّها مُدمَجُ بِالطينِ مَختومُ

ظَلَّت تُرَقرِقُ في الناجودِ يَصفِقُها ... وَليدُ أعجَمَ بِالكَتّانِ مَفدومُ

كَأنَّ إبريقَهُم ظَبيٌ عَلى شَرَفٍ ... مُفَدَّمٌ بِسَبا الكَتّانِ مَلثومُ

كما يكثر في شعر بني ربيعة الرجز، ويقال إنه أول بحر شعري ابتُدِعَ، وربما هذا لسهولته وارتباطه الوثيق والطبيعي بالغناء. إضافة إلى أن شعرهم يمثل بوضوح وبساطة حياتهم البدوية، وما كان يعتريها من حالات متباينة من ترحال واستقرار، وسلم وحرب، وحب ورثاء وهجاء... وهكذا، هذا كله بعفوية وتلقائية وفطرة.

ومن اللافت للنظر أن شعر بني ربيعة يبعد بدرجة واضحة عن السرد والإخبار المباشر، وإن كان قد يلجأ له ضمنيا، في حين يرتكز بدرجة واضحة على التأثير والعاطفة، وربما يبدو هذا متطابقا مع نفسية الإنسان العربي آنئذ، فالشاعر العربي القديم يعد

---

(١)ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري ٧٠ – ٧٢.

خطيبا أكثر منه قاصا. وإن كان هذا لا ينفي وجود الحس القصصي لدى كثير من الشعراء العرب القدماء، ومنهم شعراء بني ربيعة.

وبقراءة شعر بني ربيعة يتبين أن الشعراء كانوا يعقدون الكثير من الصلات بين شتى الموجودات المحيطة بهم، شأنهم في هذا شأن غيرهم من الشعراء، لكنهم يبعدون عن التماهي التام مع هذه الماديات. أو تلك الظواهر التي يتفاعلون معها بأشكال متباينة من التفاعل، بما يجعلها - بعضها أو معظمها - وكأنها ماديات مغايرة، أو ظواهر مختلفة غير تلك التي تمثل أصولا يستقى منها.

إن شاعر بني ربيعة يسعى إلى تحوير الأصول التي استنبط منها صوره الشعرية - وهي ركيزة الشعر وجوهره؛ حيث تتعلق بمقدرة الشاعر على التخيل الفني - سواء أكانت أصولا أسطورية أو دينية أو اجتماعية أو بيئية... من خلال الحذف أو الإضافة، الجمع أو التفريق، التغيير من خلال دمج الشعور باللاشعور.

إن شعراء بني ربيعة يعدون من الشعراء المقلين في شعرهم، وهذا بالطبع لا يحمل أية دلالة على موقعهم من المكانة الفنية والإبداعية ضمن أقرانهم من الشعراء العرب القدماء على مر العصور، على الأقل من حيث الكم والكيف، أي عدد الأبيات الشعرية المنتجة، وقيمة هذا الإنتاج الشعري وجدته وأصالته أو تفرده أو حتى تواتر استخداماته الشعرية بشكل آلي أو شبه آلي يشي بقدر واضح من الولاء الشعري والبيئي والاجتماعي المنصهر في الآن نفسه مع الولاء القبلي الذي يخلط الذاتية الشاعرية مع الغيرية القبلية بأسلوب فريد تفرد الشعر ذاته، فستظل احتمالية ضياع قدر كبير من الشعر العربي عامة، والجاهلي خاصة، أمرا شبه مؤكد، ومما يعضد هذه الرؤية قول أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ): "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير"[١]. إذ نرى الشاعر فيهم لديه أبيات قليلة، ما عدا بعض الشعراء، ومن أوضحهم وأكثرهم قولا للشعر علقمة الفحل، حيث وصل عدد أبياته الشعرية في ديوانه إلى مائتين وأربعة أبيات شعرية.

---

(١) طبقات فحول الشعراء، ص ٢٥.

وثمة دلالة يمكن استشفافها من الإنتاج الشعري لعلقمة الفحل وهي عدم صحة النظر إلى القيمة الفنية من خلال الكم فقط، مع الوعي بجدوى هذا المعيار في تحديد قدر الفحولة أو انعدامها كما شاع لدى النقاد العرب القدماء، فليس معنى انتشار المقطعات تدني المستوى الفني والشعري، وليس أدل على ذلك من اضطلاع شعراء كبار لهم إسهاماتهم الشعرية القوية من خلال قصائد طوال بعضها عد من المعلقات .بقول بعض المقطعات التي تمثل مادة تسهم في إكمال المشهد الشعري الأدبي بل الاجتماعي أيضا في عصر من العصور.

كما تبدو المقطعات الشعرية لبني ربيعة أكثر التحاما بحياتهم على تباين مجالاتها، كذلك تتسم بالتلقائية والبساطة، فضلا عن أنها جاورت القصيدة لدى كثير من الشعراء، ولم تختص بطبقة معينة منهم "وإن صح انتشارها لدى المتمردين من الشعراء بشكل يلفت النظر، إلا أنها وجدت سبيلها لدى شعراء القبائل، وكأنهم رغبوا في تنويع فنهم بين الإطالة والإيجاز حسب طبيعة المواقف التي يصدر عنها الواحد منهم"[1].

ومن ثم لا يصح النظر للمقطعة الشعرية نظرة متدنية، أو عدها شكلا مبدئيا للقصيدة العربية، أو أنها قصيدة عفا عليها الزمن وتحولت بقاياها إلى مقطعة بعد عصر التدوين، أو أنها تصور عجز شعرائها عن نظم القصائد الطويلة.

ومن أمثلة هذه المقطعات مقطعة علقمة الفحل التي قالها في فكه أخاه شأسا مدافعا عنه وعن رهطه ومفاخرا بشعره حيث استطاع أن يدافع عنهم بهذا الشعر لما عز الفداء وامتنع حتى بالمال[2]:

دافَعتُ عَنهُ بِشِعرِيَ إذ ... كانَ لِقَومي في الفِداءِ جَحَد

فَكانَ فيهِ ما أتاكَ وَفي ... تِسعينَ أسرى مُقَرَّنينَ صَفَد

دافَعَ قَومي في الكَتيبَةِ إذ ... طارَ لِأطرافِ الظُبات وَقَد

فَأَصبَحوا عِندَ ابنِ جَفنَةَ في ال ... أغلالِ مِنهم وَالحَديدِ عَقَد

---

(١) عبد الله التطاوي: أشكال الصراع في القصيدة العربية، ط. الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٣٢

(٢)ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري ١٠٣ – ١٠٤.

إِذ مَخنَبٌ في المُختَبِينَ وَفي النَّهكَةِ غَيٌّ بادِئٌ وَرَشَد

وبقراءة شعر بني ربيعة يتضح تماثله مع الشعر العربي القديم ـ وفي وجه من الوجوه مع الشعر عامة ـ في كونه استخدام خاص غير مألوف للغة يختلف عن الاستخدام المألوف، إضافة إلى آن النص الشعري يتضمن شتى العناصر التي تتماس بشكل أو بآخر مع الجوانب الحياتية المختلفة. ولكن هذا لا يجعل النص الشعري سجلا واقعيا جافا لهذه الجوانب بقدر تحولها إلى نمط تعبيري شعري خاص، حيث يمزج هذه الأمور بآلياته التخيلية الخاصة به.

إن النص الشعري لدى شعراء بني ربيعة نص مفعم بالدلالات الإنسانية والمضامين الاجتماعية والتاريخية؛ مما يجعل منه منبعا ثرًّا للمتعة والتعلُّم والتثقيف والاطلاع على عصور بأكملها.

* * *

الخاتمة :

وهكذا يسَّرَ الله لي - بمنّهِ وفضله - الانتهاء من جمع ما استطعتُ الوقوفَ عليه من شعر بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم مما لم يتمَّ جمعه من قبل. وحاولتُ جاهدا أن أوثّقه من كتب الأدب واللغة وغيرهما. غيرَ أنني لم أظفر منه إلا بقصائد ومقطوعات أحسبها قليلة.

كما أنني شملت بدراسة شعر بني ربيعة الشِّعرَ الذي جُمِعَ من قبل (شعر علقمة بن عبدة، وحميد الأرقط، وبعض شعر غيلان بن حريث) وهذا في نظري يُعطي القارئ صورة كاملة عن شعر قبيلة بني ربيعة بن مالك.

وقد اتضح اتسام أشعار بني ربيعة ـ في معظمها ـ بالبساطة في تصوير الواقع تصويرا يتسم بالعفوية والمباشرة التي تبعد عن المبالغة والتضخيم الذي ينبع غالبا من التزييف والمغالاة. كما أن نصهم الشعري ـ في وجه من الوجوه ـ كان عبارة عن تسجيل واقعي مباشر لما شاهده الشاعر أو عايشه دون تصنع، ومن ثم بدت الصورة الفنية صورة طبيعية متسمة بالبساطة، مبتعدة عن التعقيد الذي وصم عبيد الشعر آنئذ، فانتشر التشبيه لديهم بشكل واضح، وهو "لون يستمد أصباغه من البيئة الصحراوية التي يعيش فيها، ويشتق عناصره من المشاهد الحسية التي يقع عليها بصره بها"[1].

كما يلاحظ أن الطبيعة الشكلية للنص الشعري لبني ربيعة، والمتمثلة في عدد الأبيات الشعرية، وما تتضمنه من ألفاظ وتراكيب وصور فنية، إضافة إلى الوزن والقافية، هذه الطبيعة الشكلية تنعكس على الأفكار والمعاني التي تشكل المتن الشعري للنص، أي مضمونه. وبما أن معظم النصوص الشعرية لبني ربيعة تتكون من أبيات قليلة، فقد جاءت معظم أفكار هذه المقطعات الشعرية ومعانيها محدودة ومتسمة بالبساطة والوضوح والبعد عن الغموض.

فأفكار معظم المقطعات ـ والقصائد أيضا ـ قريبة التناول، فكافة الأغراض الشعرية التي ظهرت لدى شعراء بني ربيعة تحيلنا بسهولة كبيرة على الأغراض ذاتها عند

---

(١) يوسف خليف: دراسات في الشعر الجاهلي، ص ١٣٠.

الشعراء العرب القدماء، وإن كان هذا لا ينفي وجود بعض مظاهر التميز والجدة. كما يظهر على سبيل المثال في الهجاء فكاهي الطابع عند حميد بن الأرقط.

كما اتسمت ألفاظ شعر بني ربيعة بالغرابة والغموض النسبيين، حيث بعدت مآخذها، وصعبت معانيها؛ مما يجعل متلقيها الحديث في حاجة إلى الرجوع للمعاجم اللغوية، ولعل هذا ما يبرر تواتر كثير من أشعارهم في الكتب اللغوية للاستشهاد حول بعض القضايا. وهنا يتبادر سؤال: هل هذا نتج عن طبيعة البيئة التي عاشوا فيها؟ إذ ثمة من يؤكد أن "المجتمعات الحضرية المستقرة تلين العريكة، وترقق الشعر، وتجعله ينحو نحو السهولة؛ لأن أهلها بعيدون عن جفاء الأعراب وخشونة البادية وغلظة الصحراء"[1].

وبالطبع تتبع الجمل والتراكيب الألفاظَ، فاتسمت بالصعوبة والغرابة كذلك. لكن بقدر من اللامباشرة، وربما تُعَدُّ تلك السمة من إيجابيات شعر بني ربيعة؛ كون الوضوح التام والسهولة الكاملة من شأنها تعرية النص الشعري، وفقده قدرا كبيرا من شاعريته، من خلال تحويله إلى التقريرية بل السذاجة، والتي ترتبط بأبسط وظائف الصورة الشعرية، أي وظيفة الشرح والتوضيح؛ مما قد يفقد معها المتلقي متعته التي من المفترض أن يشعر بها وهو بصدد محاولة البحث عن المعاني والدلالات.

كما اتسم البناء الشعري لشعراء بني ربيعة بالثراء والتنوع؛ إذ تضمن كافة الأغراض الشعرية: المدح ـ الهجاء ـ الرثاء ـ الغزل ـ الفخر ـ الحكمة ـ الوصف...إلخ. وكذلك يوظف جميع الفنون البلاغية، من تشبيه واستعارة وكناية، ومطابقة وجناس، وإنشاء وتأكيد وتقديم... لذا تتواتر الأبيات الشعرية لهؤلاء الشعراء في كثير من الكتب اللغوية والبلاغية بشكل لافت، وهذه الفنون البلاغية كلها ترتبط بشكل وثيق بالعاطفة الشعورية، والسياق الخارجي الذي يؤطر النص الشعري؛ إذ إن الشاعر غير منبت الصلة بالتاريخ والمجتمع المحيط به والذي نشأ في كنفه، واستقى منه ـ بإرادته أو دونها ـ كافة أدواته وأساليبه.

* * *

---

(١) حمد بن ناصر الدخيل: شعر شواعر بني حنيفة في الجاهلية والإسلام، ص ٣٨٩.

فهرس المصادر والمراجع :

١ - آراجيز العرب. تأليف المستشرق : ج. هـ آنتِلا. منشورات جمعية الاستشراق الفنلندية. هلسنكي ١٩٩٦م.

٢ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب. لابن عبد البر النمري القرطبي. تحقيق : علي محمد البجاوي. دار نهضة مصر. القاهرة.

٣ - أسد الغابة في معرفة الصّحابة. لعز الدين بن الأثير. طبعة مجدّدة بإشراف مكتب البحوث والدّراسات في دار الفكر. بيروت. ١٩٩٣م.

٤ - أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام وأسماء من قُتل من الشعراء. لمحمد بن حبيب. مطبوع ضمن نوادر المخطوطات. تحقيق : عبد السلام هارون. دار الجيل. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٥ - الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين. للخالديين أبي بكر محمد. وأبي عثمان سعيد ابني هاشم. حققه وعلق عليه الدكتور : السيد محمد يوسف. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة. ١٩٥٨م.

٦ - الاشتقاق لأبي بكر ابن دريد. تحقيق وشرح : عبد السلام هارون. دار الجيل. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤١١هـ.

٧ - أشكال الصراع في القصيدة العربية. عبد الله التطاوي. الأنجلو المصرية. القاهرة. ٢٠٠٢م.

٨ - الإصابة في تمييز الصّحابة. للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. دراسة وتحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وزميليه. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤١٥هـ

٩ - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. شرحه وكتب هوامشه : د. يوسف الطويل. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الثانية. ١٤١٢هـ.

١٠ - ألقاب الشعراء ومن يُعرف منهم بأمّه. لمحمد بن حبيب. ضمن نوادر المخطوطات. تحقيق : عبد السلام هارون. دار الجيل. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

١١ - الأمالي لأبي علي القالي. دار الكتاب العربي. بيروت.

١٢ - الأمثال لأبي فيد مؤرج السدوسي. تحقيق : د. رمضان عبد التواب. دار النهضة العربية. بيروت. ١٩٨٣م.

١٣ - الإيناس في علم الأنساب، للحسين بن علي الوزير المغربي، عناية : حمد الجاسر، منشورات النادي الأدبي في الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.

١٤ - البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ.

١٥ - تاج العروس من جواهر القاموس، لمحب الدين الزبيدي، تحقيق : عبد الستار أحمد فرج، مطبعة حكومة الكويت ١٣٨٥هـ.

١٦ - تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) لمحمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ.

١٧ - التذكرة الحمدونية، لمحمد بن الحسن بن حمدون، تحقيق : إحسان عباس وبكر عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

١٨ - التّعازي والمراثي لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، حققه وقدّم له : محمد الديباجي، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ.

١٩ - التميميون أخبارهم وأشعارهم في العصر الجاهلي، د. عبد الحميد المعيني، الوكالة العربية للتوزيع والنشر، الزرقاء، ١٩٨٤م.

٢٠ - تهذيب اللغة ، لمحمد بن أحمد الأزهري، تحقيق : عبد السلام هارون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م .

٢١ - جمل من أنساب الاشراف للإمام أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، حققه : سهيل زكار ورياض زركلي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٢٢ - جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري، ضبطه وكتب هوامشه ونسّقه : د. أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٢٣ - جمهرة اللغة، لأبي بكر بن دريد، تحقيق : د. رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

٢٤ - جمهرة النسب لأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، تحقيق : د. ناجي حسن، دار عالم الكتب، بيروت، ١٤٢٥هـ.

٢٥ - جمهرة أنساب العرب لأبي محمد علي بن حزم الأندلسي، مراجعة : لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

٢٦ - الحماسة البصرية،لعلي بن أبي الفرج بن الحسن البصري، تحقيق الدكتور عادل سليمان جمال، الطبعة الأولى، لجنة إحياء التراث، القاهرة.

٢٧ - الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

٢٨ - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، لعبد القادر البغدادي، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

٢٩ - الديباج، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق : عبد الله الجربوع وعبد الرحمن العثيمين، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ

٣٠ - ديوان بشر بن أبي خازم، تحقيق د. عزة حسن، دار الثقافة، دمشق، سوريا، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م.

٣١ - ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق. د : نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م.

٣٢ - ديوان علقمة الفحل، بشرح الأعلم الشنتمري، حققه لطفي الصقال ودرية الخطيب، دار الكتاب العربي، حلب ١٩٦٩م.

٣٣ - ذيل الأمالي والنوادر، لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، لا ط، ولا ت.

٣٤ - سمط اللآلئ مذيل بذيل اللآلئ شرح ذيل أمالي القالي، للوزير أبي عبيد البكري، تحقيق عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية، بيروت، لا ط، ولا ت.

٣٥ - شرح الكافية الشافية، لابن مالك الطائي، تحقيق د. عبد المنعم أحمد هريدي، دار المأمون للتراث، نشر مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

٣٦ - شرح ديوان الحماسة، لأبي علي المرزوقي، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ ١٩٩١م.

٣٧ - شرح شواهد شافية ابن الحاجب لعبد القادر البغدادي، ضمن كتاب شرح شافية ابن الحاجب لرضي الدين الاستراباذي، دار الكتب العلمية، لبنان ١٩٨٢م.

٣٨ - شرح نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة، تحقيق وتقديم : د. محمد إبراهيم حور ود. وليد محمود خالص، منشورات المجمع العلمي الثقافي، أبو ظبي، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م.

٣٩ - شعر بني تميم في العصر الجاهلي، جمع وتحقيق : د. عبد الحميد المعيني، منشورات نادي

القصيم الأدبي. ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٤٠ - شعر بني سعد بن زيد مناة بن تميم من العصر الجاهلي إلى منتصف القرن الثاني الهجري، دراسته وجمع ما لم يجمع منه وتوثيقه. د. أحمد بن محمد اليحيى. رسالة دكتوراه غير منشورة. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٢٩هـ.

٤١ - الشعر والشعراء لابن قتيبة. تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر. دار الحديث. القاهرة. الطبعة الأولى. ١٤١٧هـ.

٤٢ - الصحاح. لإسماعيل الجوهري. تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الثالثة. ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٤٣ - الطبقات الكبرى. لمحمد بن سعد الزهري. دار بيروت للطباعة والنشر. ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

٤٤ - طبقات فحول الشّعراء. لمحمد بن سلام الجمحي. قرأه وشرحه : محمود محمد شاكر. دار المدني. جدة. لا ط. ولا ت.

٤٥ - العقد الفريد لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي. مكتب تحقيق التراث. دار إحياء التراث العربي. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى. ١٤١٧هـ.

٤٦ - علم لغة النص : المفاهيم والاتجاهات. د. سعيد بحيري. الشركة المصرية العالمية للنشر. لونجمان. القاهرة. الطبعة الأولى. ١٩٩٧م.

٤٧ - العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونقده لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني. حققه وفصّله وعلّق حواشيه : محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الجيل. بيروت. الطبعة الخامسة. ١٤٠١هـ

٤٨ - عيون الأخبار لأبي محمد بن قتيبة. شرح الجزأين الأول والثاني وضبطهما وعلق عليهما د. يوسف علي طويل. وشرح الجزأين الثالث والرابع وعلق عليهما د. محمد مفيد قميحة. دار الكتب العلمية. بيروت. لا ط. ولا ت.

٤٩ - فحولة الشعراء. لأبي سعيد الأصمعي. تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي. دار القلم للتراث. القاهرة.

٥٠ - الفهرست. لأبي الفرج ابن النّديم. المكتبة التجارية. مصر. لا ط. ولا تاريخ.

٥١ - قراءة ثانية لشعرنا القديم. مصطفى ناصف. دار الأندلس. بيروت. د. ت.

٥٢ - الكامل في التاريخ. لابن الأثير. دار صادر ودار بيروت. بيروت، ١٣٨٥هـ.

٥٣ - الكامل في اللغة والأدب. لأبي العباس المبرد. تحقيق. د محمد أحمد الدالي. مؤسسة الرسالة.

بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

٥٤ - اللآلئ في شرح أمالي القالي، للوزير أبي عبيد البكري، حققه : عبد العزيز الميمني الرّاجكوتي، دار الكتب العلمية ، بيروت.

٥٥ - لذة النص، رولان بارت، ترجمة : منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، سورية، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

٥٦ - لسان العرب للإمام أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

٥٧ - المؤتلف والمختلف في أسماء الشُّعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعضِ شِعرهم، للإمام أبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، تصحيح وتعليق : د. ف كرنكو، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.

٥٨ - مجالس ثعلب، لأبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني، تحقيق : عبد السلام هارون، الطبعة الرابعة، دار المعارف، مصر.

٥٩ - مجلة آفاق الثقافة والتراث عدد ٧١ شهر شوال ١٤٣١هـ

٦٠ - مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد ٢٢، شوال ١٤٢١هـ.

٦١ - مجلة عالم الفكر، الكويت، مجلد ٢٣، ١٩٩٤م.

٦٢ - مجلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٠٧، شوال ١٤١٦هـ

٦٣ - مجمل اللغة، لأحمد بن فارس، تحقيق : زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٦٤ - المحب والمحبوب والمشموم والمشروب للسَّريّ بن أحمد الرَّفّاء، تحقيق : مصباح غلاونجي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٦م.

٦٥ - مصادر الشِّعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، د. ناصر الدِّين الأسد، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة، ١٩٨٨م.

٦٦ - المعارف، لابن قتيبة، حققه وقدّم له : ثروت عكاشة، منشورات الشريف الرضي، إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٦٧ - المعاني الكبير في أبيات المعاني، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

٦٨ – معجم الأدباء أو إرشاد الآريب إلى معرفة الآديب. لأبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤١١هـ.

٦٩ – معجم البلدان لأبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي. دار صادر ودار بيروت. بيروت. ١٣٧٦هـ.

٧٠ – معجم الشعراء. لأبي عبيد الله المرزباني. تصحيح وتعليق : أ. د : ف كرنكو. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. الطبعة الثانية. ١٤٠٢هـ.

٧١ – معجم كتاب العين. للخليل بن أحمد الفراهيدي. تحقيق : مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي. وزارة الثقافة والإعلام العراقية ج١و٢ : ١٩٨٠م. ج٣و٤ : ١٩٨١م. ج٥و٦ : ١٩٨٢م. ج٧و٨ : ١٩٨٤م.

٧٢ – معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع. لأبي عبيد البكري. حققه وضبطه : مصطفى السقا. عالم الكتب. بيروت. الطبعة الثالثة. ١٤٠٣هـ.

٧٣ – معجم مقاييس اللغة. لأحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق : عبد السلام هارون. دار الجيل. بيروت. الطبعة الثانية. ١٣٨٩هـ.

٧٤ – مفهوم الشعر. دراسة في التراث النقدي. جابر عصفور. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ٢٠٠٥م.

٧٥ – نظرية الأغراض. ضمن نظرية المنهج الشكلي. نصوص الشكلانيين الروس. توماشفسكي. ترجمة : إبراهيم الخطيب. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت. الطبعة الأولى. ١٩٨٢م.

٧٦ – النَّوَادِر في اللغة. لأبي زيد الأنصاري. دار الكتاب العربي. لبنان. الطبعة الثانية. ١٣٨٧هـ.

* * *

المكان في نماذج من الرواية الفلسطينية
قراءة في القرية و المدينة و المخيم

د . محمد خليل الخلايلة
الجامعة الهاشمية — الزرقاء — الأردن



المكان في نماذج من الرواية الفلسطينية
قراءة في القرية و المدينة و المخيم

د . محمد خليل الخلايلة
الجامعة الهاشمية – الزرقاء – الأردن

ملخص البحث:

تحاول هذه الدراسة قراءة نماذج من الرواية الفلسطينية، تلك الرواية التي صورت الهم الفلسطيني في ظل الاحتلال، وتقوم هذه القراءة برصد المكان في الرواية الفلسطينية .

و تشكل المكان من: قرية ومدينة ومخيم . ولكل من هذه الأماكن همومه وآلامه وجمع هذه الأماكن هم واحد هو هم الاحتلال . و كان الراوي في هذه الروايات دقيق التصوير لهذه الأماكن إذ استطاع أن يرصدها و يرصد هموم ساكنيها و نتاج الاحتلال لهذه الأماكن. و ارتأت الدراسة أن تكون كما يلي :

١- التمهيد : القرية والمدينة والمخيم بوصفه مكاناً

٢- القرية في الرواية الفلسطينية

٣- المدينة في الرواية الفلسطينية

٤- المخيم في الرواية الفلسطينية

د- العلاقة التي تجمع هذه الأماكن في الرواية الفلسطينية



المقدمة

فلسطين . موطن الصراع والنزاع والآلام . كلما أشرقت شمس الحرية فوق سمائه تكاثف على نورها غيم الظلم والفتك ليقلب نهاره ليلا طويلا وكأنه صخرة جاثمة على الصدور . وكان الاحتلال لمسرى رسول الله عليه السلام أطول ليل يعيشه هذا الوطن الحزين.شغلت قضية الاحتلال فكر الباحثين ورؤية الأدباء إذ نقرأ صداها في شعر علي محمود طه وأمل دنقل ومحمود درويش.فأحداث عام ١٩٤٨، ١٩٦٧ لاقت اهتماما بالغا من الكتاب و الأدباء وعلى مستوى الروايات كانت هذه الأعوام حاضرة في روايات عربية كثيرة في مقدمتها رواية حليم بركات "ستة أيام"، و إميل حبيبي في روايتيه "السداسية و المتشائل" و غسان كنفاني في روايته "رجال في الشمس.

من هنا جاءت فكرة هذه الدراسة إذ سينصب الاهتمام في نماذج من الروايات الفلسطينية التي عالجت فكرة الاحتلال عن طريق تشكيل اللغة ،هذه اللغة التي استعملها هؤلاء الأدباء لتحمل رؤيتهم و آلامهم و آمالهم ومن هذا الاحساس اختار الباحث اسم قراءته هذه ، :المكان في نماذج من الرواية الفلسطينية :قراءة في القرية و المدينة و المخيم ، فعدت إلى روايات فلسطينية لأجعلها مصدرا للبحث . وتتبعت فيها أصداء القرية والمدينة والمخيم ، فكان لكل منها دلالته المميزة . هذه الدلالات تجمعها مظلة واحدة ، سنراها في ثنايا هذا العمل إن شاء الله و لن تحاول الدراسة هذه ملامسة القضايا الفنية في هذه الروايات لأنها ليست الغاية و الغاية هي الوقوف عند صورة المكان في هذه الروايات و من هنا سيكون شكل الدراسة كما يلي :التمهيد : الحديث عن القرية والمدينة والمخيم – كمكان .

- القرية في الرواية الفلسطينية
- المدينة في الرواية الفلسطينية
- المخيم في الرواية الفلسطينية
- العلاقة التي تجمع القرية والمدينة والمخيم من منظور الرواية الفلسطينية
- الخاتمة التي تسطر خلاصة ما توصل إليه البحث.
- قائمة المصادر والمراجع

التمهيد :

القرية – المدينة – المخيم –المكان في الرواية الفلسطينية

المكان عنصر أساس من عناصر الرواية كعمل فني ، والمكان امتداد لصاحبه فهو تعبير مجازي عن الشخصية [1]، من هنا كان المكان امتدادا للراوي الفلسطيني ، بل مرآة لهذه الشخصية التي صدمت صدمة عنيفة من أحداث الظلم والقهر التي مارسها المحتل على تراب وطنه ، فأصبح هذا الوطن الذي أنبت شعبه ، ملكا للغرباء فشرد هذا النبت الأصلي " الشعب " أو قتل ، أو جمع في خيام.

هكذا انحرف مسار الصورة للقرية والمدينة في الرواية الفلسطينية ولم تعد القرية ، مكان الأصالة والسماحة والسذاجة أحيانا ،وابتعدت المدينة عن معنى التحضر ، والانغماس في مادية الحياة ، وتلوث الأصول البريئة بملوثات العصر ، لتغير بعد ذلك مكونات ساكنيها ، وتولدت عند الروائيين الفلسطينين صورة جديدة و مؤلمة لمكان ثالث " المخيم " ، فلم يعد المخيم يحمل صورة الترف واللهو فالثري يخرج خارج الديار للقيلولة فينصب خيام المرح والترف ويمارس طقوسها للعودة إلى السيرة الأولى ' سيرة اللاهموم ، سيرة ابتعاد الذات من تراكمات الحضارة وآفاتها .

وفي عودة أولى للمعنى المعجمي لهذه المصطلحات نجد المدينة مصطلحا يعني : الحضارة واتساع العمران ، ونقول: تمدن فلان إذا عاش عيشة أهل المدن وتنعم وأخذ بأسباب الحضارة ، فالمدينة تعني الاستقرار في بيوت الحجر ، والابتعاد عن مظاهر الانشغال بالأرض من زراعة وغيرها أما القرية فهي كل مكان اتصلت به الأبنية واتخذ قرارا وغايتي من القرية ، وهوالمكان الذي فيه زرع وخصب ويطلق على كل مكان ما عدا المدن ، والريفة من الأرض : الخصبة [2]" ، والهوة واسعة بين الريف والمدينة ،فالمدينة هي الحضارة والراحة والبراءة من هموم الأرض " الزراعة – التنقل -----" أما القرية أو الريف ، فهي عكس ذلك تماما -- الانشغال الدائم بهموم الأرض ، والانتظار الدائم لماء السماء ، والتكوينات الأولى للشخصية البريئة ، والبساطة في كل شيء .

---

(1) انظر رينيه ويليك / نظرية الرواية – ترجمة حسام الخطيب --- ط٢ ١٩٧٢ : ٢٨٨

(2) انظر المعجم الوسيط –ط٢ ،ج٢ : ٧٣٢ : ٨٥٨ وج١ : ٣٨٦ مادة -- دون ، ريف

أما المخيم فهو المكان الذي نصبت فيه الخيام . و الخيام كل بيت يقام من أعواد الشجر . وهذا البيت يتخذ من الصوف أو القطن . ويشد بأطناب [1] .

وبعيدا عن هذه المعاني المعجمية للريف والمدينة والمخيم يرى الباحث : أن الراوي الفلسطيني على وعي كامل بالمكان الفلسطيني أو بفلسطين خاصة . ففلسطين موطنه الذي ولد وتربى على ثراه . و فلسطين مهد الحضارات . ومهد الإنسانية . فلسطين التي لم ولن يهملها في كتاباته . فرصد المكان جيدا وصور واقع القرية و المدينة . و المخيم . أماكن عانت قديما ولما تتخلص من معاناتها . فكانت القرية و المدينة مكانين للمعاناة . في إطارهما الخاص . وبذوقهما الخاص . و تتجلى قمة المعاناة في المخيم الذي نصب لاحتواء الشعوب المقموعة المشردة فزاد من قمعها وتشريدها . حتى أصبحت هذه المخيمات قبورا للأحياء الذين لا يزالون ينتظرون العودة . وأين هي هذه العودة ؟!!

من هنا حرص الروائيون الفلسطينيون على حفر خريطة أرضهم – فلسطين – بالأحداث والرجال . ومظاهر الطبيعة التي لا تزول . من شمال وطنهم إلى أقصى جنوبه . ومن شرقه إلى غربه . لم يهمل الراوي الفلسطيني بقعة واحدة صغرت أم كبرت . إذ عانى المكان وشارك وساهم ولا يزال يخضع في قماقم الظلم .

* * *

---

(1) انظر المعجم الوسيط ج1 : 267 مادة خيم

أولا : صورة القرية في الرواية الفلسطينية

للقرية ذوق خاص في الرواية الفلسطينية . حيث تجاوزت القرية حدود البساطة والسذاجة إلى أفق الانتماء والارتباط والبقاء والصمود . وتكاد أن تكون القرية هي الأكثر حضورا – فيما قرأت من روايات – في كتابات الرواية الفلسطينية .إذ تشترك جميع هذه الروايات في سماء واحدة . مع – بقاء تميز واحدة على أخرى – ولا عجب في ذلك فالقرية هنا ليست مجرد قرية يخرج ابنها إلى المدينة فيتعرض إلى ألوان شتى من المصاعب ليخضع بما يسمى بالهجرة والهجرة المعاكسة . نحن أمام تراب .و وطن خضع لمصيبة زمنية تسمى الاحتلال . هذا الاحتلال يعاني منه الوطن بأكمله . فمن الحتمية معالجة القرية ضمن هذه المعطيات . والكاتب الفلسطيني غايته إبراز انتمائه وارتباط شعبه بالتراب . بالوطن فكانت غايته القرية . فابن القرية أكثر ارتباطا بالتراب حيث يرى نفسه كتلك النبتة التي تشق طريقها إلى أعلى التربة وجذورها في الأسفل . الفلاح يضع الغالي والنفيس في سبيل حصوله على شبر أرض ليزرعه . فهو مكلف إذاً بالحفاظ على هذه الأشبار ولن يبخل في ذلك والقرية في هذه الروايات تسير في نسق معين ينحصر فيما يلي :

أ– ١– الحياة القروية قبل الاحتلال اليهودي . حيث يمضي أهل القرية يومهم في أعمال الأرض تجمعهم هموم واحدة . الحصاد – المطر – النبات . كما تجمع أجسادهم دار المختار .و المختار هذا يختاره أهل القرية وكبارها ليحرص على شؤون القرية عامة . والأفراد في القرية يد واحدة يتعاونون في إتمام أمورهم .و يتشاركون في إتمام الفرح . كما يتشاركون في الحصاد والبذار والترح .

- "آه يا مريم ذاكرة يوم ما اتجوزنا . أو صار لنا عرس ما صار مثله في قريتنا ولا القرى اللي حوالينا .
- والله ذاكرته أو ما عمره بروح من بالي .
- يومها إجا الناس من كل القرى اللي حوالينا .

- وهب أهل قريتنا يستقبلوا الضيوف . ويقوموا بالواجب . ناس بتطبخ . ناس بتمد الفراش . ناس بتحضر القهوة " الشاي " [1]

فالحياة الاجتماعية في القرى الفلسطينية واحدة قبل الاحتلال . الفلاح مهتم بأرضه وإدارة شؤونها . حريص على ذلك . ينتظر موسم حصاده . حيث حاجته الشديدة لهذا الحصاد ففيه يغطي كافة التزاماته .

" الفلاحون خرجوا إلى البساتين والحقول والحواكير . وسرح الراعي مع قطيعه إلى وادي " أبو صرار " وبدأت النسوة في تفقد شؤون الحطب وآقنان الدجاج وتحضير الأكل "[2]

" مطر شباط يغسل القرية بتواصل . والفلاحون يظهرون فرحهم بامتلاء الآبار وارتواء الزرع دون سأم . في السهرات الليلية البطيئة تمر فصول السنة وغلة الأرض . وسعر القمح والملابس والزيت .... "[3]

" موسم الحصاد هو موسم الفرح بالنسبة لأي فلاح . تتراكم فوق كاهل الفلاح متاعب العمل طيلة سنة . ومطالب الدائنين . وهموم نفاذ المؤونة . والخوف من تقديرات محصلي الضرائب . ومن غزوات الهجانة . والولد الذي صار في سن الزواج . والبنت التي امتلأ جسدها وصارت عيناها زائغة والعجوز التي تشكو الأوجاع . ولا تنفع معها الحجب والتعاويذ . وعشرات الهموم الأخرى . ومع ذلك تظل أيام الحصاد هي أيام الفرح ...... "[4]

٢- القرية تعاني :

القرية في الرواية الفلسطينية يعاني أهلها من هموم قبل الاحتلال فهموم الاحتلال التركي والإنجليزي . وقبل هذا أو في ظله ذاك التسلط لأحد الأشخاص المعتمد على قبيلته على أهل القرى وإجبارهم على دفع الإتاوة . أو امتداد الإقطاعيين لشراء أراضي القرية . ألوان شتى من الهموم كانت في القرية تمارس على أصحابها . ولن نتجاوز هم عدم نزول المطر . وهموم التعليم فالمدارس غير متوافرة . وإن وجدت فهي محصورة أو

---

(١) رواية أيام الحب والموت – : ٥٠ – ٥٢ – حوارية مريم وابو محمود من قرية ذكرين –

(٢) رواية عصافير الشمال –: ١٩

(٣) المصدر السابق : ٨٠

(٤) رواية بير الشوم – : ٢٢٧

قليلة الصفوف الدراسية . حتى شيخ القرية . شيخ غير مؤهل للمشيخة الدينية . وإن تجاوزنا هذه الهموم نرى هم التنازع على الأرض داخل أفراد القرية الواحدة . فالمختار أو الثري من أفرادها يطغى على أرض غيره عنوة .

- نرى آل العلني مثلا من غزة يريدون شراء أراضي القرية .

" ويدعم المختار في خصومته مع آل العلني الذين يسكنون غزة . وكان هؤلاء قد ضغطوا لشراء قطعة أرض يملكها المختار ليضموها إلى أملاكهم "(١)

" قبل عشرات الأعوام . لا يذكر أحد بالتحديد حتى كان ذلك . كانت كل قرى الخليل السفلى تعيش تحت قسوة وظلم عشيرة العواونة وكان رأس تلك العشيرة الرهيبة القوة والبأس والظلم – الشيخ ((هاجم العواونة)) ...... وبدأو ينشرون الرعب في قلوب أهالي القرى المجاورة . عجور. ذكرين . كدنا . رعنا "(٢)

" وكأنما لا يكفي هاجم وداهم . ظلم الأتراك . وضرائب الإنجليز ..... "(٣)

بعدين تعشينا وصرنا نحكي عن الولد اللي بدنا نجيبه ونسميه محمود . ونعلمه في مدرسة بلدنا حتى يصل الصف الرابع . ونوديه يتعلم في القدس أو برجع أستاذ مثل الأستاذ خليل اللي بعلم لولاد في مدرسة قريتنا "(٤)

" كانت المدرسة غرفة واسعة الأرجاء . بنيت من الحجارة البيضاء والإسمنت والقضبان الفولاذية . وقد دفع أهالي القرية كثيرا من محاصيلهم لبناء المدرسة . أحضروا المواد التي تحتاجها من حيفاء في سياره للبلد وجلبوا بناء ماهرا من الخليل .... كانت المدرسة قرب كرم سلمان الفلاح أبو عبدالله . وكان الرجل قد وهب من أرضه العزيزة على قلبه تلك القطعة التي أنشيء عليها بناء المدرسة . من أجل عيون أهالي القرية ورفض الرجل أن يتقاضى مليما واحدا ثمنا للأرض ....

---

(١) بير الشوم : ١٣– ١٤

(٢) أيام الحب الموت : ١٥– ١٦

(٣) السابق : ٢٦

(٤) السابق : ٣٥

قال سلمان الفلاح :

" أي والله . أنا وهبت هالأرض منشان آولادنا يتعلموا أولاد المدن كلهم اليوم بتعلموا القراية .... "[1]

أما خلاف أهل القرية أنفسهم على الأرض فهذا أمر حاصل في أجواء القرية كانوا يشيرون إلى واقعة تعرفها القرية . مضى عليها أكثر من عشرين سنة حتى طواها النسيان . اختلف المختار مع أبي جواد . وتنازعا على أرض كان أبو جواد يزرعها منذ أيام الأتراك . حيث كانت الأرض مشاعا . وعندما مثل المختار القرية في اللجنة التي أنهت شيوع الأرض . استخدم دهاءه حتى آلت أرض أبي جواد إليه فتنازعا وامتدت المنازعة سنوات . وقد استطاع المختار أن يتغلب على أبي جواد في المحاكم وسجلت الأرض باسمه . وحصلت قطيعة خلال تلك السنوات بين الأسرتين "[2]

هكذا عاشت القرية الفلسطينية حياتها قبل الاحتلال. شأنها شأن القرى الأخرى . هم الفلاح في أرضه . المطر والبذور للإعداد الجيد لموسم خير ثم الانشغال بأعمال الزراعة والانتظار لموسم الحصاد . هذا الموسم الذي تبنى الآمال عليه في تسديد الديون وإشباع الرغبات أما البنية الاجتماعية فمتماسكة . فالجميع يد واحدة في إنجاز أشغالهم يترابطون في الأفراح والأحزان . ويتعاونون في الإبذار والحصاد . مع بقاء ما يسمى بالصراع الطبقي على الأرض . المتمثل بسطوة أهل الثروة المتنفذين على المزارعين للاستيلاء على الأرض بأثمان زهيدة و جلب اليد العاملة بأجور متدنية و هكذا جسدت القرية مدى بشاعة احتلال الطبقة المتنفذة على الأرض قبل الاحتلال اليهودي.

ب – القرية في ظلام الاحتلال :

أما الإشكالية الكبرى التي جعلت للأرض القروية صورة أخرى فهي النكبة . النكبة بمعناها الأوسع . الاحتلال الإنجليزي بداية واليهودي تحت غطائه الإنجليزي ثم الانكشاف علانية . هنا للقرية لون آخر . تميزت به وانفردت به ولكن الروائي الفلسطيني حرص على استخدام هذا اللون لحفر خريطة وطنه وتجلية التضحية والبقاء والخلود

(د) رواية الحب والموت : ٥٨

(٦) بير الشوم : ١١٨

أمام هذه النكبات . فهذا الأخير شعر بدور القرية الدلالي الرمزي واستعمله جيدا فالقرية تعني النبات والإنبات ، تعني الالتصاق بالأرض والتراب و عدم الخروج منه تعني الجذور والحياة الأبدية . تعني الثبات وعدم الزحزحة ، تعني الحياة . الأرض هي الفلاح ، والفلاح هو الأرض . فكانت القرية هي الأكثر حضورا في الرواية الفلسطينية – في حدود اطلاعي – ولا عجب في هذه الكثرة ، فالروائي الفلسطيني ابن هذه الإشكالية ، وابن هذا الوطن . وهو الأعلم بحق . عن دور الوطن كتراب وأرض في الحفاظ على الوجود والحق في البقاء .

في هذه الظلمات برزت صورة القرية في العمل الروائي الفلسطيني تحت أطر مختلفة ، فهؤلاء الغرباء أو الفتوات الذين لا يعلم أهل القرية مصدر حضورهم . والمخاتير، والإقطاعيون ، أحد أسباب شقاء القرية في ظلم الاحتلال ، حيث بيع الأراضي ، والدعم المادي والمعنوي للاحتلال مقابل مركز حقير لهؤلاء يضعهم فيه مؤقتا حتى إشعار آخر " ولكن الإنجليز جاءوا " .وداهم أخذ (يعزمهم) ويذبح لهم الخراف ، ويعمل على إذلال الرجال الذين عادوا ، ويخرس أفواههم عن المطالبة بأراضيهم التي سرقها في غيبتهم وضمها إلى أرضه .....

ولكن الناس دهشوا حين علموا أن داهم العواونة قد باع لليهود بعض الأرض بين ذكرين وبيت جالا ، وأن اليهود جاءوا تحميهم سيارات الإنجليز "[1]

" أحس الشيخ حسن أن الحديث لن يصل إلى نتيجة ، وكان يدرك أن المختار يثق في قرارة نفسه بالإنجليز ، وعلاقته بالكابتن حميمة ، وكان هذا الضابط الإنجليزي يستجيب لمطالب المختار فيقوي ثقته به " [2]

هؤلاء الخونة أو المتخاذلون لم يقفوا في وجه أهالي القرية، فأهالي القرية حريصون على الحراسة الدائمة للقرية ، ويمدون يد العون للقرى المجاورة إذا احتاجت .

" تناهى إلى سمعها صوت رصاص بعيد ، فبنت مخاوفها حول زوجها الذي يحرس مع الرجال أطراف القرية والدروب المؤدية اليها "[3]

---

(١) أيام الحب والموت : ٢٤ – ٢٧

(٢) بير الشوم : ١٣

(٣) أيام الحب والموت : ٨

" ذلك اليوم الذي ذهبت فيه نجدة القرية إلى " بيت دراس " لمساعدة مجاهديها في رد الهجوم الصهيوني " [١]

" لقد كتب الذين أرخوا لمعركة " بيت دراس " أن نجدات كثيرة من قرى عدة وصلت بيت دراس في ذلك اليوم .

وكانت النجدة التي قادها الشيخ حسن واحدة منها ، وصلت " بيت دراس " بعد نصف ساعة من مغادرتها القرية وانضمت إلى المجاهدين الذين تجمعوا لفك الطوق عنها " [٢]

أمام هذه التغيرات كان من الطبيعي أن تتغير الحياة الإجتماعية والهموم الإنسانية، فالحصاد لم يعد هم الفلاح الأوحد ، والزراعة والبذارة أصبحت ثاني همومه . فالمواطن – الفلاح الفلسطيني – أمام تحد للفناء والزوال عن هذه الأرض .

" كان الناس قد أهملوا أعمالهم الزراعية وحراسة كرومهم . فالخطر الداهم اجتاح حياتهم وقلب أوضاعهم واتجاه تفكيرهم " [٣]

" كان الناس قد حصدوا حقول القمح ، الأشجار مثقلة بالثمار . والحقول المزروعة بالذرة أخصبت هذا العام أكثر من أي عام مر . لكن أحدا لا يفكر في حصاد الذرة . فالمعارك اشتدت وحمأة القتال ازدادت .

هذا وقت الحصاد

هذا وقت الموت

من الذي يفكر بأن يحمل منجله ويسري مع الصباح إلى حقله . يحني هامته ويبدأ في اجتزاز أعواد الذرة بشفرة منجله الحادة . لا أحد يفعل ذلك إلا إذا أراد أن يغامر بروحه . ذلك أن اليهود أخذوا يتصيدون الناس ويزيدون من حدة هجماتهم ، معهم كل أدوات الموت . دبابات . طائرات . رشاشات . وليل نهار يهاجمون . يقتلون . أطفال . نساء . شيوخ . أشجار حيوانات . أي شيء . المهم أن ينشر الموت لواءه في كل مكان " [٤]

---

(١) بير الشوم : ٨

(٢) السابق : ٦١

(٣) أيام الحب والموت : ٤٧

(٤) أيام الحب والموت : ٦٨ – ٦٩

وبدأت المواجهة . أيام الإنجليز ثم اليهود . تغيرت الهموم أولا . تنبه أصحاب الأرض بالخطر الداهم مع إحساسهم المسبق بعد مجيئه . ولكنهم تنبهوا لشراهة اليهود . هؤلاء يريدون الأرض . فبدأوا بالقتل والغدر والخيانة . قتل كل شيء . واحتلال الأراضي مع إعطاء العهود لأهلها بعدم السبق في الاعتداء . يريدون نشر الذعر فأطلقوا إشاعات وإشاعات . أطلقوا أصداء أعمالهم الإجرامية ، كل هذا لتفريغ الأرض وزراعة المستعمرات بدلا من زراعة النبات . إنبات الغريب بعد قلع ابن الأرض .

" اليهود قبل أربعة أيام تسللوا في الليل إلى بيادر قرية تل الصافي – كان الناس ينامون على البيادر – ذبحوا رجلين وأمرأة وطفلا . وفروا وهم يطلقون الرصاص . ما كان أهالي القرية أو القرى المجاورة يتوقعون حدوث مثل هذا العمل البشع . صحيح أن الناس يعرفون أن القلاقل بدأت لكن أحدا ما كان يحسب أن تصل الأمور إلى هذا الحد "[1]

" كان الناس ما زالوا يتناقلون خبر استشهاد عبد القادر حيث وقع نبأ فاجعة دير ياسين . ووصلت تفاصيل المذابح التي اقترفها اليهود . ذبحهم للأطفال . بقرهم لبطون الحبالى . ساد جو من الذعر والخشية بين النساء . بعد تلك المذبحة . وأخذ بعض الرجال يفكرون في إبعاد زوجاتهم وأطفالهم وذويهم الطاعنين في السن إلى مناطق أكثر أمنا. ولكن عبدالله سلمان " أبو محمود " دعا الرجال للاجتماع عند البيادر ليتكلم معهم ويقطع حبل الإشاعات ويخرس النوايا الشاذة عند البعض "[2]

يقول المختار : " ومختار المستعمرة قال لي : اذا قعدتوا بحالكو بنهاجمكوش . والكابتن أكد هذا الحكي في حضوري وحضور وجوه القرية . وكنت أنت قاعد وسمعت بنفسك .... القرى التي وعدوها واحتلوها بعدين ؟ وسلمت ؟ ..... "[3]

والغاية التي يريدها الصهاينة واضحة تماما :

حوار أم فارس مع أم عيسى :

" هيه وبعدين يا أم فارس ؟ خير إن شاء الله ؟ شو بدهم منا ؟

(١) السابق : ١٠

(٢) أيام الحب والموت : ٤٩

(٣) بير الشوم : ١٣

- والله يا اختي بيقولوا حاطين عينيهم على الأرض الشمالية . بدهم يخلوها هودية ميه بالمية ."[1]

" رسم دورا وشوارع معبدة وكتب تحتها " قرية جديدة للايجار " إنه الضلع الطولي جنوبا . قاع مستطيل القرية ، ذات الأراضي المصادرة بحجة أملاك الغائبين منذ عام ١٩٤٨.

هنا ستقوم قرية جديدة تملكها شركة ميرن كيميت "[2]

وبدأ الاحتلال بطمس الأسماء العربية بعد طمس التراب والجذر العربي

" ..... وزير الزراعة يصرح لمندوب الإذاعة بأن الهدف من غرس الأشجار ليس مجرد تجميل الطبيعة وإنما لمنع تسلط العرب على الأرض "[3]

وقد تنبه اليهود إلى مفعول القرية وإلى دورها في الحفاظ على الهوية الفلسطينية . فالفلاح هو المتمسك بتراب وطنه . والقرى تمثل طرقا هامة للمدن . والقرى مركز إيواء المشاغبين ، ومن القرى انبثق التعاون لمواجهة الاحتلال . فكانت القرية هدفا اليهود وغايتهم .

" ...... الموجز : قوات الأمن تعتقل مجموعة من المشاغبين في قرى الشمال " [4]

بيت دراس من النقاط الهامة التي يجب السيطرة عليها ضمن مخطط القيادة الصهيونية والسبب : " الذي يشكل عقدة مواصلات هامة بين عدة قرى وبلدان في ذلك الجزء من جنوب فلسطين "[د]

وأمام هذه المعطيات الجديدة تغيرت الحياة في القرية ، تغير نمط الترابط الاجتماعي . ففي وقت الحصاد حيث ترابط الجميع لإتمامه وزراعته من قبل . صار الآن مهدداً بالزوال . ولكن تبقى القرية رمزا للترابط والتلاحم ، تبقى القرية رمز الخير والعطاء ، تبقى القرية رمزا للتماسك ساعة المحنة .

---

(١) عصافير الشمال : ١١

(٢) السابق : ٧٣

(٣) السابق : ٣٣

(٤) عصافير الشمال : ٣٣

(د) بير الشوم : ٦١

" شيء ما قد تغير بل كل شيء تغير، والتغيير قد شمل الريف أيضا لا المدينة فحسب. ماذا حدث ؟! الأرض ما زالت معطاءة، والجدول ما زال رقراقا عذبا والموسم كان خيرا، لكن الأرض ما كانت تنبت إلا الأعشاب البرية، ...... والزعتر يملأ الأرض ولا أحد يتهافت على قطافه كما كانت العادة دوما "(١)

" أهالي القرى يقاتلون، يدفنون قتلاهم بصمت وبدون دموع، ولكن بحقد على اليهود."(٢)

" بعد أن طرح عليهم – محمد المرابع – المساء قال لهم، بهدوء رصين : – السلاح يا عمامي غالي، بس الأرض برخص كل شيء من أجلها .... – الأسعار صارت نار هالأيام لأن كل المدن والقرى بتتسلح. بدنا بواريد، أو يدنا فشك. أو بدنا برنين أقل شيء، المصاري والذهب اللي في أرقاب النسوان بتعوض، بس الأرض ما بتتعوض ....

– بعد أن جمع أهالي القرية المال، وباعوا حلي النساء، وضعوا كل ما جمعوه في صرة كبيرة، سلمها الشيخ سلمان ..... الفلاح .... لمحمد المرابع. "(٣)

" أصدر قائد الفصيل من مجلسه مع الضيوف، أوامره لإعداد موكب التشييع، وظل مع ضيوفه يبادلهم الحديث وشرع يحي وجهاء القرى واحدا واحدا مسميا إياهم بأسمائهم، والتفت إلى الشيخ حسن وقال :

– فيك البركة يا بو حسان، إنت اللي ما خيبتش رجالنا ورجالكو أسود فضلكوا على راسنا بننساهوش طول العمر "(٤)

وأمام كل هذا تبقى القرية الأمل. مصدر الخير. مصدر المقاومة. الأماني بالعودة إلى ما كان.

" مسيرنا نتلاقى يا مريم لا تخافي ..... مسير هالكابوس يزول عنا ونرجع نحرث أرضنا ونبذرها، ونحصد قمحها وشعيرها ونوكل عنبها وتينها .... "(٥)

---

(١) الصبار – سحر خليفة –: ٣٨

(٢) أيام الحب والموت : ٦٩

(٣) أيام الحب والموت : ٣١

(٤) بير الشوم : ٦٢

(٥) أيام الحب والموت : ٧٦

" كان والدك مزارعا طيلة عمره ..... وقد جعل من الأرض الصخرية جنة نقب الحجارة وفتت الصخور ونخل التربة "[1]

ومن كان عمله هذا في الأرض ففكرة الرحيل أو الزوال تكون مستحيلة فالموت عنده خير من تركها .

" في مقدوركم أن تقولوا على الفلاحين ما شئتم .... أما عن حبهم لأرضهم وكرههم للرحيل عنها فهذه مسألة لايطالها أي قول "[2]

هكذا كانت صورة القرية في الرواية الفلسطينية . صورة العمل والارتباط مع الأرض –فالأرض حياة الفلاح –، صورة التآزر الاجتماعي ،و الترابط .والتماسك ،و التفاعل مع الطبيعة . فهو على علاقة وطيدة بالطبيعة ، يتحسن حاله بتحسنها ويزداد حاله سوءا إذا حبست الطبيعة مطرها ، ولا ننسى في هذه الأجواء ظهور المخاتير أو الفتوات من خارج القرية وقلة الوعي الدراسي عند سكانها ، فالأرض هي كل الهموم .

أما عند الاحتلال ، انقلبت هذه المقاييس . فأصبح التآزر الاجتماعي لمواجهة غضب الاحتلال بدلا من مواجهة الهموم اليومية ، وأصبح هاجس الاحتلال منغصا للجميع ، وتهافت الأبطال للمساعدة وحماية الحمى ، وانشغل الناس بجمع العدة ودفن الشهداء والارتباط أكثر وأكثر في الأرض ، ولا ننسى طبعا دور هؤلاء الخونة مع الاحتلال .

وفي ظل هذه الاشارات تبقى القرية الأكثر تواجدا على الساحة فهي من الناحية العسكرية هامة للاحتلال ، لوقوعها على طرق المدن وبعض هذه القرى يشكل حلقة وصل هامة . وعلى المستوى الفكري القرية تعني الارتباط المتلاحم مع الأرض ، وتهويد القرية يعني تهويد الأرض .

أما على صعيد البنية التركيبية للمجتمع الفلسطيني القديم ، فالقرية هي من مكونات فلسطين الرئيسة ، وهي الأكثر والأعم وجودا ،و استطاع الراوي من خلال سرده للحوار بين أبناء القرية "أبطال روايته عن طريق اللغة الفصحى تارة و اللغة

---

(١) الصبار : ٣٥

(٢) بير الشوم : ٢٥١

المحكية تارة أخرى أن ينقل هذه الرؤية الخاصة به إذ يريد أن يصور لنا القرية في ظل الاحتلال الطبقي و الاحتلال اليهودي فالفلاح دوما مضطهد قبل الاحتلال و بعده.

صورة المدينة في الرواية الفلسطينية

اهتم الروائي الفلسطيني بالمدينة اهتماما يختلف عن ذلك الاهتمام بالقرية فلم ترد صورة المدينة مثل صورة القرية ، المدينة وكأنها هودت تماما ، الحياة يهودية . اللغة ، العادات ، التقاليد . مع الاحتفاظ بواقع المأساة . فمأساة الاحتلال حلت بالمدينة والقرية على حد سواء . وإذا شاهدنا الطوق أو الحصار العسكري على القرية لاحتلالها فإننا نجد منع التجول على المدينة . بل والحياة فيها تنتهي بقدوم المساء ، فما هي صورة المدينة في تلك الروايات ؟؟

أ- التعليم في المدينة أوسع وأشمل منه في القرية بل نرى المدارس في المدينة مقصد الفلاحين لإكمال تعليمهم ، فالقرى تبعث أولادها إلى أقرب مدينة لهم لمتابعة تعليمهم . مثل القدس أو غزة أو نابلس .

يقول أبو محمود : " وصرنا نحكي عن الولد اللي بدنا نجيبه ونسميه محمود ونعلمه في مدرسة بلدنا حتى الصف الرابع ونوديه يتعلم في القدس "[1]

وما قاله الشيخ سلمان الفلاح : " آي والله ، أنا وهبت هالأرض منشان أولادنا يتعلموا ، أولاد المدن كلهم بتعلموا القراية "[2]

فقضية التعليم أوسع وأشمل في المدن ، ثم الاهتمام بالأعمال الزراعية غير موجود في أجواء المدينة بل العمل هو أساس حياة المدني ، وهذا العمل أوجد الفروقات الطبقية . الإقطاعيون المدنيون يطمعون بالأرض . ولكن أي أرض هذه ؟؟ إنها أرض الفلاح . فيذهبون إلى القرى المجاورة أو ما يمكن بتسميته " المدينة الريف " كأريحا ويشترون أراضيها ويستعبدون فلاحيها ويبنون فيها منازلهم الفارهة وتصبح أحياؤهم مطمعا لشباب القرية لمشاهدة تحضر نسوتهن وبناتهن .

---

(١) أيام الحب والموت : ٥٢

(٢) السابق : ٥٨

"لكن الأغنياء من أبناء العوائل الفلسطينية الإقطاعية جنوا ثمار أتعاب الفلاحين اللاجئين. لقد ابتاع أولئك الأغنياء الأرض من فقراء أريحا بأثمان بخسة واستولوا على الأرض البور، ثم استغلوا اللاجئين المعوزين وسخروهم في حرث الأرض وزرعها، وخدمتها بأجور زهيدة لا تقيم الأود."[1]

"ويدعم المختار في خصومته مع آل العلني الذين يسكنون في غزة. وكان هؤلاء قد ضغطوا لشراء قطعة أرض يملكها المختار ليضموها إلى أملاكهم"[2]

هكذا عاش المدني حياته داخل مدينته، فالتعليم متوفر والطبقية موجودة ولكن ما عهدناه في ظل القرية من ترابط وتلاحم اجتماعي لم نره هنا في المدينة قبل الاحتلال.

ب-المدينة في ظل الاحتلال: أمام هذا الاحتلال يجدر بصاحب الأرض الرجوع إلى أمجاد الماضي والبحث عن الجذور العميقة، والمدن الفلسطينية عامة. صاحبة جذور يصعب نسيانها أو طمسها. فأريحا مدينة التاريخ. والقدس وما أدراك ما القدس. وماذا بعد - ؟! كل مدينة فلسطينية تاريخ قائم بذاته.

"في الألف السابع قبل الميلاد بنيت أريحا. فهي أقدم مدينة في التاريخ. وفي الألف الثالثة قبل الميلاد، أعاد الكنعانيون العرب تشييد أسوارها وأبراجها لحمايتها من الغزاة"[3]

"نابلس طول عمرها جبل النار ...."[4] الجذر التاريخي للمدينة قديم لا يمكن تغييره

أما الحياة في داخلها فقد تغيرت في ظلام الاحتلال، هدم المنازل، منع التجول، الحياة الطبيعية أيضا تغيرت، أمام كل هذه التغييرات وقف الروائي وصور. فكانت المدينة تحت ظلم الاحتلال شيئا آخر يختلف عنه قبل هذا الاحتلال، مع التنبه إلى التمركز اليهودي الكبير داخل المدن. بل وطمس المعالم العربية واستبدالها بالعبرية، حتى أصبحت هذه المدن غريبة على أهلها.

---

(١) رواية العشاق -: ١٠

(٢) بير الشوم: ١٣

(٣) العاشاق: د

(٤) عباد الشمس -: ١٦٧

" تدفق العمال من باب الشاحنة ، وتفرقوا في شوارع تل أبيب النائمة ، وكانت الشمس ما زالت تتمطى في سماء غائمة "(١)

" ليل نابلس البارد الرطب ينخر الرئتين . والربيع ما زال شتاء والوحل يلوث الطرقات المهجورة "(٢)

" من القدس لنابلس ولا تحزن يا قلب .... حقول الفطر والفطريات وبيت حنانيا والحنين الساجي الممدود على أرض مطار . طائرات سماكية رمادية سوداء ، غربان تحط على سطح معتقل .... "(٣)

فكان الاحتلال أداة تغيير كبرى لهذه المدن ، وتدخلت في كل معالم الحياة محاولة تغييرها أو طمسها ، ومن ثم تهويدها .

" مشكلة الماء غزت . شحت العيون والآبار وعدوا حبات المطر ، حبسوها وجمركوها ، ولم تسلم عين من رقابتهم إلا عين المسكين . حتى العين التي وعت صبا سعدية وخلافة الأتراك وانتصارات الزنكي جفت ، وعيون العروبة تشهد "(٤)

ومع المساء تنتهي الحياة في المدينة فتتشابه المدينة مع القبور غير أن الحياة الداخلية تختلف ، فالقبور سكانها أموات داخل أموات ، أما المدن فأحياء في ثوب أموات.

" كان النهار قد ارتحل ولم تبق في المدينة إلا القطط الضالة تروح وتجيء دون كلل"(٥)

أما العقاب الصهيوني ردا على المقاومة فهو عقاب جماعي يمنع التجول تارة، وحبس مئات الألوف داخل منازلهم لتتحول فلسطين إلى سجن عام وعقاب فردي جماعي بهدم المنازل وتشريد ساكنيها .

" كان يحس بأن الضفة قد باتت بحجم القمقم "(٦)

---

(١) الصبار : ٤٥

(٢) السابق : ٥٩

(٣) عباد الشمس : ٢٠

(٤) السابق : ١٥٤

(٥) نفسه : ٥٣

(٦) الصبار : ٢٠

" وكان مهندسو جيش الدفاع يقيسون ارتفاع وانخفاض أحد البيوت البالية في طرف الشارع . والرجال يحملون الفراش على ظهورهم . والنسوة تتراكض بين الدار المحكوم عليها بالإعدام وبيوت الجيران .... وانفجر اللغم . وتحطمت أركان الدار وهوى السقف كتلة واحدة على فتات الجدران "[1]

" يا ابني لعادل ظروفه . شغله في المجلة أبعده عن الدار وأكمل القصة ثم بدأها من أولها كيف نسفت الدار "[2]

حتى الاسم حاول الصهاينة طمسه

- " كنا نسكن طولكرم . ومات الوالد فانتقلت أمي إلى نابلس .

- ولماذا انتقلت أمك إلى شخيم ؟

- تعجبها نابلس

- ولماذا تعجبها شخيم ؟ "[3]

أمام هذه التغييرات بالقوة أحس الشاب والإنسان الفلسطيني بالتغير؛ التغير الذي قبله شعبه أم رفضه .

" شيء ما تغير . بل كل شيء تغير ، والتغيير قد شمل الريف أيضا لا المدينة فحسب . ماذا حدث ؟ ! "[4]

وصدمة منع التجول من أشد الصدمات التي عوقب بها الشعب المدني الفلسطيني ، فساعة أو يوم المنع شديدة الوقع في النفس ، حيث يحرم ابن المدينة من دخول مدينته إذا كان خارجا منها ، وداخل المدينة . الموت الشامل لكل ملامح الحياة ، وإذا ما سمح الاحتلال بساعة فرج ، ترى الجميع يخرج . وكأنهم يخرجون من الأجداث سراعا !

" حين وصلوا مشارف نابلس راعهم منظر السيارات والشاحنات التي اصطفت بالمئات تنتظر الإذن بدخول المدينة .... ودارت النسوة بأطفالهن الباكين من سيارة لسيارة بحثا عن شربة ماء أو موزة أو بسكوته .... قال الحاكم لرئيس البلدية :

---

(١) السابق : ٨٩

(٢) عباد الشمس : ٥٣

(٣) الصبار : ١٤

(٤) السابق : ٣٨

إذا لم توقفوا الطلبة عند حدهم نوقفهم نحن وإذا كنتم لا تعرفون كيف تربون أولادكم نحن نربيهم "[١]

" من هنا تبدو المدينة قعر نهر جاف رصفته الحجارة لا أثر للحياة إلا بضع سيارات تسير في الخناءات ثعبانية بأحجام النمل .... لكن الصمت المطبق مسترسل في إطباقته "[٢]

" تعال من هنا . المدينة أقفلت تماما سيعلن منع التجول . "[٣]

" وانسلت من المدينة أثناء ساعة الإفراج خلال منع التجول . كل الناس هرعوا إلى الدكاكين يشترون الخبز والطحين والسكر "[٤]

هكذا عاش أهل المدينة ظلمة الاحتلال قاوم الطلبة وهم الطبقة المثقفة فكان القمع الجماعي . ولكن أمام هذا التغيير – مرة أخرى – هناك من امتزج به واستوعبه وتقبل الوضع كما هو وأصبحت المدينة التي هودها الاحتلال مطمعا وملجأ للعمل والعمالة.

" كنا في تل أبيب نشتغل "[٥]

" إني يا سادة لأرتجف غيظا وقهرا كلما سمعت كلمة عبرية في الشارع الفلسطيني ينطق بها فرد فلسطيني . أتعرفون أن مفردات لغتهم قد بدأت تغزو شوارعنا ؟ حتى أدباؤنا يا سادة باتوا يستخدمون بعض الألفاظ العبرية . وإذا سألت أحدهم عن السبب قال " كي أدمج القارئ في الجو والمناخ " أي جو وأي مناخ ؟ "[٦]

" ولكن الناس لا تبدو عليهم شقاوة العيش . يلبسون على الموضة . يمشون بخطوات أسرع . ويشترون بدون مساومة ، كثرت النقود . كثرت الأعمال .... الاحتلال ما زال احتلالا ...... وأمام الحوانيت تتكدس البضائع الإسرائيلية . في الواجهات . وعلى

---

(١) عباد الشمس : ٢٤٨

(٢) السابق : ٢٥٣

(٣) الصبار : ٨٦

(٤) عباد الشمس : ٢٦٤

(٥) السابق : ٩٩

(٦) نفسه : ١٣٢

أبواب المتاجر. وعلى الأرصفة. والعمال يشترون بنهم المحروم يأكلون. يلبسون ويطعمون أولادهم حتى التورم ".[1]

هكذا هي المدينة في صورتها، المدينة قبل الاحتلال، طبقية اجتماعية، انغماس في العمل والمادية، هناك كبار يبتلعون كل شيء، وجاء الاحتلال ليفرد ظلمة على سماء المدينة، فيمسح كل شيء فيها حتى الاسم. أمام هذه التحديات تتجلى الطبقة، المثقفة بأحزابها وأفكارها، تحاول المقاومة وتحاول، وأمام هذه المحاولة يصمد أهل المدينة أمام منع التجول أو هدم المنازل، وهناك فئة تجعل من منتجات الاحتلال كسوة لهم ومن أسواقهم مجالا ومكانا لعمالهم. وهناك من يرحل إلى الخارج " الكويت " أو السعودية.

" رجل له كرش ضخم وأوداج منفوخة يمد يده بساعة ثمينة.

– أحضرت هذه من الكويت. أبنائي يعيشون هناك كالملوك. مال ووجاهة، سيارات آخر موديل. اللهم أدمها من نعمة .... "[2]

" ما اسمك ؟

- أسامة الكرمي –
- عمرك ؟
- ٢٧.
- أين كنت ؟
- في عمان.
- وقبل ذلك ؟
- في دول البترول.
- ماذا كنت تعمل ؟
- موظف. "[3]

---

(١) الصبار: ٢٦

(٢) السابق: ٨

(٣) نفسه: ١٢ – ١٣

ومع هذه التناقضات يبقى الجرح جرحا والدم النازف دم الشعب جميعا، ومع وجود المهاجرين - الباحثين عن حياة أخرى، يبقى الجرح نازفا، والحزن عارما، والصامدون صامدين إلى النهاية.

قال محمود:

- هذا صحيح. ونحن حزينون. ومستوحشون مثلها، لكننا أيضا غاضبون، ونعرف لماذا يعم الظلام. لقد رحل كثير من الناس، وظل القليل ولكن المدن: نابلس والخليل والقدس وبيت لحم غاصة بألوف الفلسطينيين وهذه أريحا، فيها أكثر من نصف السكان، الذين رحلوا سيعودون والذين ظلوا هنا سيصمدون "[٤]

* * *

(٤) العشاق: ١٨٧

صورة المخيم في الرواية الفلسطينية

المخيم مسكن المشردين الذين أبعدوا عن أوطانهم عنوة .و سبب هذا الإبعاد اليهود واستعمارهم الأرض بالقوة في المخيم حياة البؤس والشقاء حياة عدم الاستقرار ، حياة الانحسار والدمار .

" أثريات تلك الأضواء ؟ هناك مخيمات اللاجئين الذين تركوا الوطن "(١)

نعم إنه المكان الذي حوصر فيه أهل الأرض والوطن بعد طردهم منه وهؤلاء يحاولون تخفيف الألم عن أنفسهم فيسمون هذه المأساة بالهجرة أو النزحة ويعيشون على أمل العودة .

" كنا – أنا وبدر العنكبوت – ننتمي إلى ذلك الحوش الذي يغص بالمستأجرين بعد أعوام من الخروج . أو كما يقول والدي بعد أعوام من الهجرة "(٢)

" العم (تحصل دار) اشتغل بعد الهجرة مع أحد الصيارفة في المدينة "(٣)

هكذا بدأت المأساة في المخيم . حاول الجيل الأول إقناع نفسه بقصر المدة التي سيقضونها داخل المخيم . ولكن --- الأيام تطول ويجبر هؤلاء على العيش والرضى بواقع المخيم . والاندغام مع مكوناته .

" كان والدا ذا كبرياء .... رفض أن يشمله الإحصاء . ورفض أن يتسلم بطاقة الإعاشة . وها هو بعد أعوام من الخروج يتقدم بطلب إلى الوكالة لكي يشمله الإحصاء ويحصل على البطاقة "(٤)

أمام هذه المأساة وقف الروائي الفلسطيني ورصد لنا هذا الواقع المؤلم الذي هز مشاعر أمة بأكملها وصور لنا هذا المخيم بعين صدق أبرز من خلالها الطبقية في هذا المخيم . هذا الشخص الذي عين ودعم من المحتل لرصد حركات أهل المخيم . فكان متميزا في كل حياته . مصدر غناه مجهول أو يكاد أن يكون مجهولا . بيته يدل على ثراء

---

(١) العشاق : ٢٤٠

(٢) رواية / تفاح المجانين –:١٣

(٣) السابق : ١د

(٤) السابق : ١٣

واسع . حياته تختلف كثيرا عن حياة أهل مخيمه وعندما يقترب الخطر يرحل بأمر من سادته لإبعاده عن الخطر .

" كيف أصبح أبو نبيل الجسر " غنيا ؟

وكلما كبرنا ، كبر هذا السؤال ! لا أدري لماذا كنا ندس أنوفنا في كل شيء "[1]

" قالت أم فتحية باستنكار : " الإنجليز ؟ الإنجليز أعطوا " أبو نبيل " كل هذا ؟

" بيت أبو نبيل الجسر مكون من خمس غرف عدا المستودع الضخم والمضافة "[2]

((" أبو عباد " العجوز قال بأن سر انتصاب أذني ذلك الكلب ، أن صاحبه " أبو نبيل الجسر يطعمه البيض واللحم ، ويسقيه الحليب ! والكلب بن الكلب ، لماذا ونحن لا نأكل اللحم إلا في أيام الجمعة ؟))[3]

" وقلنا ، أيها الكلب المحترم عداء ونباحا ، ماذا ترى في دار أبو نبيل المغلقة على فهمنا ؟ ماذا يفعلون داخل تلك الدار حين يأتي الرجال المقنعون بالصرامة لزيارة أبو نبيل " أو الجلوس معه ؟ عم يتحدثون ؟ أولئك الرجال الغامضون "[4]

" هل ترى ما أراه أمام دار الجسر ؟ "

- نعم أرى ....

هل يريدون الرحيل إلى أين ؟ إلى إين ؟ لماذا الآن ....

فنظر إلى صوان بجدية ونفاذ صبر

- كأنك في واد والدنيا في واد آخر . الأمر خطير . ورحيل أسرة الجسر يحمل دلالات كبيرة !

قلت بغباء :

- دلالات ؟ مثل ماذا ؟

فرفع يده ليضعها على كتف شهاب وكتفي وهو يقول :

- ربما اقتربت الحرب . قد تنشب خلال ساعات !!

---

(١) رواية وقت — : ٥٣ – ٥٤

(٢) السابق : ٦٨

(٣) نفسه : ٢٧

(٤) نفسه : ٢٧

- كيف عرفت
- سألته فأجاب :
- من رحيل الجسر "[1]

أمام هذه البرجوازية لهذا الخائن العميل الذي استلم ثمن خيانته وتسليمه لأحد المجاهدين منزلا ضخما وسيارات ثلاثة وكلباً لا يأكل إلا اللحم والبيض. يعيش سكان المخيم. هوة كبيرة بين هذا وهؤلاء. يعيشون حيث تتساوى الأيام سوادا يعيشون في ظلمات الحياة، منتظرين مساعدات وكالة الغوث، التي تقدم مالا يسد رمق العيش، يعيشون في مصائد الجوع والفقر، يعيشون بانتظار رجل الإحصاء الذي لا يستبعد أن يكون يهوديا، بل إنه لكذلك ! يعيشون على أصداء ما يدور في مدن وقرى وطنهم المغتصب، هكذا صورة المخيم. البؤس والشقاء. الألم والحزن، الأمل بانتظار ما يحققه المدافع.

" وعند العصر جاءت زوجة الفورمن لزيارتنا فبكت الوالدة مر البكاء ملخصة بهذا الانفجار القهر والمعاناة والفقر ومخزون الجوع "[2]

" كنا نسكن في حوش واسع. حوش يغص بالمستأجرين ...... حوش واسع. الأطفال ينطنطون. وامرأة ترضع طفلا من ثديها الضامر. وأخرى تغسل الغسيل ببقايا صابون تكاد تتلاشى. رجال يعبرون عابسين. يجرجرون أقدامهم. رجال عاطلون. عمال باطلون. عتالون. حارس ليلي. قهوجي واحد .... ينط الأطفال وعند البوابة الكبيرة تصطف تنكات الزبالة تغطيها قشور البطيخ ويحوم حولها الذباب "[3]

" كان صيفا شحيحا. قل فيه الماء، وانتشر القمل، وجفت البرك، فاعت الأفاعي .... الضفادع .... الجراد .... الديدان .... جاع الناس .... وصار طحين وكالة الغوث هو الغذاء الوحيد " .... ولذلك فقد بدا الوالد من جديد يكتب العرائض من أجل الحصول على بطاقة التموين. ولكنه ظل ينتظر – دون جدوى – وصول لجنة الإحصاء المكونة من

---

(1) رواية وقت –: ١٩٦ – ١٩٧

(2) تفاح المجانين : ٧٣

(3) السابق : ١٢ – ١٣

المستر بول والست ماري والمترجم أبو فقوسة . أصبحنا نأكل الخبز اليابس ونشرب الشاي المحلى بالسكر الأحمر ذي الطعم الكرية "[1]

" تلك حارتنا . بيوت ملتحمة ببعضها . تحاذي الطريق الترابي بارتفاعات متقاربة جدران طينية ناتئة محفرة ، تتخللها شبابيك خشبية كالحة لا تغلق إلا بالقوة. أسوار معوجة . مروسة بقطع مدببة من الزجاج . حجارة ثقيلة تتدلى على الأسوار لتشد تلك الحبال التي تحمل الملاقط والملابس المغسولة وأكياس اللبن المخيض في باحات الدور"[2]

"والشتاء يتسلل إلى المخيم . خجولا ومترددا . كأنما يخبيء في كهوف سجائر ، سؤلا سنويا متكررا " أما زال المخيم قائما " ؟ لكنه يستحضر في عيون الناس فزعا غامضا وتطيرا ! هكذا يأت الشتاء : جحافل من السحائب البيضاء الرمادية تغزو سماء المخيم .... وحين تصل تسلم قيادها للرياح التي تأتي من الجنوب والشرق المنبسط الممتد ، تلك الرياح التي تسرح في ذلك الخلاء شرقي المخيم .... في ليالي الشتاء التصق بنفسي كثيرا ، فللريح صوت جنائزي يثير في نفسي احساسا مبهما بالخوف "[3]

كل الأيام سواء .... تقترب لحظات الغروب . تحمل أمي صفيحة الماء بيدها وتذهب إلى الحارة الجنوبية حيث صنابير الماء التابعة لوكالة غوث اللاجئين "[4]

" مخيم عقبة جبر " هو أكبر المخيمات ويقع على طريق القدس "[5]

" مر في الشارع الرئيسي الذي يشق المخيم وراقب على كلا الجانبين واجهات الدكاكين ، وسحاحير الخضار والبسطات ، والذباب المتطاير على أكوام الخضار العفنة"[6]

---

(١) نفسه : ٣٨ – ٣٩

(٢) وقت : ٧٣

(٣) وقت : ٧٨ – ٧٩

(٤) السابق : ٨٦

(٥) العشاق : ٨

(٦) السابق : ٦٢

" كان محمود يتشاغل بالنظر إلى الرسومات الاعلانية الصحية الملصقة على جدران الغرفة المترامية . "لا تتبرز في العراء" . "الحليب يقوي الجسم" "الذباب عدونا" وأكد محمود في داخله : (فعلا الذباب عدونا) . ولكن كيف نتخلص منه ؟ فعلا الحليب يقوي الجسم . ولكن من أين نأتي بالحليب ؟ أم انهن يظنون أن الحليب الجاف الذي يحل في إناء ، ويوزعه مطعم الوكالة . هو حليب فعلا "[١]

في هذه الطقوس المظلمة يزيد الإحصاء الليل سوادا :

" التدقيق . الإحصاء الشائعات . الخوف . وكالة الغوث . الأموات يموتون مرة بعد مرة. ولجنة التدقيق والاحصاء تدخل البيوت مثل الريح الصفراء "[٢]

" أنها لجنة الإحصاء ...... دخلوا ، فرشت لهم الوالدة فرشة فوق أخرى ، جلسوا دون أن يخلعوا أحذيتهم .... لقد اعتادوا كما يبدو على إهانة أهالي بلدنا العزل "[٣]

" بيت أبو نبيل الجسر مكون من خمس غرف عدا المستودع الضخم والمضافة ! هذا ما قاله نبيل باختيال لمندوب الإحصاء الذي ولج غرفة الصف دون سابق انذار . ذلك المندوب المربك القصير ، وضع كشوفاته الطويلة وورق الكربون الأزرق ، وعلبة سجائر اللولو ونظارتيه الطبتين على الطاولة . ثم قال لنا – شباب ، نريد معلومات صحيحة ، نريد الحقيقة لكي نعرف كم عددنا ، وما هي أوضاعنا الحالية "[٤]

" من عطفة الشارع ظهر شاب وفتاة ، رأيا محمدا فلوحا له .... نظر اليهما محمد بدهشة ، اقتربا ، توقفا عند البوابة . قالت الفتاة بعربية واضحة :

- جئنا للإحصاء
- لقد حضرنا لتسجيل العائلات التي بقيت في المخيم

سألها :

- عربية ؟

قالت

---

(١) نفسه : ٨٠

(٢) تفاح المجانين : ٨٤

(٣) السابق : ٨٩

(٤) وقت : ٦٨ – ٦٩

- لا . يهودية من اليمن .

تطلع إلى الشاب

- وزميلي من بولونيا

دخلت الأم . فأخبرها محمد

- جاءوا لإحصاء من بقي في المخيم . الفتاة يهودية يمنية وزميلها بولوني .

قالت الفتاة : غدا ستحضر السيارات لتنقلكم إلى مخيم عقبة جبر .

سألها محمود : لماذا

قالت يوجد هناك عائلات كثيرة . أما في مخيمكم ومخيم النويعمة فالأسر قليلة .

.... قال محمد :

- أنت جئت للإحصاء أليس كذلك .

قالت الفتاة : نعم .

سأل محمد :

- لماذا يريدون نقلنا ؟

قال محمود :

- كي يحولوا دون عودة الذين رحلوا .

قال محمد : هذا أولا .

قال محمود : وثانيا : كي يتمكنوا من مراقبة الناس . الانتشار لا يساعدهم على المراقبة .

قال محمد : هذا صحيح ."[1]

نعم حتى المخيمات لم تسلم من السطوة اليهودية . فملاحقة الانسان الفلسطيني ملاحقة شاملة . ذات خصوصية . حيث الفناء الشامل لكل مظهر حياتي وأينما كان . المراقبة . الرقابة . المتابعة والمحاصرة . كل هذا حتى في المخيم .

حتى التعليم في المخيم لم ينج من العذاب . الطريق إلى المدرسة طريق صعب بين أكوام الزبالة ولسع الدبابير . وسيرا على الأقدام وفي المدرسة . الأوامر والنواهي فقط .

---

(١) العشاق : ٢١٥ – ٢١٦

" صغارا كنا ، وكان الصباح يقذف في صدري بأثقال رعب يومي يختلي مع ابتداء رحلتي الصباحية من البيت إلى المدرسة .... بعد أن نبعد بأيدينا الذباب الذي يهاجمنا أمام بيت أبو سليم الفران . نحث الخطى إلى المدرسة .... إنها الدبابير التي تفاجئنا على طريق المدرسة في بعض أيام الربيع . وتثور في وجوهنا حين نقترب من بيوتها المخيفة بين الزرع بجانب الطريق "(١)

" قالت الست إنجيل : نقطة أول السطر .

قالت الست إنجيل : حسنوا خطكم

قالت : لا تتمخطوا في الصف .

قال " الفورمن " أحطم هذه العصا فوق رؤوسكم

قالت الست إنجيل : لا تتمخطوا في الصف . قالت لا تسعلوا . قالت خطكم مثل خرابيش الدجاج .

ثم فقدت أعصابها . فحملت المؤشر . وضربت الأولاد الذين يجلسون في المقعد الأول أما الأولاد الذين يجلسون في المقاعد الخلفية فقد ركعوا فوق الحصى المفروش فوق أرضية الخيمة ، كانت الرياح تهز الشادر .

كان للحصى وخز المسامير "(٢)

وأمام هذه الآلام يبقى حلم العودة والرجوع :

" أي والله لأزغرد اذا قامت الحرب !

زغرودة يسمعها كل أهل المخيم .

يا من درى نرجع للبلد "(٣)

" يا عمي الحرب لا بد منها .

- يعني فكرك كم يوم ؟

- كلها شهر زمان ونرجع للبلاد "(٤)

---

(١) وقت : ١٣ ------- ٤٠

(٢) تفاح المجلنين : ٩ – ١٠ – ١١

(٣) وقت : ١٥٨ – ١٥٩

(٤) وقت : ١٦٨

العلاقة بين صورة القرية – المدينة – المخيم في الرواية الفلسطينية

بعد الاستعراض السابق لملامح المدينة ، القرية – المخيم في الرواية الفلسطينية فمن الضروري بمكان ، جمع خيوط هذه الملامح لتعطي للمتلقي صورة فلسطين الوطن – الأرض . ففلسطين دولة تتكون من قرية ومدينة وازدادت مخيما بعدما سطرالاحتلال ليلهم في سماء فلسطين وليكون المخيم بداية هذه العلاقة . فهو ثمرة الخراب والدمار ، بعد الغزو والاحتلال يكون الإبعاد ومحاولة التهجير والزوال ، وهذا التهجير والزوال يبدأ بالاحتلال وتضيق العيش وذلك بحصره في بقعة مظلمةمن الأرض يحرم فيها الإنسان من أقل حقوقه . المسكن الضيق المعتم . الشوارع المحصورة ذات القاذورات على أطرافها ، الذباب ، أكوام الزبالة ، نقص الخدمات ، حتى التعليم ظلم واحتقار ، وكيف لا ؟ فالعقل يجب تدميره أيضا ، لأن الحرية تبدأ بلحظة تفكير ، وفوق هذا كله ، التدقيق والإحصاء من أشخاص يهود أو تابعين لليهود . ويبدأون أول ما يبدأون به محو الاسم الفلسطيني .

" كان الشاب الأشقر يراقب بعينيه كل شيء في البيت ، رأى خارطة فلسطين على الجدار فتمتم :

- إسرائيل
- قال محمد :
- فلسطين . "[1]

والتدقيق هذا والحصر غايته إحكام القبضة والإتقان في المراقبة، وهكذا كانت القرية والمدينة ، غاية الاحتلال تهويدها بعد محو الجذور والأصول .

إذن نحن أمام صورة واحدة وإن تعددت زواياها ، الاحتلال هو الظلام الأوسع الذي خيم على سماء الوطن . والوطن – قرية – ومدينة – رزح تحت هذا الظلام . فكان المخيم نتيجة هذه الظلمات . فصورة المخيم أولا هي الثمرة المرة لهذا الاحتلال وأهله " ساكني المخيم " يعيشون على أمل العودة .

" قال المشط : إنه يعود إلى هناك مثلما تعود الطيور إلى أعشاشها "[2]

---

(١) العشاق : ٢١٥

(٢) تفاح المجانين : ٩٤

ووبالامتداد العكسي إلى القرية والمدينة . فالرواية الفلسطينية أشارت إلى ذلك الصراع الأزلي بين القروي والمدني . صراع التنافس . صراع التعالي

" اقترب طفل من أمه القروية الجالسة على البيضة فوق بلاط بيت النار وسألها :

- يمه مش بلدنا أحلى من نابلس ؟

- أنا عارف يمه ! كل الناس خير وبركة .

أصر على موقفه :

- لاء لاء بلدنا أحلى

.... وهمهمت ساهمة :

- بلدنا أحلى .

لوت واحدة شفتيها وهمست في أذن أخرى

- ما شاءالله . صار للقشل لسان وصار يحكي .

التفتت القروية وحدجتهما بنظرة مغضبة حائرة " احترنا فيكم يا أهل نابلس ما حدا بقدر عليكم ولا انتو قادرين على حدا . جبل النار ؟ على أيش يا قشلي ؟ والله والله لولا رجال القرى وفعال الفلاحين ما ظل في نابلس غير الصراصير . نابلس ؟ ياما شفنا منكم يا أهل نابلس ! يسلم تمك يا خضرة " .... أهل نابلس والكبرة وطول اللسان والنفخة الكذابة ، ....

صاحت أم فتحي تنهرها :

مالهم أهل نابلس يا حبيبتي ؟ اسم الله عليهم وحوطتهم بالله . رجالهم نار ونسوانهم شرار . وانتو الفلاحين أهل الخير والبركة . لولا الفلاح ما عاش المدني . والله لولا خيركم وأفضالكم كان هلكنا من الجوع "[1]

هذه العلاقة الجدلية بين القرية والمدينة موجودة ، مع وجود المنفعة المتبادلة . إلا أن الهوة النفسية تتفاقم . ولكن صورة المدينة والقرية في الرواية الفلسطينية تمتد أكثر

---

(١) عباد الشمس : ١٧٧

من هذا البعد الأزلي . حيث الاحتلال الذي غير كل شيء ، وهذا التغيير شمل المدينة والقرية .

" شيء ما قد تغير بل كل شيء تغير . والتغيير قد شمل الريف أيضا لا المدينة فحسب . ماذا حدث ؟ "[1]

هذا التغيير قد حصل فعلا وكانت المدينة ترضخ تحت هذا التغيير . صورة المدينة أمام هذا التغيير متفاوتة ، أهلها يعانون ، وفئة أخرى تقبل بهذا التغيير وتتفاعل معه . والبعض يهاجر للعمل ويندمج مع حياة الغربة بل وينعم في المال والترف . أما الباقي من هذه الفئة التي رضيت بالتغيير ، تبحث عن العمل داخل تل أبيب ، وتنعم بالموجودات السلعية الاسرائيلية . وفئة على نقيض هذه تقاوم الاحتلال بالعمل على ضرب الاقتصاد اليهودي ومراكزه ، أو بالمواجهة الفكرية ، الأحزاب الطلبة . ولكن يد العدو قاسية جدا ، لذلك وجدنا في صورة المدينة منع التجول وهدم المنازل ، والمداهمات المباغتة ' لاصطياد العناصر الفعالة .[2]

هذه هي صورة المدينة ، محاولة جادة لطمس الهوية الفلسطينية ، وتفاعل " عكسي إيجابي " مع الاحتلال .

وتأتي القرية في صورتها المترابطة الأجزاء مع المدينة . فكلتاهما وطن وتراب فلسطين ، القرية رمز الخلود والالتحام بالأرض المقاومة الجماعية . حب الأرض . الارتباط . مما جعل روح المقاومة تندفع بدافع النخوة – الدين – الحرص على الأرض ، تلك الأرض التي اختلط عرق ودم صاحبها فيها[4]، فلم نجد في صورة القرية . الهجرة للعمل . أو قبول البضائع اليهودية .

---

(1) الصبار : ٣٨

(2) انظر الصبار:٢٦-١٧٦-٨٨-٨٩-د١٧ و عباد الشمس:٣٨-٩٣-٦د-٩٩-١٢٢ و العشاق:د١٣-٦-١د

(3) انظر بير الشوم:١٢-٢٩-٤د-٤٦-٦١-١د٢ و عصافير الشمال:٧-١١-١٣-٢٣-١٢٤ و أيام الحب و الموت:٨-٩-٦٩ وعباد الشمس:٨د٢ و الصبار:٣٨

(4) ايام الحب و الموت:٩

(د) وقت:١٢٧

ويبقى الخيط الذي يجمع هذه الأماكن ، حب الوطن ، واستحضار أمجاده ، للخلود والصمود ،

" يا ولدي يا عبدالله ، الله يخليلك ابنك محمود .... الأرض نعمة . حطيت فيها روحي ، باقدرش أفارقها . "(د)

" يزداد التصفيق والتصفير .... والهتاف لفلسطين !

كان الأذن يقول : فلسطين ....

فترد الجموع .... عربية

يقول : فليسقط ....

ويردون .... الاستعمار ! "(٦)

" **حمل شباب على الأكتاف ، فدوى صوته :**

فلسطين للفلسطنين "(١)

هذا الخلود وهذا الصمود بحاجة إلى رائحة المقاومة وسقوط الشهداء وبغير الشهداء ستبقى فلسطين – المكان – ضائعة :

" زهدي ! زهدي يا أخي ! مات زهدي . وأنا أموت . الموت شر لا بد منه أنت يا أمي ملاك . وأنا سبع السباع يمه . قولي . مات شهيدا . قولي فدا القضية . فدا الأرض . "(٢)

وبهذه الاندفاعة " المقاومة " يكون البقاء في وجه التهويد ، تكون الأرض لأصحابها ، ويفشل اليهود في نواياهم الرامية لقلب فلسطين إلى إسرائيل . وتبقى فلسطين المعشوقة الوحيدة .

" هذه رائحة فلسطين ، رائحة خبز الطابون . رائحة الطعام الطيب . رائحة الألفة . أتعرف يا محمود . لو انني خيرت أن أكون من وطن من الأوطان لاخترت فلسطين "(٣)

" هنا أريحا . اخفض مكان في الأرض ، البيوت من طين . والسقوف منخفضة .... من أخفض مكان في الأرض نصعد "(٤)

---

(١) العشاق : ١٣د

(٢) الصبار : ١دد

(٣) العشاق : ٨٧ – ٨٨

(٤) السابق : ١٢٤

هكذا جمع الروائي الفلسطيني همومه وهموم شعب بأسره ، جمع هذه الهموم ونفثها في تراب وطنه . فكانت القرية أخت المدينة وكان نتاج هذا الهم المخيم . ولكن تبقى فلسطين هي فلسطين . ويبقى طائرها في الداخل يرف مقاوما الاحتلال — وإن عايشه فهذه المعايشة ، دليل التكيف وهذا التكيف دليل قدرة الكائن الحي على البقاء — وطائرها في الخارج يهز جناحيه منتظرا لحظة الانطلاق إلى العش الدافئ .

* * *

الخاتمة

وصل الجهد إلى نهايته.. وكان الباحث أمام نتائج يراها خلاصة البحث :

أ- فلسطين تجسدت في الروايات، قرية، مدينة، مخيما فكانت هذه الأماكن صورة لمكان يتحرك فيه الروائي الفلسطيني.

ب- القرية هي الأكثر حضورا. والروائي الفلسطيني صور حياة هذه القرى قبل الاحتلال وفي ظلامه. فكان الترابط والتماسك والحس الجماعي أمام المفاجأة الزمنية، السمات الغالبة، والقرية رمز الخلود والبقاء والالتصاق بالمكان. المقاومة تبدأ بحراسة حدود القرية. وتزويد مجاهديها بالسلاح، والقتال المشترك. ولا أنسى هنا انقلاب الواقع الحياتي للقرية، فبعدما كان الحصاد هو الهم الأوحد والمنتظر أصبح الحلم الأوحد الخلاص من اليهود.

ج- المدينة، رمز التحضر والعلم والثقافة، اتحدت مع القرية في وقوعها تحت ظلام الاحتلال، وكان سكانها على تفاوت في ردودهم تجاه هذا الاحتلال. هناك من قاوم عمليا، وكان عقابه تدمير منزله ومنع تجول أهل مدينته. أو فكريا. عن طريق أفكار الحزب والتجمع، وبث الوعي الفكري. وهذا مطارد أيضا. وهناك من هاجر خارج فلسطين بأكملها إلى دول الخليج أو غيرها. مع بقاء فلسطين حلما لدى البعض. ومن بقي هكذا استطاع أن يندمج بالمجتمع اليهودي ويبحث عن لقمة العيش في مدنهم التي استطاعوا تهويدها "مثل تل أبيب" وأغرق سوق مدينته بالبضائع والمنتجات اليهودية".

د- المخيمات: هذه الأماكن المظلمة – نفسيا ومكانيا –. عاش فيها اللاجئون والمبعدون والمهجرون قسرا عن ديارهم. فهؤلاء عاشوا في قبور جماعية وهم يتنفسون هواء الأحياء، يعيشون على أمل العودة.

هـ- صورة القرية والمدينة والمخيم في الرواية الفلسطينية زوايا صورة واحدة يجمعها إطار واحد. فالقرية هي البذرة الأولى لاقتلاع الفلسطيني من أرضه وبعد الاقتلاع يكون التغيير، "في المدينة" – وهذا الاقتلاع والتغيير يكون نتاجا مرا هو الشعب المشرد المحاصر. الذي تقلبه اليد الصهيونية داخل المخيمات.

و- تبقى صورة المقاومة موجودة تتحرك داخل القرية والمدينة والمخيم وهذه المقاومة هي سر البقاء، وهي سر الأمل بالرجوع والالتصاق مرة أخرى بتراب فلسطين.

* * *

قائمة المصادر والمراجع

أ- المصادر : -

١- جمال ناجي / وقت - دار ابن رشد - عمان - ط١ ١٩٨٤

٢- رشاد أبو شاور / أيام الحب والموت - دار العودة - بيروت ١٩٧٣

٣- رشاد أبو شاور / العشاق - دار الجيل للطباعة - دمشق ط١ ١٩٧٧

٤- سحر خليفة / الصبار - دار الآدب - بيروت

٥- سحر خليفة / عباد الشمس - دار الآدب - بيروت ط١ ١٩٨٠

٦- علي حسين خلف / عصافير الشمال - دار ابن خلدون - بيروت ط١ ١٩٨٠

٧- فيصل حوراني / بير الشوم - دار الكلمة للنشر - لبنان - ط١ ١٩٧٩

٨- يحيى يخلف - تفاح المجانين - دار الحقائق ١٩٨٢

ب - المراجع :

١- إبراهيم الفيومي / دراسات في الرواية والقصة القصيرة / منشورات وزارة الثقافة ط١ ١٩٩٧

٢- إبراهيم الفيومي / الواقعية في الرواية الحديثة في بلاد الشام - ١٩٣٩ - ١٩٦٧ - دار الفكر - عمان ١٩٨٣

٣- أحمد أبو مطر / الرواية في الأدب الفلسطيني - بغداد - دار الحرية للطباعة ١٩٨٠

٤- شاكر النابلسي / جماليات المكان في الرواية العربية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٩٤ ط١

٥- صالح أبو أصبع / فلسطين في الرواية العربية - منظمة التحرير الفلسطينية بيروت ١٩٧٥

٦- فاروق وادي / ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط١ ١٩٨١

٧- محمد حسن عبدالله / الريف في الرواية العربية - عالم المعرفة - الكويت ١٩٨٩

ج- كتب أجنبية مترجمة :

١- جاستون باشلار / جماليات المكان - ترجمة غالب هلسا - دار الجاحظ - بغداد ١٩٨٠

٢- جان إيف تادييه / الرواية في القرن العشرين - ترجمة د. محمد خير البقاعي - الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٨

٣- رينيه ويلك / نظرية الرواية - ترجمة حسام الخطيب - المجلس الأعلى لرعاية الفنون - دمشق ط ٢ ١٩٧٢

٤- مالكوم براد بري – الرواية اليوم – ترجمة أحمد عمر شاهين – الهيئة المصرية للكتاب – ١٩٩٦

د- مجلات ودوريات :

١- عالم المعرفة / في نظرية الرواية – بحث في تقنيات السرد . د. عبدالملك مرتاض – الكويت – كانون أول ١٩٩٨

٢- فصول / خصوصية الرواية العربية – مجلد ١٦ عدد ٣ شتاء ١٩٩٧

* * *



مطابع الجامعة

VOLUME 22 2011

JOURNAL OF ARABIC STUDIES

KINGDOM OF SAUDI ARABIA

KINGDOM OF SAUDI ARABIA
MINISTRY OF HIGHER EDUCATION
AL-IMAM MUHAMMAD IBN SAUD
ISLAMIC UNIVERSITY



www.imamu.edu.sa
e-mail: journal@imamu.edu.sa

عمادة البحث العلمي
Deanship of Academic Research